مارون عبود

رواد النهضة الحديثة

الشدياق . الاحدب . الاسير . اليازجيان
مارون نقاش . عائشة التيمورية . البستانيان
صروف . زيدان . اديب اسحق . محمد عبده
الكواكبي . الشميل . فرح انطون الخ..

دار العلم للملايين . بيروت

مارون عبّود

رُوّادُ النَهْضَةِ الحَدِيثة

دار العلم للملايين – بيروت

١٩٥٢

الطبعة الاولى
كانون الثاني ١٩٥٢

ما هذه مقدمة

•

يا سبحان الله !! قلّما خلت عادة من فائدة ، فالمرحوم والدي، رحم الله موتاكم جميعاً ، كان يجبرنا على الصلاة الجمهورية كل مساء ، فـــلا ينساها ليلة ولا يخرم منها حرفاً . اذكر انه ساقنا كلنا مرة ، وركّعنا بجانب فراش امي المغروصة، وقال لها: « يا امّ مارون، صلي معنا تصحّي. »حاولت المسكينة ان تضحك فكشّرت وقالت : « أهي فنجان بابونج ام كاس عرق ؟ » فضحك وقال :«صلي. بعد الصلاة يكون الذ وأطيب . »

كانت امي ، نيّح الله نفسها ، من القانتات تحب الصلاة كثيراً ، كيف لا وهي بنت الخوري موسى الذي كان يتوسّل الى ربّه بصلاة أطول من يوم الجوع ،ليرفضّ عنه الشباب الذين يسهرون عند بناته الكثيرات ... وقد سمّاهن كلهن عـلى وزن واحد، واليك اسم المرحومة الوالدة «كاترينا» لتعلمه وتقيس عليه...ولكنها ، أي امي ، كانت تهوّم متى قامت الصلاة ، فتأخذ بالسجود اللاشعوري، ثم لا تنفك تفعل ذلك حتى يرفع الوالد عقيرته مرتلًا (طلبة السيدة) . وكثيراً ما كان ينكعها اذا لم توقظها اول كيرياليسون ... ثم يمضي غرداً كفعل الشارب المترنّم على ما في صوته من بحة وصحل . واذا استعجلنا نحن اخذ يتمطط هو على هواه ، فنسير الهوينا اتقاء لشره ، ثم لا نتنفس الا حين يناجي العذراء ويضعنا (تحت ذيل حمايتها)...ولكنه يعود فيستأنف الصلاة من جديد فتكون كذنب الطاووس في الكبر لا في الجمال، فيقول:خمس مرات ابانا وسلام لاجل راحة نفس جدّكم ليعامله الله بالرحمة. ويفرض مثلها لجدّنا الآخر ، ولجدتنا الأخرى ، ومثلها لاقاربنا اجمعين ، ومثلها لجميع الموتى المؤمنين ومثلها لأجل ارتفاع شأن الكنيسة المقدسة ، ومثلها لكل من آجر في بناء

كنيسة الضيعة ، ثم لأجل من له علينا فضل وتعب ، واخيراً لأجل (المنقطعين) .

قد لا تكون جنابك من (شعب الله الخاص) فلا تفهم ما يراد (بالمنقطعين) ، وقد لا تستطيع الوصول الى الصديق الاستاذ الغلبوني ليشرح لك من هم ، فقد ورث الاهتمام بأمرهم عن المرحوم ابيه الفاضل . والاستاذ الغلبوني مفضل على أبي لانه قام مقامي وقدس لأجل خلاص نفسه اربعين قداساً... كان الاستاذ قد ظن ان والدي من (المنقطعين) وعدّ وجودي كالعدم ... فهنيئاً لوالدي . اما كافأه الله حالاً ، على ذكره المنقطعين بصلاته طول العمر !!

إخالك فهمت من حديثي من هم (المنقطعون) ، انهم أولئك الذين ليس لهم عقب يصلي لاجلهم ويقدّس . أظنني افهمتك ولكن بعد ما فلقتك فقل : صبر جميل . واسمع ايضاً .

ولما كبرنا اخذنا نتشاغل عن الصلاة وامسى والدنا يصلّي ووالدتنا ، ولما صار ارمل مثلي — ومن يشابه ابه فما ظلم الا في الصلاة — اخذ يصلّي وحده ،وظل على ذلك حتى آخر ساعة .

ففي ليلة من ليالي صيف سنة ١٩٣٠ سهر معنا كعادته وأطربنا بنكاته البريئة ، واخباره الطريفة . وقبل ان يتدهور الليل قال : يا الله ، علينا صلاة . فشقّ علينا ذهابه لانه برغم الخمسة والسبعين كان فتيّ الروح . فركع على تخته ، قبالتنا ،في بيتنا المناوح بيتي ، وشرع في صلاته ينبر نبراً ، ويرسل الجمل متقطعة كأنه الحجاج يخطب في الكوفة . وظل يفعل هذا اكثر من ساعة ، وضيفي الاستاذ جبرايل كان يسمع ويطرب لانه مصلٍّ كوالدي .

واخيراً صلّى الوالد صلاة (المنقطعين) وتمدّد في فراشه وهو يقول : (حطيت راسي عافراشي ، سبع صلبان فوق راسي ... مار مخايل يا مـــلاك ، تعينني وقت الهلاك ... الخ) ثم تلحّف وهو يقول : يا رضا الوالدين ، يا رضا الرب .

فقلت لجبرايل : انتهت المعركة بسلام ، وتصالح الوالد مـع الله ، ونال رضاه ورضاهما ، وسينام على سكين ظهره حتى الصبح .

ولما اصبحنا جاء والدنا يسأل جبرايل عن نومته ، وكيف وجد مناخ عين كفاع ،

اهو مثل مناخ (مار ماما) ام أحسن . فأحسن جبرايل الرد ولم يزد على الواقع . اما انا فقلت : النومة هنيئة ، لا برغش ولا بقّ ولا ناموس ، فقال : لا تقل ولا ناموس ... فضحكت لاستدراكه ، واعجب به صديقي الاستاذ .

ثم عدت وقلت : ولكن صلاتك كانت عياطاً ، كأنك تقاتل ربّك ، طوّلتها يا شيخ بو مارون ! فاجاب بغلظة : اسكت يا معتوه ، اصلّي عني وعنك ،وتقول طوّلتها !؟ يا ويلك متى مات بو مارون .

أجل ، لقد بعد العهد بيننا وبين تلك الصلوات ، ولكنني فطنت في هذه الايام الى ان الصلاة (للمنقطعين) نفعتني جداً . ان لم يكن في الدين ففي الأدب ، وكم للدين عند العلم والأدب من يد . اني ميال جداً الى « منقطعي » الأدب وكثيراً ما افكر بهم ، ولهذا دعوت الامة العربية منذ خمسة عشر عاماً الى الاحتفال بذكرى الخمسين لاحمد فارس الشدياق اعظم نوابغنا في القرن التاسع عشر . ولكن كلامي ذهب كصرخة في واد .

وها انا ذا اعود اليوم الى هؤلاء (المنقطعين) جميعاً ، واذا ذكرت معهم من لم يحرموا من يذكّر الناس بهـــم ، ويطري آثارهم ، فلأنّ سياق الكتاب يقضي بذلك . ثم لانهم جاهدوا جهاداً حسناً في بناء النهضة التي نفاخر بهـا . واذا طالت المدة ولم تقتلنا شدة ، فسوف نكتب كتاب « رجال النهضة » احياء وامواتاً .

والآن التمس منك ايها القاريء ان تقرأ جيداً ، أو أن لا تقرأ . اترك كتابي في ذقني اذا رأيتني اقول فيه ما لا توافقني انت عليه ، فالناس تناضل اليوم لأجل حرية القول ، وها أنا اهبك حرية القراءة ، فهب لي من لدنك ما التمست منك .

نصيحة لا حاشية :

اذا كنت لم تقرأني بعد ، فنصيحتي لك الاّ تفتش عن شيء ، بل اقرأ كل شيء لتجد ذلك الشيء ... وقد اعذر من انذر .

قبل المعركة

سنديانة الضيعة

●

اذا جاز لنا ان نصنّف الاشجار أوابد ودواجن ، فالأرزة آبدة ، والسنديانة داجنة .

الأرزة بادية ، والسنديانة حاضرة . السنديانة امّ لبنان . في ظلها تعقد الضيعة مجلس الشورى ، وتحت جناحيها يستريح الفلاح المنهوك .

هناكَ في فيئها ينفض الغبار عـــن حذائه ، وهناكَ يَستريح ريثما يجف العرق على جبينه كالربّ .

في ظلها الظليل يلعب الصبية ويمرحون ، فـلا دنانير تفرّ من البنان ، كما تراءى للمتنبي في شِعب بوّان .

في ظلها كنا نحصب الدوري عندما يغيب عنا الخوري . ومتى طلعت علينالحيته البحترية من خلف الجدار انكببنا على الكتاب ، وامنّا بهذه الحيلة هول الحساب .

٭

ايتها الحبيبة ،

هل تذكرين تلك القلوب الصغيرة ؟ ! فكم تكومت في حشاكِ الأجوف متوارية عن نظر المعلم ، وكم نبضت فيه ودقت ، فكانت لك فؤاداً يُحِبّ ويُحَبّ .

في احشائك الصابرة توارينا صبايا وشباباً ، فما ردت عنك حرارة قلوبنا برودة الشيخوخة وصقيع الهرم .

كم شاهدتِ من آباء واجداد يتجادلون ويعبثون وانتِ معبسةلا تفارقك المهابة . تمدين فوق رؤوسهم أغصاناً كأنها اصابع تداعبهم محسنين ، وتنكزهم مسيئين .

يا ام الضيعة، أي سر من اسرارها تجهلين ؟ أخفِيَ عليك شيء من نزواتهم ساعة

يجهلون ! اما كنت لهم دائماً امّاً حنوناً تستر على بنيها ؟

السلام عليك ايتها الام ، الممتلئة نعمة ، مباركة انت بين الشجر ، ومبارك ثمرة بطنك العقل اللبناني .

كأني بالرئيس اللبناني [١] حين قال : « اللبناني والشجرة رفيقا جهاد » قد فكر ببنتك المعرفة ، ثم بابنك المجذاف . اما كنت حياة لهذا البلد منذ كان ، ولما عرّي منك فقد الرجولة والطاقة .

يا أم اعمدة خيامنا مصيّفين ، ويا ام جذوع بيوتنا مشتّين ، اليك نرفع ابصارنا خاشعين مبتهلين .

ان مسنا القرّ دفأتنا جذوعك وأروماتك . وان لفحنا الحر برّدتنا غصونك . وان شخنا فمنك لنا السند والعضد ، منك العصيّ التي توكّأ عليها الجدود ، ومنك الخشب الذي يحنو علينا في اللحود .

ايتها الام الحنون .

كم كنا نرشقك بالحجارة الطائشة فيتساقط بلّوطك رطباً جنيّاً . يا كستناء القدامى ، ونقلهم الشهي في ليالي كانون المعربدة . ما اسماك مرتفعة عن الاحقاد !

ايتها الشجرة المقدسة ، قدوسة انت !

لاخينا العربي جمر الغضا ، ولنا فحم السنديان ، وأكرمْ بناره من نار خالدة . منك تعلمنا الحزم والعزم والثبات فصبرنا على الزوابع العابرة مقتدين بك يا امنا الصابرة .

يا بنت لبنان ، يا جامعة الفطرة والزمان ، كم هبط الوحي من أعالي سمواتك على الرؤوس الحانية على الكتاب !!

أتحصين الدفاتر التي حبّرتها ايدي من كان جذعك المنخور لهم مسنداً !! كم نظرت بألف عين الى من سوّدوا الاوراق فبيّضوا وجه لبنان .

ألست قابلة الحرف يوم وضعته امه ؟ ألست مرضعة الكتاب التي لا تعقّ .

مرحى يا سنديانة الضيعة الحبيبة . يا جارة الهيكل ما انت جارة !!

---

(١) الشيخ بشارة خليل الخوري .

انت امّ ، انت اخت، انت عروس يتجدد كالنسر شبابها. كلك جميلة ياحبيبتنا السمراء !

يقولون مدرسة تحت السنديانة ، وما احلى هذا الاسم الخالد . لقد انصفك من سماك هكذا . ففي ظلك ترعرع العبقريون ، ومن عودك استمدت يدهم الصلابة .

ما احسب كنانة عبد الملك بن مروان، حين كبّها ورأى الحجاج أصلبهاعوداً، الا من خشبك . وكيف يكون ذلك الرجل غير سنديان!? اما كان معلم صبية...

اذا ضاق عنا صدر الهيكل ضممتنا كما تضمّ الدجاجة فراخها .

واذا أطلّت امنا الأخرى القاسية ، تلذعنا اسواط اشعتها،تخبأنا تحت اذيالك .

ما احلى القمر يغمزنا من بين ثناياك كالاخ الاصغر .

يا جبارة بلا مجنّ ، يا فارساً جواده الجبل ، وسرجه الجلاميد. ما اصبرك على الحر والقر !! ان من ابدعك لا يضيع اجر الصابرين .

يا طويلة العمر ، هاتي قصي علينا حديث جهابذتنا . لقد طال صمتك يا حبيبة القلب ! أجوليبت ما هذا السكوت ...

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا . اقسم بك لا بغيرك ان دمعتي تفرّ كلما تذكرتك . لعلي ابكي على الصبا المولي ، وان كان المولي ما له صاحب ...

*

ان جذورك تقتات من رفاتنا ، فأي الاعماق تبلغ يا أم المعرفة ..

تعدين الاجيال كما نعد السنين . وورقك النخاس يثير همة الايدي المخشوشنة . وجذعك المشقق القشور كوجوه مشايخنا المجعّدة . كلاكما صابر يضحك من الظواهر الجوية . فكلما ازدادت اهتياجاً ازداد استهزاء ، متسمداً من رجائه حياة .

ان عند العواصف علم ما لا يعرفه النسيم . في صوتها الجهوري رعب دونه حلاوة صوت النسيم الرخيم . شاهدك « رنان » فقال لجدي: عندكم سنديانة شاعرنا لامرتين. فهز كتفيه لانه لم يكن يعدل بمار افرام وابي العتاهية احداً من شعراء العالم .

لقد ادرك ذاك الجد شيئاً من عزك ، وترنم بشعر (الملافنة) حول جذعك ، وعلمّ بني ضيعتك الشعر السرياني وما ينبغي لاقامة صلاة البيعة ، والنثر العربي لعمل

الدنيا و حوائجها .

اما شبعت صلاة يا ستي!! كم جيلًا طويت من رجال الهيكل المترنمين، الذاكرين الله هازجين .

استظلوا بظلك احياء ، وناموا تحت جناحك على رجاء القيامة .

ترى بماذا كنت تفكرين ، حين كانوا يتمتمون صلاتهم متمشين تحت ظلك : قاديشات الوهو الخ . أي قدّوس الله قدوس القوي ، قدوس الذي لا يموت .

هل كنت تحسبين انك قوية فغرّتك عينك وحلمت بالالوهية كبعض الناس ! هل ظننت يوماً انك لا تشيخين !؟

رأت اوائلنا شبابك الغض ، وابصرت جدودنا اكتهالك المجتمع الأشد ، ورأى الآباء ورأيت انا طلائع شيخوختك ، وسترى أحفاد الاحفاد هرمك ، والله يعلم من الذي يشهد احتضارك .

انه لبعيد ، ايتها الجبارة التي لا تريد ان تموت .

ايها البرج المعلقة على جدرانه مجنات جبابرة الذكريات . ما اجـلّ شيخوختك واروع وقارك !

هاتي الحديث . اعندك خبر هذا الهيكل الذي دكه الزلزال ؟ لم يبق منه غـير بضع حجار ضخمة ، فبقيتما كلاكما تتناظران ضاحكين من خفة عقل الطبيعة .

أيرنّ في اذان جذوعك ما يرن في اذني من ذكريات الماضي؟ ترى ماذاتقولين لها اذا خطرت على بالك ...

هل تذكرين فتوة اوائلنا ؟ اما كركرت في الضحك حين رأيت بنيك يشيخون في التسعين وانت يا أم التسعينات لم ينحن رأسك ولم تحدودبي ....

كم تسارّ وتناجى ابناء القرية وبناتها في ظلك، فلم تفشي لهم سراً ! كم استغادوا بظلك من ضوء القمر الفضاح، فكنت ابر من امّ تستر على بنيها، وان آلمها سلوكهم!

ايتها الناسكة الازلية ، يا بنت الغابة ، كيف عشت وحيدة كل هذا العمر ؟

يا طويلة العمر ، السلام عليك .

يا ناسكة الدهر ، احسن الله جزاءك والاجر !

مدرسة (تحت السنديانة)

●

مدَرسة ضاهت الجامعات بمن خرّجت. لم أقل بمن أخرجت لانها قائمة في العراء، ولا باب لها فيُخرج منه . فحدّ الهيكل ، في ظل السنديانة ، كنا نقعد نتعلم . واذا ما انهلّ المطر هرولنا الى صحن الكنيسة ، نقيم الدروس فيها اذا خلا (بيت الجسد) من القربان . اما اذا كان القربان (مصموداً) ، وكم كنا نتمنى ذلك ، فنكرُّ الى بيوتنا راكضين ، كما تكرّ الى أوطانها البقر ... وتسقط عنا كلفة المشي على الدرب مكتّفين . كان يأمرنا المعلم الا نتلفت يميناً وشمالاً ، فنسير وكأن كل واحد منا حصان عربة مكدون . علينا ان نمسّي ونصبّح كل من نراه على رمية حجر ، ليقال إنا « تلاميذ مدرسة » . اما تحية الظهر فكانت : المجد لله . وجوابها : دائماً لله . وكثيرون كانوا يختزلون الردّ فيكون « دائماً » فقط ... ليستطيعوا ردّ سهامنا المتلاحقة . اما بَوس يد الأب والام والخال والعم وكل نسيب حتى الدرجة الخامسة فكان من اقدس الواجبات ...

واما مقاعدنا فكانت فروةً شتاءً ، وعلى الارض او الحجارة صيفاً . وللمعلم كرسي الكنيسة الدهريّ ، وهو من خشب التوت المعمّر . كان المعلم يجعل تلاميذه خطاً مستقيما ، حسب مرتبتهم العلمية ، لكيما يصحح المتقدم خطأ المتأخر ، ولا يعود الى المعلم الا كبش الكتيبة ...

وقبل ان نصف المدرسة وطلابها علينا ان نعرفك بالمعلم سيدها الجبار المسيطر . السحنة معروفة . فلا نستطيع تحديد الشخصية وتصويرها لاننا لا نتكلم عن واحد بعينه . فالمعلم يكون غالباً من اصحاب السمت . لباسه غنباز قاتم اللون . يشد وسطه بزنار يختلف عن الغنباز لوناً ، ولكنه يظل أميل الى السواد محافظة على

الابهة والوقار . واذا لم يكن المعلم ملتحياً فهو لا يحلق ذقنه الا نادراً . عليه ان يظل معبساً ليدبّ الرعب في قلوب تلاميذه فيحول تجهمه دون شيطنتهم . وكان يزيد في ابهته تلك ، ذلك الطربوش المدوّر الاحمر — المغربي — الملفوفة عليه شملة سوداء من الحرير الخالص ، ذات خطوط متواضعة اللون . اما (شرّابة) طربوشه فحريرية زرقاء ، خيطانها انعم من صوف الهررة ، وكثيراً ما كان يقترض منها الليقة لدواته النحاسية المشكوكة في زناره . تلك كانت سمة (المعلم) ولعل شرّابة قبعة الجامعيين اليوم مأخوذة من هاتيك (الشرّابة) ... ولا فرق بينهما الا ان شرابة هؤلاء من قدام ، وشرابة جامعة تحت السنديانة كانت من خلف .

كان بعض المعلمين يختنون تلك الشرابة ، ومنهم من كان يجور عليها فيستأصل دابرها ... ولا يبقى الا تلك الهناة التي تعلق بها ، فتنتصب فوق قلة رأسه كأنها اصبع يشير الى السماء موّحداً المعلم ... الله اكبر .

يجلس على عرش غضبه، ومن حوله قضبان رمان، اذا مات منها سيد قام سيد... فالرمانة حدّ الكنيسة ، والسعيد منا من كان يكلفه المعلم قطع القضبان منها ، متى استهلك ما عنده . اما (الفلَق) وهو شر ما خلق ، فلا يلجأ اليه الا في الجنايات الكبرى . اما الخيانة العظمى فتكون حين نضحك من المعلم اذا كان معوّهاً ، وكثيراً ما يكون ذا عاهة . كنا نصطف خطاً مستقيماً حد حيط الكنيسة ، كما مر : في اليمين المدلّ ، وفي اليسرى ورقة الألفباء ، أو الأبجد ، او القدّوس ، مكتوبة بخط يد المعلم الطاهرة ، مشكوكة بعود مفروض ، له مسند تتكيء الورقة عليه . اما حملة الكتب ، أي المتقدمون في الأخوة ، فهؤلاء يقرأون بلا مدلّ ، لانهم (لقطوا) الحرف ، ويقرأون كرجاً .

يبدأ الدرس ، دائماً ، بالصلاة ، وان كنا خرجنا اليه من القداس تواً . ثم علينا ان نقرأ جميعاً بحرارة ، ومن كان صوته جهورياً اكثر كان اشدنا اجتهاداً . ما على المعلم الا ان يراقب افواهنا ليرى اذا كان فينا من لا يقرأ ، بينما نحن نرميه بطرفنا مزورّين. واذا ضحك احدنا، ولو في عبّه، جاءه قضيب الرمان يخط في بدنه الرخص ازلاما ...

ذاك كان اول واجبات معلمنا ، فهو يعرف الكلمة المـــأثورة : من ضحّكك بكّاك ، ومن بكّاك ضحكك . فكثيراً مـــا كان يحدثنا بنعمة قضيب العز ، مرّصعاً خطبته التربوية بقول ابن سيراخ – كما يزعم – : من احب ابنه فليهيء له القضبان حزماً حزماً . واذا تجاسر ولد وأفلت من براثنه ساعة التأديب أرسلنا جميعاً خلفه لنعود به اليه محمولاً على الاكتاف والاعناق ، كأنه احد زعماء هذا الزمان... وهذا ما كان يطلق عليه اسم (الزيّاح) .

امـــا القصاص فكان يختلف باختلاف الجرائم ، فمن ضرب بالقضيب او المخفقة – الطبشة – على بطن الراحة ، او على رؤوس الانامل مجموعة ... الى الركوع على الحصى . وكما ان آخر الدواء الـكيّ كذلك كان آخر القصاص (الفلق) .

وهناك قصاص أمرّ ، وهو تزيين صدر المقصر بورقة مكتوب عليها (حمار الصف) . واذا قصّر احد ، عند الامتحان ، في قراءة كلمة أمَرَ المعلم مَن فوقه ان يضربه كفاً ، او يفرك اذنه الخ .

اما ما كان يتقاضاه المعلم – عدا المرتب الذي يتناوله من الوقف – فهو (سمحة نفس) : بضعة ارغفة من الخبز ، وبضع بيضات ... الى آخر ما هنالك ، مما تجود به عليه الأم الحنون ليرأف بابنها العزيز ويشمله بالنظر السامي ، فكأنّ كل الامهات كن يعرفن قول الشاعر :

ان المعـــلم والطبيب كليهما لا يخلصان النصح ما لم يكرما

وكانوا يعزمون عليه متى كان عند ذوي الطالب أكلة طيبة فيأكل هنيئاً مريئاً... كثيراً ما كانت تلهينا (اوركسترا) العصافير الدُورية حين تعزف ، فيكشها المعلم اما مصفّقاً واما مطبطباً ، ثم يعدو اذا لم تطر ، فنضحك حين ينفجر ثغر غنبازه ويبدو سرواله الازرق المفتوق ، فيظن ذلك استحساناً ، ثم يتهالك على كرسيه بعد ان أدّى واجبه . وعند الفطور كان يهيب بنا : يا الله ، (هوشة الترويقة) . فيعلو صياحنا ويشتد ، فيقصر لنا الوقت بقدر عياطنا ... وكذلك كان يفعل عند بعثة الغداء . اما (الهوشة الكبرى) فتكون عند اخلاء السبيل قرب الدغيشة .

بقي امر خطير لم اخبرك عنه ، الا وهو الخروج لقضاء الحاجة ... كان علينا

ان نستأذن قائلين : دستور يا معلمي . فيتناول جلالته – قبل اعلان الدستور – صولجان الرمان ، ثم يقول : افتح يدك . ويضرب السائل امـا قضيباً او قضيبين قائلاً : ان تعوقت (تأكلها) ... فهقهنا مرة جميعاً ، فطار الينا بجناحي غنبازه المهيضين ، فعثر بهما ووقع ، فكركرنا في الضحك ، فانشقّ من الغيظ وسقانا كأس قضيبه دورين .

وكان بعض الكسالى يطيلون الاقامة في ذلـــك الموضع ... عندما يمنحون (الدستور) فلكي يستعجلهم كان يبزق على حجر، والموعد قبل ان تجف تلك البصقة، والويل لمن لا يسبقها . اما الجبناء من التلاميذ فكانوا (يقضونها) في ثيابهم ، ولا يجرؤون على طلب (الدستور) فيمسي شغل امهم الشاغل اعداد الثياب وشراء الصابون .

يا ليتك رأيت التلميذ ماثلاً امام المعلم ، فاتحـــاً يده ليسلم عليه القضيب سلام الاحباب . التلميذ يقدمها ويؤخرها ، وجوارحه تنضح خوفاً وذعراً . والمعلم يتهيأ كيلا يخطيء الهدف . التلميذ يتوجع ويبكي سلفاً ، ماداً يـده نصف مـد ، والمعلم يكزّ ويصرخ : افتح يدك !

اما الرفاق فيتفرجون ، حتى اذا ما انتهت تلك المعركة عادت مياه المدرسة الى مجاريها ، وقال المعلم بعد النصر المبين : العصا علمت الدب يرقص . ادرسوا يا اولادي .

هذا حديث عام ، اما حديث عبدك الحقير فهو هذا :

أرسلت الى مدرسة تحت السنديانـــة ابن خمس ، فكنت ذنب الصف طبعاً . قعدت اول يوم ولا شغل لي الا كشّ الذبّان ، وتأمّل رفاقي ، وسؤال الله ان يفك أسري . ومرّ اليوم الثاني كالاول ، وكذلك راح الثالث ... رآني ابن عمي على تلك الحال فضحك ، اما انا فاجهشت ، وقلت بانكسار : يا فارس ابن عمي . قل لامي ، مارون (بدّو) ياكل .

وبلغ الخبر الوالدة فصاحت : تقبر المدارس ... يا جرستنا . ريْ ، يه ، يهْ .

وصبر جدّي الخوري عليّ اياما ، ولما رآني مصراً بعناد عـلى البقاء حيث انا ، أي ذنب الصف ، لم يرض بها حالة . أيكون حفيده في هذا التأخر المخزي !! جرّب اولاده ولم يوفق الى من يخلفه ، وها ان بوارق إخفاقه تلوح في جو الخيبة من جديد

فما عساه يعمل ؟

— قم يا مارون احمل ورقتك والحقني .

فقال المعلم : لأ يا جدي الخوري ، اصبر علينا .

فاجاب جدّي ، وهو ممتعض : آخذه جمعة واردّه . اتركني .

وقعد جدّي على المصطبة ، وقرفصت انا امامه ،فشرع يعلمني الالف باء ،فضحك والدي وقال لابيه : الصبي راضع حليب بقر ... لا تتعب قلبك .

وقرصت تلك الكلمة والدتي—لانها لم تكن التي يقال لها: لله درها—فاستعبرت . اما جدي فهز لوالدي العوجا — اسم عصاه الموسوية — وقال له : انتم ما تعلم احد منكم ، اترك الصبي يتعلم !!

وما اصبحنا وامسينا حتى كنت تعلمت : الألف والأبجد والقدّوس . فتهلل جدي للفتح الجليل ... فجاء بالمزامير وشرع يعلمني (الطوبى) و (لماذا) . وبعد جمعة صرت في المزمور الثامن : (ايها الرب ربنا ما اعجب اسمك في كل الارض .) فشكر جدي الله ، واخذ بيدي كما يأخذ الراعي باذن شاته ، ومـــا بلغنا سنديانة الكنيسة حتى دفعني دفعاً فوقعت في حضن المعلم ، فقال له جدي : افحصه . ولما رآني جدي ، عند الامتحان ، كما يعهد قال للأولاد : وسّعوا له .

فاجاب المعلم طنوس : لا توسيع يا جدّي ، محله فوق ...

وشاء الوالد ان يختبرني في احدى الأمسيات فقعد على عتبة (برطاش)الباب ، واقعدني امامه ، وقال : اين صرت ؟ ففتحت مزاميري وقلت : هنا ، في المزمور التاسع عشر . فقال : اقرأ . فقرأت : يا رب بقوتك . قرأت (بقوتك) كأنها كلمتان ، فاستضحك الوالد وقال : قم عني . المزامير ما فيه تكوك[1] فخجلت ونمت تلك الليلة حزيناً ، واظنني لم اتعشّ .

وانتهت القراءة العربية وجاء دور السريانية ، فكان التنافس بين الآباء . كان جدي يعلمني السريانية في الليل ويعاونه عـــليّ والدي وعمّاي ، حـــتى حسبتني (خروف مور) يعلف للمرافع ... وهكذا ظللت محافظاً على الأولية الضارية ،

---

(١) التك هو المتاليك بلغتنا المحلية ، والمتاليك عشر بارات تركية .

وطابت نفس جدي .

وكنا نلحن ذات مساء احد ميامر مار افرام ، فقال جدي : ستكون انا على (الخورس) ولا ينقصك إلا صوتي . غير ان ذلك الحلم لم يصح ...

ثم انتقلنا الى الفرنسية ، وكان المرحوم لا يعرفها ، فخاف عليّ ، ولكنه اطمأن حين درى انها ليست في حساب الأوليّة . كنت أنا اكرهها لاني كنت اتعلمها ، وحدي ، دون اولاد القرية . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، فكّ تلك العقدة. وقع خلاف في الضيعة ، فاخذ احدهم كتبنا خلسة ورماها في بئر الكنيسة ولم يدع منها غير كتبي الافرنسية : الغراماطيق وديالوغ حرفوش . فاخفيتها انا خلف المذبح الصغير ، واسترحت منها حيناً ...

وصرت الاختصاصي في خدمة القداس،فكنت ازهو حين تعجب الناس قراءتي (الرسائل) و (السنكسار) وترتيل (الفراميات) . ثم صرت انافس الكهنة على (القرّاية) حتى في صلاة الحاش – جمعة الآلام – واخيراً صرت اجاحش في كل ميدان ...

وهاجر المعلم طنوس ، فحلّ محله غيره ، ثم مات هذا فكان موته عيداً كبيراً عندنا . وفتشوا عن آخر فما اتفقت كلمتهم على واحد لانهم كانوا حزبين ، فكان ذلك عيداً اكبر .

وظلت الضيعة بلا معلم ، فقال جدي لوالدي : رح دبّر مدرسة للصبي. وانتقلت من مدرسة تحت السنديانة الى مدرسة حولها سنديانات ، ومنها الى مدرسة في غابة من هذا الشجر المبارك – مار يوحنا مارون – ثم كانت خاتمة المطاف في مدرسة الحكمة .

ما صعب عليّ شيء في مدرسة غير بري القلم ، ومع ذلك قلت في وصفه حين نظمت الشعر : تعلم بطش الأسد في ضفة النهر .

هذه صورة من صور مدرسة تحت السنديانة ، التي يتحدثون عنها في لبنان،وغير لبنان ، حتى ان آنسة في باريس كتبت الى صديقي الاستاذ جبور عبد النور تسأله أن اصفها لها ، لانها تحتاج اليها في اطروحة الدكتوراه ، فما فعلت الا الآن ، وان

كنت لم اتعدّ جهد المقلّ ولقطة العجلان .

اليس كلامنا في كتابنا هذا عن (رواد النهضة) ؟ وهل هؤلاء الرواد غير تلاميذ مثل هذه المدرسة ؟ اذن لا بأس علينا ان تكلمنا عن السنديانة ومدرستها ، قبل ان نتكلم عن خرّيجيها ، وخريجي امثالها من ذوي الآثار الجليلة .

بين الكهف والدار
نسخ وطبع، ترجمة وتأليف

●

في اعماق الديورة، وجوار الجوامع بقي للعلم قبسٌ كنار المجوس الدائمة. اجل، في ثنايا كهوف الجبل كانت تذكى تلك النار بالقلمين: العربي والكرشوني، فظل الكهف، في زمن الرعب، مستودعاً للمعرفة، ومعجناً لخميرة العلم، فتختمّت وفاضت على حفافيه. ففي غرفة ذات ثلاثة أذرع عرضاً، في اربعة طولاً، كان يجتبي راهب يابس من الصوم او يقرفص. امامه مصباح من الزيت، بلا زجاجة، يرسم نوره المترجرج خيالات واشباحاً كأنه الفانوس السحري. يحنو على كتابه حنو المرضعات على الفطيم، يقرأ بامعان ريثما تستريح اناملهو ويزول خدر رجله، ثم يعود الى عمله بعدما يتبسط جلده وتمحي الاثلام التي شقها فيه قش الحصير.

اما الدواة النحاسية ذات الأنبوب الطويل فهي امامه على «سكملة» والمزملة حدها. يتكيء قلم «الغزّار» على صدرها كما ينام الطفل على عنق امه. إن له في احشاء الدواة اخوة يحلون محله متى كلّ، والسكين مشحوذة دائماً لقطّ رأسه، أو بري سواه. وعن يمين الناسخ، كاهناً كان او شدياقاً، لوحة مشبوحة بالخيوط شبحاً متناسقاً مستقيماً، يصلب الناسخ عليها الورق لتستقيم له السطور.

ذاك كان عمل رجال الدين من كل ملة، وخصوصاً رهبان لبنان المنزوين المنقطعين في اشداق الجبال وحناجرها. لا عملَ للقاريء الكاتب منهم غير التعليم ونسخ الكتب، او ترميم ما رثّ منها، كما قال جرير في وصف قبر أمّ حزرة:

وكأنّ منزلة لها بجلاجل   وحي الزبور تجدّه الأحبار

او كقول ابن ابي ربيعة:

لِمَنْ دمنٌ بخيف منىً قفور   كأنّ عراص مغناها الزبور

اجل ان الزبور كان اكبر حظاً من غيره عند النساخ . ثم كان اول ما طبع ، وسبب ذلك تلك الشاعرية والصوفية التي كانت تستأثر بهوى نفوس الناس يوم لم يكن للمادة هذا الطغيان ، ويوم كان الناس يؤمنون ، ويخشون الخطيئة فيتشبهون بصاحب الزبور خاطئاً ، ويستغيثون بمزاميره تائباً . ان الله لتواب رحيم .

اما الأميون من هؤلاء النساك فكانوا للحراثة والحياكة والسكافة والنجارة وكل ما يقتضيه اسلوب حياتهم . وهكذا حفظوا العلم من الضياع قبل ان انبرت له المطبعة . فمن قلم الغزار ، الى المطبعة الخشبية ، فالحجرية ، فالرصاصية الحديثة السريعة الخطى ، كل هذه المواكب الثقافية ازجاها ، اولاً ، الدين ورجاله . فجلّ هؤلاء بل كلهم قد نشروا العلم إحياءً للدين ، ولكن العلم كان عقوقاً فصح فيه القول : اتق شرّ من احسنت اليه .

اما تاريخ المطبعة فقديم العهد عندنا . استهلت اول مطبعة في المشرق سنة ١٦١٠ أهدتها رومة الى الرهبانية اللبنانية في دير قزحيا . وما دير قزحيا غير ذلك الكهف الذي اسمع جبال لبنان اول شعر عربي فصيح ، بعدما كان يقال زجلا . وما ذاك الشاعر اللبناني الاول ، غير الراهب جبرئيل ، الذي صار ، فيما بعد ، المطران جرمانوس فرحات اول روّاد الفصحى . ثم أنشأت هذه الرهبانية مطبعة اخرى في دير طاميش .

وفي حلب الشهباء انشئت اول مطبعة عربية عام ١٦٩٨ ثم كانت مطبعة الشوير سنة ١٧٣٢ ، ثم مطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٧٥٣ ، ثم مطبعة بولاق عام ١٨٢١ .

وعمّت المطبعة هذه الربوع وكان اكبرها واعمها فائدة مطبعة الاميركان ومطبعة اليسوعيين ، والمطبعة الادبية لخليل سركيس ، فطبعت كتب كثيرة ساعدت على نموّ النهضة واشتداد ساعدها . وانشأ الروّاد المهاجرون – الشدياق وغيره – المطابع العربية في الاستانة وباريس وغيرهما من عواصم الدنيا فانتشرت لغة الضاد وذاعت حيث حلت ركاب ابنائها .

وعرف الشرق الصحافة فكانت « حديقة الاخبار » اول جريدة أهلية لا تشوب لغتها تلك الركاكة التي كانت تشوب لغة الجرائد الحكومية « الرسمية » ، وولدت بعدها جريدة مرآة الاحوال لرزق الله حسون، ثم جريدة « الجوائب » لأحمد فارس التي استقام معها لسان العرب .

اما المدارس فأقدمها عين ورقة ، التي أنشئت في القرن الثامن عشر ، وفيها نشأ كبار الرواد كالشدياق والبستاني والدحداح الخ . اما اوفرها فضلا على هذه النهضة المباركة – وان كان الفضل للمتقدم – فالكليتان اليسوعية والاميركية . انهما منبع التجديد والتطعيم، بعد اولئك المهاجرين الذين سبقوا مولد هذه الكليات في الشرق .

وقد أدّى نشوء مثل هذه المدارس الكبرى الى انشاء جمعيات ادبية كثيرة ، فتعاضدت عناصر عديدة كالتمشرق والتمغرب . فخلقت هذه النهضة الميمونة فكان لنا ادب جديد . ولسنا نعدو الحق اذا قلنا ان كتب الاب لويس شيخو اليسوعي نحلةً ، والسرياني نبعةً ، والعربي لسانا ، قد كان لها ابيض يد على هذا التوجيه ، فهو واضع اول دفتر من روائع الاستاذ فؤاد افرام البستاني وعلى اثره تمشى. وشيخو، ايضا ، هو واضع مجاني الادب ، اول مجموعة من المختارات الادبية ، على النسق الغربي ، مع المحافظة على التبويب العربي . وسيأتي الكلام عن هذا الرجل وآثاره الجليلة النفيسة .

لقد كان التنافس الديني الاجنبي في لبنان من اهم بواعث هذه النهضة الحديثة ، وحسبك دليلا عليها تلك الكلمة المأثورة عن فنديك : « رايح افتح مدرستين » . يعني انه متى انشأ مدرسة بروتستانتية ينشيء اليسوعيون مدرسة كاثوليكية ، كما انشأوا البشير قبالة النشرة الاسبوعية، والمطبعة الكاثوليكية بازاء المطبعة الاميركية . كل هذا كان يجري والمسلمون جامدون ، ينظرون الى هذه المدارس الاجنبية بحذر ، والى هذا التجديد في التفكير والتعبير بتحفظ . ولكنهم لم يلبثوا أن جروا، اخيراً ، في الميدان ، مقتدين بالغزالي حين بلّ يده بقائم سيف المنطق ، وانبرى للمعتزلة .

ولا ننسى معرفة اللغات الاجنبية فهي النبع الاغزر الذي روى تربة النهضة فنمت فروعها ، ونضرت غصونها . عرف قدماء « الرواد » الطليانية التي خلقت النهضة الادبيـــة الفرنسية ، ولكنهم كانوا منصرفين عن الادب الى ما هو ديني ، فعرّبوا ما يتصل بالدين دون غيره ، ثم ترجموا الى اللغات الاجنبيـــة بعض الآثار العربية .

ان معرفة اللغات الاجنبية والتضلع من السريانية كان لهاهذا الاثر الأبعد في تعبير هؤلاء ، فجاء مميزاً من تعبير اصحاب اللغة الواحدة . كان هؤلاء كما قال النابغة في مدح الغساسنة : عصائب طير تهتدي بعصائب ، فما وقفوا عند حد ، بل تنافسوا في كل فن ومطلب ولم يتركوا بابا من ابواب العلم الا طرقوه . لقد فعلوا كما فعل مشايخنا الخوازنة في زمن الاقطاع ، فملأوا كسروان ديورة لمختلف الامم والنحل. كان اذا وقف شيخ منهم عقاراً على رهبان طائفة ، وقف شيخ آخر شطراً مما يملك على رهبان طائفة اخرى ، وهكذا صارت المقاطعـــة الكسروانية كعلية صهيون ، حين فاجأ البارقليط التلاميذ فيها ، فنطقوا بألسن عديدة ...

اما النسخ ، وقد كان مدرسة ثانية للناسخين ، فلم ينقطـع ، اذ لا يزال عندنا كتب لم تطبع ، كالسنكسار – سِير القديسين – ففي نسخ هذا الكتاب كان يتبارى النساخ في اضافـــة عجائب ومعجزات الى قديسين يحبونهم . خذ مثلاً ، مار روحانا – شفيع قريتنا – فهـذا القديس لايعرف بهذا الاسم في السنكسار العام ، ولكنه لم يعدم من كتب ا[illegible]كساراً خاصاً ، فضمنه من العجائب ابعدها مدى ، ومن المعجزات اغربها . زعم الناسخ ان قديسنا المكرم انقذ غلامين من أسد كاد يفترسهما . وجـــاء المصوّر ، فيما بعـــد ، فرسم نهراً كبيراً بين الغلامين ، وصوّر الاسد مقعيا عبر النهر ، ينظر الى فريستيه بعين محمرة ... فعل المصور ذلك لتستسيغ مِعَدُ المؤمنين العجيبةَ ،ولكن تعليله لها زاد في الطين بلة . اما كان في مكنة القديس المعظم ، وهو صاحب القدرة ، ان يكمّ فم الاسد ،مثلاً، ولا يصدع خاطره في اجراء نهر لا بد ان يكون كنهر العاصي كيلا يقطعه ذاك الاسد . اذا كان في استطاعة اولياء الله ان يشفوا المريض بوضع اليد ، فأية حاجة

الى الدمل الاصطناعي ... ثم شاءت العاصفة ، بعد سنين ، فحطت الصورة من عل ، فصورت ثانية مستعيدة بساطتها .

هذه بعض آفات النسخ ، ولا ننس الأخطاء والتحريف والتصحيف . لقـــد انبرى اليوم للتصحيح والتمحيص علماء مختصون فاصلحوا ما افسدتـه يد النساخ ، ولكن النسخ ، في كل حال ، قد كان من عناصر النهضة الحاضرة ، شارك في انمائها مشاركة مثلى ، فحفظ آثاراً كثيرة من الضياع ، كما طبـع الكثيرين من الرواد على غرار البلغاء الذين كانوا ينسخون كتبهم .

وقصارى القول ان الضعيف المقهور يلجأ اما الى بيت مهجور ، او الى كهف ، وهذا ما اصاب اللغة العربية في بدء نهضتنا . هربت من وجه طغيان التركية فآووها في الديورة ، فصح فيها مثل جريح أريحا ...

ونحن في الشرق مطبوعون على التشبه وتوارث المهـن ، ولهذا ترى ان العلم يكاد ينحصر في بيوت وأسر دون سواها . وفي كلمـة قالها صروف عن منافسته للشميل : « وكان كل واحد منا يتشبه بابن بلده – اي الشدياق واليازجي »ـ اصدق برهان على ما قلت . اما الان فقد حان ان نعرفك بالرواد « المنقطعين » واحداً فواحـــداً .

الرّواد العِتاق

شعراء نسّاك ومتصوّفون

بلا عنوان

●

لقد احترت في تبويب هذا الكتاب . لم استطع فصل الشعراء عن الكتاب ، لان كل من حمل قلماً قال شعراً ... فمن يدريني ، بعدما قرأت قصيدة لفرحانطون قال انها « بيضة الديك » ، ان ليس لكتابنا الآخرين بيوض ديكة، ولكنهم آثروا ان يكنّوها ، كما كنّ الحجاج أهل الشام ...

واني لاخرج من هذا ، بعد هذا ، مصدقاً قول من زعم: ان الاندلسيين جميعاً، نساء ورجالاً ، قالوا الشعر ، ومؤيداً قول الآخر : ان الشعر اسبق من النثر في آداب الشعوب . واخيراً خرجت من ظلمات هذه الحيرة فاحصيت كل«رائد»حيث وجدته ابعد أثراً، وأخطر شأناً ...

واني انذرك ، منذ الآن ، بألا تنتظر مني ذاك النقد المرّ الصارم ، لان عيوب الاوائل منهم كثيرة .

واقراراً بفضل هؤلاء ازيد : ان الادباء كمنارة الشاطيء ، فهي تضيء ابداً ولا يقرّ جيرانها بفضلها الذي يعرفه القادم من بعيد ...

القافلة الاولى

المطران والخوري

المطران جرمانوس فرحات

هو أول رائد اعجبته خضرة الدمن ، واذا مـا تحدثنا عن فجر النهضة الادبية فلسنا نعني البلاغة العربية ، فالعالم العربي لم يخلُ قط من الفصحاء ، بل ممن هم افصح وابلغ من اكثر هؤلاء الذين نسميهم الرواد العتاق . فعندما يتكلمون في الأدب عن أثر النصارى في نهضتنا الادبية فما يعنون ولا نعني نحن الا هـذا العنصر الجديد الذي احدثه فيها نصارى الامس ، كما احدثه من قبل نصارى العصر العباسي وبخاصة السريان منهم ، فأوضحُ آثار اولئك كان بما نقلوه الى اللغة العربية ، وها ان هؤلاء ينحون نحوهم . فاول من ترجم كتابي هوميروس كان من اولئك ، وهوتاوفيل بن توما الرهاوي الماروني رأس منجمي الخليفة المهدي ؛ وقد كتب عنه صديقي البحاثة الاديب نور الدين بيهم .

فأولية جرمانوس فرحات ، اذن ، ليست في شعره ، فقد كان في زمنه شعراء مسلمون ابلـغ منه قولاً ، واصح كلامـاً . ولكن كونه اول شاعر من مستعربي لبنان ، قال الشعر معرباً بعدما كان زَجلاً سرياني الوزن أحله هذا المحل . فالشعر ابتدأ في لبنان من حيث انتهى في الاندلس . نشأ في الاندلس شعراً رصيناً بليغاً ؛ ثم صار موشحات . وصارت الموشّحات مهلهلات ؛ ثم اخذت تنحط رويداً رويداً حتى امست ازجالاً ، بل كلاماً بارداً .

ان هذا الاسقف المولود في القرن السابع عشر ؛ فضل التأليف في النحو ؛ فهو اول نصراني الف فيه ، بعدما اخذ هـــذا العلم عن الشيخ سليمان النحوي المسلم في

حلب[1] . وله ايضاً فضل اكبر واعم اذ صحح الترجمة العربية للمزامير والاناجيل ، وسائر كتب الموارنة الكنائسية ، فعرفت الكنيسة فصاحة العرب . وحب المطران العربية حمله على تعريب الانجيل مسجوعاً ، وهذا التعريب محفوظ حتى الآن بمكتبة حلب المارونية .

ولم يقف المطران عند حد التأليف في النحو بل تصدّى ، قبل كل رجال النهضة الحاضرة ، الى وضع معجم صغير، ولكنه صحيح ، سماه (الأِعراب عن لسان الأعراب) .

الترجمة : ان دور النصارى في الادب العربي كان ينحصر في الترجمة ، قبل ان استقام لسانهم العربي . ففي النهضة العباسية كانوا تراجمة الخلفاء ، فنقلوا لهم كتب القوم ، وها ان التاريخ يعيد نفسه في فجر هذه النهضة . فها هو هذا المطران يؤلف في حلب (مجمعاً علمياً) يعنى اعضاؤه بالترجمة ، ومن هنا جاء التجديد . فهم لم يتفوقوا بالكلام العربي الذي لا غبار عليه،بل بما ترجموه من كتب وغيرها . كانت هذه الترجمة أولاً دينية ، ولما صدرت كتب الشدياق و (جوائبه) اصبحت ادبية وسياسية .ثم اضحت في (جنان) و(دائرة معارف) المعلم بطرس البستاني تاريخية وقصصية وعلمية ، ولما انشأ صروف المقتطف صارت علمية صرفاً فكانت مجلته، ولا تزال ، سجلاً للاكتشافات الحديثة والمذاهب العلمية ، وهكذا مشت الترجمة في مدارج زمن النهضة الادبية ، حتى بلغت اليوم ما بلغت مع ادباء وقتنا الحاضر .

ان سير الامور قلما يختلف،فلو لم تترجم فلسفة اليونان الى العربية لم يكن للعرب فلاسفة كالفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، الذين استعان علماء المغرب بكتبهم على تفسير كتب ارسطو وتفهم معانيها[2] .

ان هذا الاسقف كان المترجم والمصحح لما يترجم . شغفته اللغة العربية وكل ما يتصل بها ، فخاطر بنفسه وأمّ الاندلس ، راكباً البحر ، يوم كان المركب

---

(١) كتاب بحث المطالب الذي طبع مرات . علق عليه اولا المعلم بطرس البستاني ثم الشيخ سعيد الشرتوني ، فالمعلم عبدالله البستاني ، فالخوري نعمة الله باخوس .

(٢) شيخو : الاداب العربية في القرن ١٩ جزء ١ ص ٧ .

لايزال لبنانياً ؛ ليمتع نظره بآثار العرب الخالدة فيها ؛ ويقرأ في مكتباتها ما لا تقع عينه عليه في الاقطار العربية .

كتبه : له ، عظم الله اجره ، مئة واربعة كتب ، بين مؤلف ومعرب ومصحح ومختصر . بعضها ادبي ولغوي وشعري ؛ واكثرها ديني على هوى ذلك الزمان . فهو واضع اول حجر في صرح النهضة في لبنان .

نعم قد سبقه مترجمون آخرون في القرون الوسطى ، ولكن تعبيرهم كان ركيكا جداً ، وهذا ما حمل احمد فارس الشدياق ، حين آلت اليه زعامة النهضة ، على التهكم بلغة رجال الدين ، والتنادر عليهم في فارياقه . ولم يحترم منهم احداً غير هذا الحبر فقط .

الشاعر : كان هـذا العلامة يعرف اربع لغات على حقها : العربية والسريانية والطليانية واللاتينية ، فهو في تفكيره متأثر بما عرف ، وقد استغل هـذا في شعره حين قال :

احاول في عمري من الدهر راحة وهل تطلبن العقل والظرف من زنجي
فاصبح دهري عاجزاً عن سعادتي كأني حرف الحلق والدهر إفرنجي

وتضلعه من العربية حمله على نظم (المثلثات الدرية) فقال قصيـدة طويلة من طراز مثلثات قطرب ... وهاك هذين البيتين منها :

طوباك يا رامي السُلام وقيت من رمي السِلام
احفظ يمينك والسَلام من حر نار الغضبِ
وجـدَّ يوم السبتِ وشدَّ نعـل السِبتِ
وكلْ حشيش السَبتِ تقشفاً للذهـب

اما أغراض شعره الاخرى ففي مدحه تعـالى ، والسيد المسيح ، وامه ، والرسل ، والرهبانية ، وغير ذلك ، فكأنه صوفي من طراز آخر حين يقول :

الله الله انت الفوز والوطرُ في العاشقين وانت الفوز والوطرْ
هويتكم والهوى مني على صغر يا حبذا واله قد زانـه الصغرْ
الذكر صورتكم ، والقلب مركزه والحب دائرة شعاعها الفِكر

كان وجهكَ مغناطيسُ انفسنا   فحيثما درت دارت نحوه الصور
خسرت في عشقكم دمعي واسعدني   يا ربح قوم بكم بالربح قد خسروا
أروم رؤيتكم ، والدمـــع يمنعني   اذا تزاحم عنـدي الدمع والنظر

اما في مريم ، حبيبة الموارنة التي لا تخلو قرية من قراهم من كنيسة على اسمها ، فيقول قصيدة غرّاء هذا مطلعها :

لو كان للافلاك نطقٌ أو فمُ   لترنمت بمديحـــك يَا مريمُ

ويقول في مكان آخر :

سموتِ يا بتولة في العذارى   على كل الأنام علىً وفقتِ
خلقتِ درّة لا عيب فيهـــا   كأنك مثلمـــا شئتِ خلقتِ

وعندما انتدب رئيسا عاما على الرهبان وصف اعباء الرئاسة في قصيدة قال منها :

أرى أحداً بل طورسيناويذبلاً   أدق وأخفى بل اخفُّ ثبيرها

ان أثر التقليد بادٍ في شعر الرائد الاول ، والا فما شأن ثبير ، بل ما شأن طورسينا وأحد في جنب الجبل القاعد في احشائه هـذا الشاعر ؟ والتقليد ايضاً هو الذي حمل المطران على شنّ غارات عديدة على الاولين ، ففي قصيدته (اللبنانية) وقد مرت ابيات متقطعة منها ، يقول في الله :

ان تهجروني اجدْ في وصلكم طمعا   كالشمس ترجى وجنح الليل معتكر

فهذا المعنى اخذه ابو تمام عن مخنث ، وهـا هو (سيدنا) ياخذه عن آخذه . ثم لا يتورع سيادته عن ان يقول مثل الصوفيين المتطرفين فيخاطب الله بلهجتهم :

كن فيَّ حيًّا ، واني فيك انت انا   كالشمس ليس لهـا في برجها كدر

امـــا توبيخ الرهبان ووعظهم وارشادهم فشائع في ديوانه الضخم ، وهولا يحرم اليهود من التقريع فيقول :

دع اليهود فـــلا ينفكّ مكرهمُ   يبدي لدينا دخان الكفر والكذبِ

ولا عجب في هذا فسبّ هؤلاء لا يزال قائما عند الموارنة على المذابح منذ خمسة عشر جيلا ، وخصوصاً في سبّة الآلام .

وللشاعر هذان البيتان الطريفان ، وقد حاول فيهما القول بالموجب :

قال الحبيب : رغبت ، قلت : عن السوى

وعشقت ، قلت : جمال وجهك في الورى

وسلوت ، قلت : رغيد عيشي والهنا   وهجرت ، قلت : لذيذ غمضي والكرى

وله الى جانبهما بيتان رائعان يصور فيهما حرب (التجربة) :

إني بليت باربع لم يخلقوا   الا لشدة بلوتي وعنائي

ابليس ، والدنيا ، ونفسي ، والهوى   كيف الخلاص وكلهم اعدائي ! !

اما ما لي على ديوانه من مآخذ فكثير . فالمطران يسكّن ويحرّك ويخفّف ويشدد ، ويقصر ويمدُّ ، على هواه ، ويشبع ويختلس ولا يبالي . ولكن شارح ديوانه ، معلمنا الشيخ سعيد الشرتوني ، مستعد دائما لتبرئة ذمة الشاعر كما فعل عند بيته هذا :

ان كنت تجهل مربعي فاعشو الى   نار تشبّ بزفرة الصُّعَداء

قال شيخي رحمه الله : وأثبت الواو في «اعشو» للوزن على حد قول الشاعر :

وتضحك مني شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا

اما الاخطاء اللغوية والجوازات فكثيرة لا تعد ، وما اعجابنا به — في شعره فقط — الا كإعجابنا بالاطفال الحديثي العهد بالنطق . اما ميله القويّ الى التسكين فأظن انه جاءه من السريانية . واذا ما غفرنا له كل هذه الهفوات فما هذا بكثير منا فهو اول شاعر من ملة قيلت لاجلها هذه الكلمة : أبت العربية ان تتنصر . ولكن شاعرنا الأول نصّرها ، وجعلها سيدة في الكنيسة . أجلسها عن يمين مذبح البخور فحلت محل السريانية التي أجهز عليها سيادته ، كما قلت في (صقر لبنان) .

الخوري نيقولاوس الصائغ

عندما كنا طلاباً في المدارس ، وكلها اكليريكية ، او يرأسها اكليريكي ، كنا نقول : ديوان المطران ، وديوان الخوري . اما الخوري فهو نيقولاوس الصائغ تلميذ المطران جرمانوس ، ومن قافلة رواد النهضة الاولى . فذاك المطران وهذا الخوري ، هما شنفرى نهضتنا ومهلهلها . ولا بأس علينا اذا عرّفنا القاريء بالرواد

الذين قادهم فرحات وهم : الفيلسوف التولاوي ، وميخائيل حكيم ، وعبدالله زاخر ، ابو الحرف المطبعي العربي ، وعبدالله قرألي ، ونعمة بن الخوري توما ، ومكرديج الكسيح ، واصغرهم وآخرهم ، في مقياس الزمن ، الخوري نيقولاوس الصائغ . وكل هؤلاء كهنة وشمامسة واساقفة وبطاركة ، وهذا ما دفع استاذي خيرالله خير الله الى الاشادة بفضل الاكليروس الادبي ، في كتابه « سوريا » .

ليس للخوري نيقولاوس الصائغ ما لفرحات من آثار ، فاشهر ما ترك ديوانه . اصلح الشيخ ابراهيم اليازجي كثيراً من عيوبه ، حين وقف عليه ، ومع ذلك لا يزال لنا فيه مرتع خصب ، ولكننا لا نعنى بهذا ، فما قيل في (ديوان المطران) يصح ان يقال في (ديوان الخوري) وحسب التلميذ ان يكون مثل معلمه الذي قال في رثائه :

إمامي وذخري، بل غنائي ومغنمي غنمت به غنماً تجل غنائمه
وان يكفر الاحسان من ليس شاكرا فاشبه بالكفران من هو كاتمه
حلبت به وسعَ الاناء معارفاً يلازمني جنحَ الدجى وألازمه

تغلب في ديوان الخوري قصائد المديح والرثاء والتهاني والتواريخ ، فهو اكثر تقليداً في أغراضه من معلمه المطران . نظم بديعية على طراز بديعية الحموي ومن وزنها وقافيتها ، اما الموضوع فمتقارب . بديعية الحموي في مدح النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وبديعية الخوري في مدح السيد المسيح ، له المجد ، وحوارييه سلام الله على اسمهم . ولعله نحا في بديعيته نحو استاذه حين ألف بحث المطالب . هذاك جعل الكثير من امثلة كتابه آيات انجيلية مضارعاً في ذلك ألفية ابن مالك ، وشارحها ابن عقيل . وهذا عارض الحموي جاعلا موضوعه مدح سيده ورسله .

اما ما اعجبني من مواضيع المطران والخوري فهو وضعهم النقاط على الحروف ، وتأنيبهم وتوبيخهم الاكليريكيين ، علمانيين وقانونيين ، وهاك شيئاً من قصيدة هي أولى قصائد ديوان الخوري قالها في بعض هؤلاء :

كثر العثار بعثرة الرؤساء وغوى الصغار بغرة الكبراء
لما رأيت الرأس وهو مهشم أيقنت منه تهشم الأعضاء

واذا الطبيب تضاعفت أسقامه   أنّى ينال أولو الضنا بشفاء

اما الروح الدينية فشائعـــة في ديوانه كما تشيع في ديوان فرحات ، ولا بدع فكلاهما راهب يترّجى ان يكون له مكان يسند اليه رأسه في ملكوت الله ، ولهذا نراه يعمل بقول القديس بولس : عـظْ ووبّخ بكل سلطان ولا يستهنْ بك أحد.

والخوري في آخر ديوانه رسالة تأنق فيها . كتبها نثراً وشعراً مجيباً بها الشماس مكرديج الكسيح احد افراد هذه القافلة ، ونحا في اسلوبها نحو المتصنعين فملأهـــا تشابيه واستعارات وكنايات وافكاراً تدل على معارف ذاك الزمان وثقافته . فمن امثلة الصنعة فيها قوله : « وصار عقلي تابعاً لمعناها (كالاربع التوابع) ،والعقل غدا (مرتفعاً) نحو (عـامل معنويّ) حسنها (رفع المبتدأ) ، وليس عجبا ان يرفع التجرد والابتداء . » ثم يقول : « ومع ذلك فالفكر أبدتـــه (بالاشتغال) ، والجسم اذبته بالاشتعال » . ولعل الخوري نهج في هذا نهـــج معلمه المطران الذي قال قبله :

خذ حبهم (يا ضمير الرفع) ملتزمـــاً   (فصلاً ووصلاً) فلا تخلو ولو هجروا

كأنني (الفعل) والمحبوب (فاعـــله)   سيّان (متّصل) فيهِ (ومستتر)

وفي آخر هذا الديوان احجيات كثيرة ، انقل لك واحدة منها . قال محاجياً في لفظة (رحبعام) :

يا راقـــداً في علمه   نبّـهْ سناك من السنهْ

مـاذا اسم مَلكٍ مثله   (سعة)تضاف الى(سنه)

فسعة بمعنى رحب ، وسنة بمعنى عام ، فتفهم ان كنت لبيباً ، وكفى الله الناس مؤونة الكلام ...

والخوري أشدُّ ميلًا الى صناعة البديـع من معلمه الذي كان يقول الشعر عفو الطبع . وها هو قرن (التاريخ) الشعري يذر في ديوان الخوري،فنقرأ فيه تواريخ للموت والولادة ، والكنائس والدور ، والخانات والسبل (الينابيـع) ثم يتعاظم شان (التاريـخ) في القرن التاسع عشر حتى يمسي معجزاً ومضحكاً في وقت معاً ، كما سترى . إنا نسأل لهذين الرائدين الجزاء بالمد، فقد غفرت لها ، كالمجدلية،خطاياهما

الكثيرة ، لانها احبا لغة الضاد كثيراً .

النابلسي والحر والنحلاوي

قلنا انه كان في لبنان والاقطار العربية شعراء، قبل فرحات وفي عهده، فاقطاعيو لبنان ، وقد كانوا عرباً خلّصاً ، قالوا الشعر ، كما قاله الخاضعون لسلطتهم مديحاً فيهم ، ولكنه كان من طراز شعر القافلة الأولى ، وبعضه ضعيف التركيب جداً .

اما أصح معاصري فرحات كلاماً فكان القطب الصوفي الشيخ عبد الغني النابلسي ، وهاك شيئاً من شعره الصوفي المتطرف الذي قاله في ذاته :

وعلمي ليس يدركه سوى من لم يزل مثلي
وعلم الجفر من علمي وموسى رشحة البلّ
واني هدهد الأخبار للقوم الاولى قبلي
واني لست مخلوقاً ولا شربي ولا اكلي
ولا اني انا الخلاق ذو صنعٍ وذو فعلِ
ولا من ابناءِ الله اني ، او من الرسْلِ
واني ما أنا عيسى ولا المهدي الى السْبلِ
انا بي حارت الأفهام ما يدرون من أصلي
انا الشامي ، انا الهندي ، انا الرومي ، انا الصقلي
انا المعروف في الدنيا وفي الأخرى بذي الفضلِ
واني لست إنساناً ولا من ذلك النسل
وما عبد الغني اسمي وهذا مقتضى شكلي
فيامن رام في الدنيا يراني طالباً وصلي
تجرد وانتزح واخرج عن الأكوان بالعقل
وكن خمراً بلا كأسٍ وكن شمساً بلا ظلّ
وسدّ البابَ عن غيري وعالجْ وافتتحْ قفلي

فردّ عليه معاصره الشيخ ابراهيم الحرّ الصوريّ فقال :

رويداً يا اخا الفضلِ مزجتَ الشهد بالخل
اذعتَ السرّ يا هذا شريت الجور بالعدلِ
فتحتَ القفلَ يا شامي فقدت العلم بالجهــل
ابا عبد الغني مهــلاً فليس القول كالفعل
لقد اكثرتَ من هذرٍ يضاهي صبوة الطفلِ
فما المشكاة يا رومي ! وما المصباح يا صقلي !
وما الزيتون ياهندي ! فقل يا فاتح القفــل
الا يا هدهدَ الأخبار خبّر بالورى واجلِ
فكم من هدهدٍ اضحى كفرخ اليوم يا خلّي

وكان للشيخ عبد الغني النابلسي تلاميـذ اشهرهم السيد عبد الرحمن النحلاوي ، وقد ردّدَ في مدحه ما قيل فيه :

لله درّ همام جهبذ وطئت اقدامه شرفا هامالسموات

وسيأتي ذكر هـذا التلميذ الطاهر وشعره في مولاه عبد الغني ، صاحب المقـام الاقدس السني ، حين نتكلم عن (التأريخ الشعري) وهو احدى الظواهر الفنيـة في جو هذه النهضة . كان التأريخ الشعري نجمة سديمية قبـل الروّاد فصيروه نجمة قطب تأتمّ به سفينتهم الادبية .

وكما عني المطران فرحات المتصوف المسيحي بتحليل اسرار البيعـــة شعرا ، ونثرا ، انصرف الشيخ النابلسي ، قدس الله سره ، الى تحليل رموز الصوفية ، شعرا ونثرا . والكثرة ما لعبد الغني من تآليف وتصانيف شعرية ونثرية قـــد سمّاه المطران يوسف الدبس في تاريخه جهبذ الجهابذة واستاذ الاساتذة .

ويضارع هذا الشيخ المطران في الرحلات . رحل المطران الى رومة وزار الاندلس ، وارتحل الشيخ الى دار الخلافـة ، وزار القدس ومصر والحجاز ولبنان وكتب كتابا في كل رحلة .

احمد البربير

●

القرن الثامن عشر في الآداب المشرقية هو (قرن السماعنة) الذين حفظوا آثار العرب القلمية. فهم الذين اذاعوا الآداب المشرقية في اوروبا ، وصانوا كنوز الفلسفة في مكتبة الفاتيكان وغيرها . اما في الشرق فكان ادب هذا العصر ادب رسائل ديوانية ، كما ابتدأ الأدب العربي في جميع عصوره . كان كتاب الدواوين هؤلاء يقولون الشعر متملقين به اسيادهم كالجزار وسواه . فمن هؤلاء الكتّاب الاولين ابناء الصبّاغ ، وابناء البحري ، والياس اده .

وقام الى جانب هؤلاء متمشرقون كثيرون عنوا بالآداب العربية وغيرها من المشرقيات ، حتى انشأوا جمعيات سموها الأسيوية ، فافضلوا على لغة الضاد باذاعة الكثير من كتبنا مصححة .

ثم طلع في صباح القرن التاسع عشر الشهاب الثاقب محمد علي الكبير فمشت النهضة قدماً بخطى ثابتة وسريعة . انشأ مطبعة بولاق ، ومدرستها ، وجريدة الوقائع . وظل الانشاء في ذلك العهد ثرثرة عامية ممزوجة بالتركية تضحك من يقرأها ، حتى جاء شيخنا الشدياق فصحح لغة (الوقائع) وهذب عبارتها العربية . اما من يعنينا ان نقف عندهم هنيهة فشاعران : احمد عبد اللطيف البربير ، وابن الافرنجية .

ولد الشيخ البربير سنة ١٧٤٧ ومات سنة ١٨١١ ولهذا الأديب مقامات طريفة ، وبديعية نحا فيها كغيره نحو الحموي ، وله ايضاً كتاب (الشرح الجلي على بيتي الموصلي) وهو شرح استوعب كثيراً من فنون الآداب والعلوم ، وتناول تحليل الكثير من

الرموز والاحوال الصوفية .

والبربير هذا شاعر بليغ اذا قسناه بشعراء عصره والذين سبقوه . وقد قال فيه مخائيل البحري ، احد رواد هذه القافلة ، من قصيدة طويلة نشرتها مجلة المشرق :

احمـــد البربير من أنشا الأدب وعلومـــاً بـــين عجم وعرب
وحوى فخراً سمـا أسمى الرتب قـدره ، ثم السماكـــين ارتقى

فردّ البربير له التحية بأحسن منها ، قائلاً :

كم بيان من معانيه بـــديـــع قد رفعناه عـــلى نظم البديـــع
في مبان مثــل ازهـار الربيع نـــاظراً تسبيك او منتشقا
فطنٌ من بعده (العاصي) بكى وبـــاصوات النواعـــير شكا
ودجت حمـــص وكانت فلـكا لمحيـــاه فعـــادت غسقـــا

لم يبتديء تقارض الشعراء المدح والثناء بالبحري والبربير ، بل ولد مع شعراء القافلة الاولى ، وبلغ اقصى مداه مع الذين اتوا بعد هؤلاء حتى صار شغل الشعراء الشاغل . ولم ينطفيء نور هذا الغرض من الشعر الا في هذا الوقت ، ولكنه امسى يقال في حفلات التكريم — وما اكثرها عندنا — بدلاً من الرسائل .

اما شعر البربير فلم نقف الا على نتف منه في مجلة المشرق ، ولكنها تدل على مخيلة شاعر أصيل . قال رحمه الله يصف العنب الشامي :

دمشقُ حازت عنباً يُضرب فيـه المثلُ
كأنَّـــهُ لآلـــيءٌ يُصانُ فيهـا العسل

وقال في الشيب :

نذير شيب منـذر بالذهاب فجدّد التوبـة قبـل الحساب
واحذر سطى جارح باز هوى من هوله طار غراب الشباب

وقال في الليل :

ليلة كالغراب قُصّ جناحا ليس يرجو الكئيب فيه صباحا
خافهـا أعزل السماكين حتى صار ذا رعدة والقى السلاحا

وقال في الدينار ، وهو من باب حسن التعليل :

لما رأى الدينار ان مقرّه في ملكه مقدار طرفة عين
لاحت على خديه صفرة وجهه جزعاً واصبح وهو ذو وجهين

وقال، وهو من التلاعب باسماء ابواب النحو، كما فعل المطران والخوري قبله، فأجاد اكثر منهما:

وعجبت من راياته الحمر التي شربتْ مراراً من دم الأعداء
(رُفِعَتْ) (فجرّتْ) بجر جيش خلفها وتولّعتْ (بالنصبِ للاغراءِ)

وقال ناصحاً حاضاً على الكرم:

ان رمت نيل المعالي فأكرم الاخيارا
فليس يكبر الا من صغّر الدينارا

وقال متزهداً:

تباً لصورة دنيا شبيهة بالخمره
من ذاق منها رآها مع اللذاذة مره
اياك والسكر منها وحسبك الموت سكره

وقال هاجياً:

كم سبكنا الذهبان فيه مديحا فاستحالت كمطرق الحدّادِ
والذي يغرس الثنا في سباخٍ فكثير عليه شوك القتاد

وقال يصف مجلس انس:

نحن والله في نعيم مقيمٍ بين سجع وبين صوت رخيمِ
لم نجد عندنا اليكَ رسولاً غير ما هبّ من لطيف النسيم
قد قضى غمّنا فناح عليه كل صوتٍ من الحمام نظيم

اننا نرى ديباجة البربير متماسكة وعبارته لم تشنها تلك الركاكة، وشعره يدل على شاعر يعمل فكرته ورويّته ليقول ما لم يُقل. فالبربير خير أبناء جيله شعراً صحيح التركيب، فلا أثر للرطانة التي رأيناها في شعر من سبقوه. ولا بدع في هذا فهو بلا شك من حملة القرآن الكريم.

ابن افرنجية

شاعر متاثر بالقافلة الاولى . نقـّب عنه الأب شيخو فأحيا ذكره ، وقد ذكر لنا في (مشرقه) ان لهذا الشاعر كتاباً خطياً في لندره عنوانه : (المجموع المنتظم من فرائد الكلم) . في هذا الكتاب كثير من النوادر والنكت وبعض قصائد وأبيات من نظمه ، ونظم والده وبعض شعراء عصره . قال ، على عادة ذلك الزمان ، بيتين في وصف مجموعته هذه :

مجموعنا هـذا له رونـقٌ كرونق اللؤلؤ في عقـدهِ
كادت مجاميع الورى دونه تنسى لديه من سنا مجـدهِ

أما الخطأ فقد كفانا الشاعر مؤونة الاشارة اليه حين قال في كتابه هذا :

كتبتـه مجتهـداً وليس يخلو من غلط
فقـل لمن يلومـني من ذا الذي ما ساء قط

وقد بدأ هؤلاء الرواد يصنعون المعجزات الأدبية في شعرهم ، وها ان ابن الافرنجية ينظم دائرتين في المديح . أما أقواله الطريفة فمنها أبيات قالها بلسان قهوة الخمرة تهجو قهوة البن :

سمعت لسان الحال في قهوة الطلا تقول هلموا واسمعوا نصّ اخباري
فباسمي تسمّت قهوة البنّ في الملا ولكنها لم تحكِ بالفضل أخماري
فمن كذبها قد سوّد الله وجهها وعذّبها بعد الاهانة بالنـار

ومن (معجزاته) الشعرية أيضاً هذان البيتان اللذان يقرآن طرداً فيكونان مدحا ، واذا قرئا عكساً استحالا هجاءً . قال :

عدلوا فما ظلمتْ بهم دولٌ سعدوا فما زلّتْ بهم قدمُ
بذلوا فما شحّت لهم شيمٌ رشدوا فلا زالت لهم نعمُ

ما عكسها فهذا هو :

قـدم بهم زلت فما سعدوا دول بهم ظلمت فما عدلوا
نعم لهم زالت فلا رشدوا شيم لهم شحّت فما بذلوا

واذا قالوا في ابي تمام : انه كان في انتقاء شعر حماسته اشعر منه في ديوانه ، ليدلوا على سلامة ذوقه ، فمثل هذا القول يصح ، ايضا ، في مجموعة ابن افرنجية الحافلة بالطرائف وها نحن ننقل منها شيئا . قال شاعر في وصف ليل :

وليلٍ بتّهُ رهن اكتئاب   الاقي فيه انواع العذاب
اذا شرب البعوضُ دمي وغنى   فللبرغوث رقصٌ في ثيابي

وقال آخر :

ثلاث باءات بلينا بها   البقُّ والبرغوث والبرغش
ثلاثة أوحش ما في الورى   ولست ادري ايها اوحش

وقال غيره في صابغ لحيته :

قلْ للذي يطمع في صبغته   بردِّ ما قد فات من صبوته
هب انه أنكر ما لم يكن   يكفيه ان يكذب في لحيته

شُعَراءُ الأُمَرَاءِ

التأريخ الشعري

•

يصح ان نسمي القرن التاسع عشر قرن التأريخ شعراً ، فكما اخترع الحريري معجزاته البهلوانية في نظم قصائد رقطاء وغير رقطاء ، كذلك كان لرواد النهضة معجزة التأريخ في الشعر ، فما هو هذا التاريخ اذن ؟

انه مجموعة كلمات منظومة يأتي رصيد حروفها الابجدية دليلا على السنة التي يقصدها الناظم . وهكذا صار للحساب حساب في دفاتر شعرائنا .

أما الحروف (الابجدية) لا الألفباء ، فحسابها معروف . سمّاه القدماء حساب (الجُمَّل)، ولكن ابن دريد يقول : وما احسبه عربيا. اما الزمخشريّ فاعترف به في (اساس بلاغته) وقال : واجمل الحساب والكلام تعلم الجمَّل . فحروف كلمات (ابجد هوز حطي) يعبّر بها في عرفهم عن الآحاد، من الواحد حتى العشرة. ولفظتا (كلمن سعفص) تعبّر عن العقود ، من العشرين الى التسعين . وحروف (قرشت ثخذ ضظغ) تعبر عن المئات فالألف .

اخذ السريان هذا الحساب عن العبرانيين ، وهم لا يزالون عليه حتى اليوم. ولعله ابو الرقم الروماني الذي لا يزال يستعمله الفرنجة في بعض الاماكن. ولهذا أزعم أن نواة (التأريخ الشعري) سريانية ، لا كما زعم المير حيدر في تاريخه : ان السيد عبد الرحمن شاكر النحلاوي ، تلميذ الشيخ عبد الغني النابلسي ، هو الذي اخترع التاريخ على حساب الجمَّل (١) اما الذي يحملني على هذا الزعم فهو ان السريان لم

(١) تاريخ المير حيدر (مغبغب) ص ٧٦٥ .

يستعملوا قط في حسابهم غير الحروف ، ولا يزالون على هذا حتى اليوم . وقد لامهم المطران يوسف دريان مؤلف كتاب نحوهم وصرفهم لانهم لم يستعملوا الرقم العربي الذي عدّه يداً من ايادي العرب البيضاء على العلوم الرياضية . ونعى على قدمائنا تسميته بالرقم الهندي ، ونفى معرفته عن الهنود (١) .

واذا قيل: ولكن ابجدية السريان لا تفي بهذا الغرض، لان ارقامها لا تتجاوز الاربعمائة ، فالجواب على ذلك عند القسّ نعمة الله الكفري احد علماء النهضة في السريانية ، قال في غراماطيقه :

« لما كان السريان لا يستطيعون أن يعدّوا بهذه الحروف — الابجدية — إلا الاربعماية ، اوجد الاولون نوعا يعدّون به المئات ، والالوف والربوات ، فيضعون علامة المئة نقطة من فوق احرف العشرات — كلمن سعفص — واذا ارادوا ان يبينوا الآلاف يضعون خطا منحرفا من تحت احرف الآحاد . أما الربوات فيوضع لها خط مستقيم تحت الحرف »(٢) .

وهناك شيءٌ غير هذا سأذكره لك ، يجعلنا نشك بزعم المير حيدر في القصيدة التي قال انها ادهشت اهل عصر النحلاوي حتى قال بعضهم ان الجن لقنه اياها . والمشهور عند الجمهور ان روح الشيخ عبد الغني حات عليه فاستفاد بها ذلك (٣) .

ورحت ابحث هنا وهناك في الكتب السريانيّة على غير جدوى ، واخيراً استعنتُ ببطريركية السريان فافادتني أنّ ابن العبري استعمل شكلاً من التأريخ الشعري فذكر السنة بحروف الجمل في سياق الشعر ، وتفضلت علي بنص البيتين . ثم رأيت ابن الشبيب من شعراء القرن السادس للهجرة ينحو نحو ابن العبري،تقريباً، فيقول في الخليفة المستنجد بالله ، وهو الثاني والثلاثون من العباسيين ، دالاً على ذلك بلفظة (لبّ) فاستقامت له تورية لطيفة :

اصبحتَ (لبَّ) بني العباس كلهم ان عُدّدت بحروف الجمّل الخُلَفا

---

(١) راجع حاشيته في كتاب الاتقان ص ١٤٣ وعنوانها : في اصل وضع الارقام العربية المعروفة .

(٢) مورد التحقيق في اصول الغراماطيق،طبعة دير قزحيا سنة ١٨٧٣ ص ٢٠٢ و ٢٠٣

(٣) تاريخ المير حيدر ص ٧٦٠ ، طبعة مغبغب .

وعلى هذا المنوال نسج شاعر آخر فقال في كهل مزواج :

من كان (آدمُ) جُمّلًا في سنّهِ هجرته (حوّاءُ) السنينَ من الدمى

اي ان ابن (٤٥) سنة ، وهي جمّل آدم ، تهجره ابنة خمسة عشر ، وهي جمّل حواء .

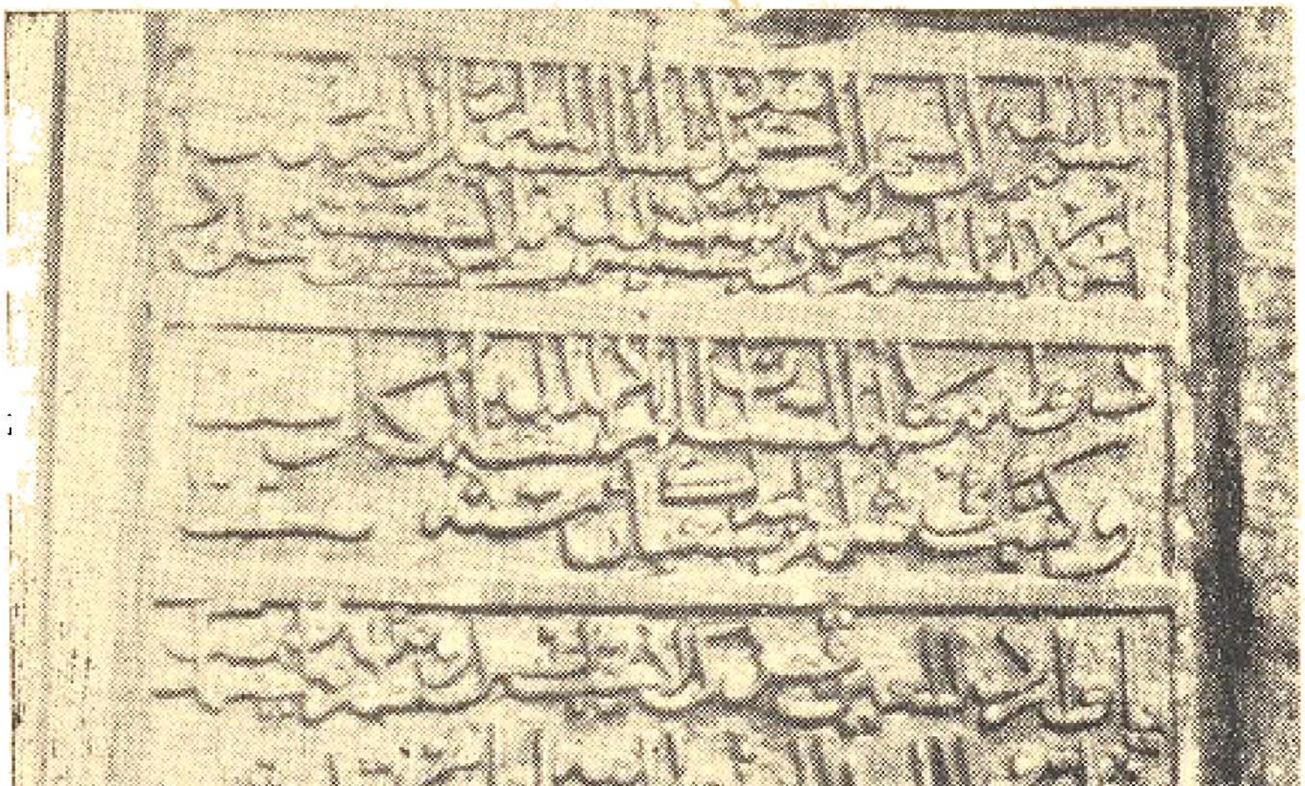
وقرأت لصلاح الدين الصفدي ، وهو من شعراء القرن الثامن الهجري بيتين في وصف قلم ممدوحه بدر الدين نفّاع المّ فيهما بشيء من حساب الجمل فقال :

لصفات بـدر الدين فضل شائـع تصبو لـه الافـكار والاسمـاع
انظر الى (القلم) الذي يحوي فقـد صحّ الحساب بـأنـه (نفّاع) ١

أي ان كلمتي القلم ونفّاع تتفقان في حساب الجمل فتكون كلّ منهما ٢٠١

ثم رحتُ استقصي تاريخ حساب الجمـل ، فاهتديت الى بلاطة عمرهـا ٣٨٦ سنة – العمر كله – لا تزال حتى الساعة في عاليه ، فوق عين ، تعرف بعين الضيعة ،وهي تقع جنوبي الجامعة الوطنية على مسافة مئتي متر ، كتبت عليها هذه الكلمات :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا السبيل المبارك العبد الفقير صالح ابن محمـد الحلبي الشهير نسبته ثبت الله حسنته وجزاه جزاء الآخرة وبخلود دولةمولانا السلطان



(١) اتحفني بهذا صديقي الاديب البحاثة الاستاذ نور الدين بيهم امين المكتبة الوطنية .

مراد حفظه الله كل حفظ . وكتب في شهر شعبان المبارك سنة (هفظ) ، أي سنة ٩٨٥ بحساب الجمّل .

ويأتي بعد ذلك ما يحسبه الناظم شعراً :

يا وارداً للعين قصدك لا يخيب اشرب وطهّر جسمك من ماء صبيب
اشرب وقول الحمد للمولى على انعامه هنيئاً يا من قد شرب

حتى هنا لم نصل الى التاريخ الشعري بالصورة المعروفة اليوم ، أي بوضع كلمة (تاريخ) وما يشتق منها من لفظ ، قبل الالفاظ التي تنظم لتجمع فتدل على العام الذي يقصده الشاعر ، ولعل اقدم هذا الطراز هو قول احدهم في وفاة الشيخ تاج الدين ابن بخشي المتوفى عام ٨٧٢ ﻫ :

انتقل الشيخ وتاريخه قدّسكَ الله بسرّ رفيع

ثم يليه قول ابن المبلط مؤرخاً جلوس السلطان سليم العثماني :

تولى مليك العصر ، وابن مليكه بعزّ وتأييد ونصر وسلطان
ودولة ملك قلت فيها مؤرخاً سليم تولى الملك بعد سليمان

وقال شاعر ، وهو لا شك امام عالم ، يؤرّخ ظهور التبغ في البلاد ، وما احسب هذا الشاعر الا حديث العهد ، وان كان الزمن الذي يؤرخه يرجع الى سنة ٩٩٩ ﻫ ، وهذا هو تاريخه كما ورد في كتاب علم النبات للدكتور بوست الاميركي:

سألوني عن (الدُخَان) وقالوا هل لهُ في كتابنا إيماء
قلتُ ما فرّط الكتابُ بشيءٍ ثم أرّختُ يومَ تأتي السماء

فهذا التاريخ مجتمعة فيه جميع شروط التاريخ الشعري الفنية ، فهو يشير الى الآية الكريمة : « يوم تأتي السماءبدخان .»فالتاريخ متى كان رصف الفاظ يجيء بشعا ، ومن اصوله ان يحتوي إما على نكتة طريفة ، كتورية جميلة ، او على آية كريمة ، او كلمة مأثورة توافق المقام ، كما فعل شاعر حين أرخ موت شاب قُتل خطا ، فاخذ شطر الفارض القائل : انا القتيل بلا إثمٍ ولا حرج ، وعمل منه تاريخه .

ثم يجيء بعد هذا تاريخ آخر لمقتل السلطان عثمان ابن احمد سنة ١٠٣١ ﻫ .

مات سلطان البرايا فهو في الأخرى سعيدْ

قال لي الهاتف أرّخْ إنَّ عثمانَ شهيـــدْ

فالتورية هنا هي في قوله : ان عثمان شهيد ، حيث يشير الى ابن عفّان .

وأذكر تاريخاً قيل قبل هذا ، جاء فيه :

بني سلطاننا برقوق جسراً ومن تغدو الأنام له مطيعه
مجـازٌ بالحقيقـــة ارّخوهُ وأمرٌ بالسلوك على (الشريعه)

أي نهر الاردن الذي يسمى نهر الشريعـة . وقال الشيخ عبد الرحمان التاجي مؤرخاً بناء قصر الامير عمر الحرفوش سنة ١٠٧٧ ه :

أبديتَ فيهِ للعيون بدائعـــاً في الحسن تصدر عن علاك وتوردُ
ولذاك ثغر السعد قالَ مؤرخـاً قصر زهيّ للامـــير مشيّد

ويحبو التاريخ الشعريّ نحو التطور فنرى الشيخ احمد ابن ناصر الدين الحنفي يؤرخ فتح الموره على يد علي باشا المعروف بابن الحكيم في بيتين كل منهما برمتـه تاريخ لذاك الفتح الذي كان عام ١١٢٧ :

قـــد صاغ بيتين في كل يؤرّخهُ من بعد هذا كعقدٍ زان ذا عطَلِ
في كلّ حربٍ دهى الاسلام من نوب قـد أيـــد الله فيها احمداً بعـــلي
لا زال بين الورى إعـــلاء عدلها ما دام عزهمـــا في السهل والجبل

والان يأتي دور الشيخ عبـــد الغني النابلسي الذي استعمل التواريخ في البديعيات [١] وعنه أخذ تلميذه النحلاوي صاحب الاعجوبة التي ادهشت الناس .

وبعد هؤلاء أرّخ الخوري نيقولاوس الصائغ شعراً ، ثم كان احمد البربير اول المتفننين في التاريخ فجعل الحروف المهملة في البيت كلـــه تاريخاً ، وكذلك الحروف المعجمة .

أما أول من أرخ في السريانية على الطريقة الحديثة فهو المطران يوسف اسطفان الغسطاوي المتوفى عام ١٨٢٢ نظم قصيدة سريانية بليغة في رثاء عمه البطرك يوسف اسطفان ، افتتحها واختتمها ببيت فيه تاريخ وفاته عـــام ١٧٩٣ ، وهو منشور في كتاب بصائر الزمان للاب بولس عبود .

---

(١) دائرة المعارف للبستاني ص ٢٤١٩ .

والآن فلنعد الى ذاك الذي أمـــلاه الجنّ على النحلاوي ، كما روى لنا المير حيدر في تاريخه ، كما مرّ ، فهما بيتان تضمّن كل بيت منهما اربعة تواريخ ، وهذان همـــا :

أهديك مدحا بليغاً . يا سني غدا بحر الفتوحات . باهي الفضل والمنن

١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦

ألفاظه كنجوم ، فهي تشرق ما بدا سنا بدرها . أرّخهُ عبد غني

١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦

ثم بنى على حروفهما قصيدة يتضمن كل شطر منها تاريخـــاً . فأدهش الناس كما قال المير .

ثم كان ناصيف اليازجي ، بعد النحلاوي ، أول من حاول محاولة (تاريخية) أخرى جديدة ، فنظم تلبية لاقتراح مولاه الأمير بشير الشهابي تاريخاً لفتح عكاء في بيتين ضمنهما ثمانية وعشرين تاريخاً . وذلك يحصل من كل شطر منهما متى جمع . ثم من مهمل كل بيت منهما ومن معجمه . ومن مهمـل كل شطر مع معجم كل شطر فيهما . وبالعكس صدراً لصدر ، وعجزاً لعجز . وبالخلاف سوى التاريـخ الناطق لفظاً . أما البيتان فهذان هما :

في فتح عكا برد نار معاطبٍ دار الخليل ، وللديار به البكا
رأس الثمان وأربعين بطيـه مئتان مع ألف ، فبارك ربكا

١٢٤٨

ولما قرأ ابراهيم باشا البيتين أرسل يطلب قصيدة على نسق قصيدة النحـلاوي ، فنظم ناصيف القصيدة وجعل كل شطر منها تاريخاً ،وصدّرها ببيتين ضمّن كل شطر منهما تاريخين ، ووزع – مثل النحلاوي – حروف البيت الأول على أوائل بيوت الغزل من القصيدة ، وحروف البيت الثاني على أبيات المديح منها ، أمـــا البيتان فهذان هما :

أنت الخليل وفي : الأطلال برد لظى أطلال عكا ورفض . الرعب والحذر

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

كن بالغا أوج سعدٍ . ما به ضرر أو غالباً لم يزل في . أول الظفر [1]

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

ثم نظم ناصيف لجلوس السلطان عبد العزيز بيتين كبيتي فتح عكا ، ضمنهما ثمانية وعشرين تاريخاً . ونظم قصيدة أخرى في مدح هـذا السلطان على نسق القصيدة النحلاوية .

ولليازجي تواريخ مفردة عديدة جداً ، جمعت في آخر النبذة الثالثة من ديوانه المسماة (ثالث القمرين) .

وحذا اليازجي الابن حذو والده فنظم تواريخ جمـة ، ولكنها ذات طلقٍ واحد ، وليست ذات طلقات من نوع التومغـان ، ولا من نوع المترليوزات كما سترى . . .

وظل اليازجي بعد النحلاوي سيد الموقف حتى نظم استاذنا المعلم عبدالله البستاني عند غياب شمس القرن التاسع عشر ، قصيدة في مـدح المطران الياس الحويك عند انتخابه بطريركاً .

عنوان هذه القصيدة (فتاة الأناة) . وقد اتم السجعة جامع كتاب (لهجة الحق) فقال : وهي آية في المعجزات ثم راح يعرفنا عليها بقوله : وهي قصيدة (تاريخية) تتضمن ٦٢١٦ تاريخـاً ، وذلك ان كل مصراع من مصاريعها يتضمن تاريخـاً للسنة ١٨٩٩ . ثم ان مهمل كل مصراع اذا ضم اليه معجم أي مصراع اردته ، كان تاريخاً للسنة الموما اليها . ومعجم كل مصراع اذا ضم اليه مهمل أي مصراع اردتـه كان تاريخاً ايضاً للسنة نفسها ، فتكون التواريخ بمقتضى ذلك ٦٢١٦ تاريخاً [2]

اني انقل لك ، ايها القاريء العزيز ، بعض ابيات منها لتجرب وتتسلى . افترضها سؤالاً من تلك المسائل التي تطلب بعض الصحف حلها ، وامتحنها في ساعة فراغك ، فالعلم بالشيء خير من الجهل به . قال الشيخ عبدالله :

يا بطريركَ الشرق رقّتكَ النهى رتباً وَقَفتَ لها السرور مع اللها

مرحتْ بكَ الاقمـار مسفرة ولم تؤثرْ سواكَ فسرَّ او سِرْ بالسها

---

(١) النبذة الاولى من ديوان اليازجي ص ٢١ـ٢٢ المطبعة الشرقية ، الحدث .

(٢) لهجة الحق ص ٧٩ وهذا الكتاب مجموعة ضخمة لقصائد الشعراء الذين امتدحوا البطرك وهنأوه .

ومنها :

وسهرت للفقراء تعكل كربهم ... توفوا وأمرك قد أبار الترّها

وافخر ومر ، وابشر وسد ، واسلم ودم ، ترع المكارم فاحرسنْ متنبّها

اما هذه القصيدة ، وهي معجزة حقاً ، فهي ثمانية وعشرون بيتاً ، فاعمل حسابك... ثم احمد الله على اننا لسنا في عصر المير حيدر لننسبهاالابليس وجنوده...

وهكذا (كسر) المعلم عبدالله البستاني (ركورد) اليازجي والنحلاوي ، واستولى على الأمد ولا يزال .

تذكرني هذه (الايات) بذاك الامير الذي وقف بحضرته بهلواني وفي يده مئة ابرة ، فجعل يرميها من فمه جاعلاً رأس كل ابرة بخرم الاخرى ، ثم لم يخطيء ابداً . فاجازه الامير بمئة (كرباج) لانه اضاع مهارته فيما لا فائدة فيه ، واعطاه مئة دينار جزاء تعبه ونصبه .

عفوك استاذنا ، تحت التراب . لقد كنت نافعاً ، بل كنت الجسر الذي عبر عليه رجال النهضة من ضفة الركاكة والرطانة الى ضفة الفصحى وواحتها .

ولعل قارئي العزيز يقول في قلبه : ما دام هذا لا ينفع فما لك تحدثنا عنه ؟!

ـ ان الامانة الادبية تقضي بهذا . لقد تعب الجماعة فلنذكرهم بما عملوا . وقد تكلمت عن هذا قبل التحدث عن شعراء الامير ، لانهم ومن جاؤوا بعدهم ـ حتى الشدياق وهو عدو التقليد ـ قد نظموا جميعاً تواريخ . ولا يزال في عهدنا من ينظم منها حتى الداعي .

اما التراسل بالشعر [١] او التراشق به ، فهو ايضاً من ابتداع هؤلاء الرواد . فكأنّ سوق الشعر قد بارت فامسى لا ينفق عند احد ، فاخذ شعراء هذا القرن يمدح بعضهم بعضاً فيما سموه رسائل ، فصح فيهم قول المثل : حكّ لي أحكّ لك .

ولا يزال ادباء اليوم على هذا ، فيتقارضون الثناء على كتبهم وغير ذلك ، وقد صدق من قال : حب الثناء طبيعة الانسان . فالطفل اذا ما امتدحته تبدو على وجهه غبطة دونها الغبطة التي تعروه ساعة أكلهِ قطعةَ حلوى يحبها .

ـ صحتين . كلوا حتى تشبعوا ... ولأمّ الناقد الهبَلُ ...

---

(١) وهذه ايضاً من الظواهر الجوية في القرن التاسع عشر .

نقولا الترك

كان الشاعر اللبناني الاول ، الاسقف جبرائيل بن القلاعي ، زجّالاً فنظم حوادث بلاده زجلا ، منذ خمسماية سنة . ثم استحال ذلك الزجل شعراً فصيحاً ، بمقدار ، لما تضلع اللبناني من لغته . وكما كان الزجّال الاول اسقفاً كذلك كان الشاعر الاول اسقفاً ايضاً .

كانت قيثارة المطران جرمانوس فرحات تملأ حنايا كهوف لبنان وتلافيف أوديته ترانيم وتهاليل روحية . يرتفع الضباب بخوراً قدسياً نحو الاعالي ، فترتفع معه روح الشاعر الزاهد ، ويحدو نهر قديشا موكب عرسه الخالد ، فيتبعه قلب الشاعر المتصوّف منفساً عن عاطفته المكبوتة بذلك الغزل الالهي... وكأنّ حرب ميوله لم تضع اوزارها حتى هتف معترفاً لنا : اني بليت باربع لم يخلقوا .

وبعد قرن كان للبنان امير كالملوك . له بلاط ، وله شعراء يكدون قرائحهم ليعملوا شعراً يليق بسعادته ، فيهزونه هزّ الكماة عوالي المرّان ، فتتدفق الصلات في قصر بتدين العامر .

يدور كثيراً على الالسنة في هذه الايام ذكر البشير الشهابي امير لبنان ، وتذكر كثيراً بيت الدين حيث عاش الامير العظيم سيداً تراوده الدول العظمى ، فيستقبل في (قاعة العمود) السفراء والوزراء والقواد والقصاد ، وعليه ابهة الملوك ، وسيماء الاسود .

كثيراً ما يذكرون هذا الاسد اللبناني وعرينه الذي جدد (عهد) الشيخ بشاره خليل الخوري شبابه ، واعاد صاحبه اليه رفاتا لا عليه ولا له ، بعد مئة عام ونيف . يذكر الناس اعمال الامير ونضاله وبطشه وينسون انه كان له شعراء ، وانه كان سيف دولة زمانه ، لم يجتمع بباب ملك من ملوك عصره اكثر مما التفّ حوله من امراء الكلام في زمانهم ، ولكل دولة رجال .

اجل لكل دولة رجال فلا يطلب من نقولا الترك وبطرس كرامه وناصيف البازجي وامين الجندي ، اكثر مما عملوا في خدمة الادب ، فهم والشدياق والبستاني والاحدب والاسير وخليل الخوري وغيرهم قد بنوا هذه النهضة فأعلوها ، والقلم

يقرع القلم ...

انعش الامير العظيم الادب العربي في عهـــده ، مدفوعاً الى ذلك من نفسه المطبوعة على الاريحية ، ومن طموحه الى تأييد امارته واذاعة صيتهـا . رأى ان لا بد لها من شعراء يؤيدونها باقلامهم ، ويدعون لها بالسنتهم الفصيحة ، كما كانت الحال في جميع الادوار العربية ، فقربهم وأدناهم من السرير فسمعنا شاعره الاول نقولا الترك يمدح مولاه بعد وقعة غلب فيها :

سواك الى المعالي ليس يدعى لان الله احسن فيـك بدعا
أمير ، لا امير سواه يرجى ، مليك كامل خلقـــا وطبعا
بشير خوّل الدنيـــاء بشراً به طاب الورى قلباً وسمعا
شهاب أوعب الافـــاق نوراً على نور الثريا فـــاق سطعا
اذا اعددتـــه يومـا بفرد من الافراد كنت تراه (سبعا)
ندى كفيه جلّ عن انكفاف كأن الله اجرى فيـــه نبعا
فما الفضل بن يحيى ، وابن طيٍّ وهل معنى (لمعن) بعدُ يدعى
بصارم عـدله كم بتّ جوراً وأحيا لانتصار الحق شرعـا

ولست اشك في ان سعادة الامير استطاب هذا الثناء ، واجزل لقائله العطاء ، فحركت مواهبه قريحة شاعره ، فراح يفتش عن نول آخر ينتج عليه فتطاول الى الحريري وبديع الزمان . فدبج لسيده المقامات ، كما نظم القصائـد ، ليريه ان في دولته على صغرهـا ، من يعنو لهم النثر كما يطيعهم الشعر . كتب مقامات ، بلغة ضعيفة طبعا ، ولكن فيها جداً وهزلا همـا من طبع هـذا الشاعر . واشهر مقاماته تلك التي سماها (المقامة الديرية) كتبها طالباً من الامير داراً يسكنها فراح يتخيل فيهـا ما استطاع حتى اخرجها بصورة حلم ابصره في نومه ، ثم عبّره في ختـام تلك المقامة الطويلة كما يأتي :

« فقال المعبر : اما حدوث الزلزال ، وقلقلة الجبال ، وهياج الرياح ، وقيـام الصياح ، فهذا دليل على ما بك من البلوى ، لعدم المأوى ، واما ارتفاعك في اللجج ، وقطع الآمال من الفرج ، فهذا دليل نهاية النحوس ، واضمحلال البؤوس . ورؤياك

لذاك النيّر الساطع ، ذي السيف القاطع ، هو عبارة عن ذلك الملاذ المفخم ، والامير المعظم ، بشير السلام ، وشهاب الانام . أما ما اصبت منه من المنزلة ، والهبة الجليلة المكملة ، فدليل على حلولك في قطره الزاهر ، وحماه الباهر ، المعروف بدير القمر ، المنظوم في سلك عدله الذي اشتهر . وستعطى ارضاً خلية ، تبني لك بها داراً سنية ، وبالقرب من قبة الشربين ، فهذا ما رأيته باليقين » .

بهذه البراعة الفنية تملّك الشاعر داراً كما اشتهى . وكان كلما ازداد من مولاه قرباً ازداد براعة طلب ، فاسمع كيف يطلب منه شروالاً وعمامة :

وشروالٍ شكا عتقاً وأمسى ... يراودني العتاقَ فما عتقتُ
وكم قد قال لي : بالله قِلني ، ... وهبني كنتُ عبداً وانطلقتُ
أما تدري بأني صرت هَرْما ... وزاد عليّ أني قد فُتِقتُ
فدعني حيث قلّ النفع مني ... وعاد من المحال ولو رتقتُ
ولا تعبأ بتقليبي ، لأني ... بعمر أبيك نوحٍ قد لحقتُ
ولم يبرح يجدد كلّ يوم ... عليَّ النعي حتى قد قلقتُ
فقلت له عتقتَ اليومَ مني ... لأني في سواك قد اعتقلتُ
فاشعرتِ العمامة في مقالي ... له فاستحسنتْ ما قد نطقتُ
فراحت ، وهي تشدو فوق رأسي ... ليَ البشرى اذنْ وانا عتقتُ

اشهد اني أستنشق من شروال الشاعر العتيق رائحة الامير وشعراء بلاطه ، فعبقرية شاعره الظريف فواحة العبير ، فهو ، وان لم يؤزّر بالبلاغة ، طافح بالشخصية الظريفة والخيال الفاره .

كان الترك عند أميره شاعراً ونديماً وكاتباً . يقول له ما يرضيه ، ويجيب على كل اقتراح يصدر عن سعادته ، ومن يطّلع على ديوان نقولا — هكذا قالوا حين (لزّموه) — يقرأ صفحة من تاريخ لبنان الحديث . وقيل لي ، أيضاً ، إنه طبع ولكني لم أحصل على نسخة رغم السعي وراء ذلك .

رووا لنا من شعر الترك ، يوم كنا على مقاعد المدرسة ، هذا المطلع :

عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبُ ... قطط سودٌ ولها ذنبُ

تصطاد الفارَ من الأوكار وتطيحُ الحيطَ فتنقلب

وكان لنا رفيق في مدرسة الحكمة اسمه سعيد جوهر من (وادي الست) ، فكان معلمنا الخوري يوسف أبي صعب يمازحه بهذا البيت الذي ينسب الى شاعرنا :

ورحتَ تحطّ بوادي الستِّ وغرّكَ فيها الشيطانُ

ونقل الأب شيخو مناظرة شعرية أجراها الشاعر بين الزيت واللحم ، ولعلها اقتراح من سعادة المير . وهاك بعض ما نظمه الشاعر في هذا الموضوع :

أنا الزيتُ الذي كلٌّ اليه يحتاجٍ ووصفي قد تنوّعْ
فنوري شاهدٌ في عظم فضلي اذا ما في ظلام الليل لعلع
وكم قوّمت من عرجٍ وكم قد أقمت مكسّحاً وشفيت أكتع
ومني يكسب الصابون عرفاً ذكياً يشبه المسك المضوّع
به قد تغسل الأدران طرّاً عن الأبدان والملبوس أجمع
وكم لي من مزيّات تناهت فضاق بوصفها الشرح الموسّع .
فقال اللحم مفتخراً عليهِ لقد وسَّعت ذا الشدق المخلّع
فشحمي في الليالي عنكُ يغني ضياه ، بل وفي الاشراق يسطع
فويحك كيفما حاولتَ تودي ودهنك أينما قد حل بقّع
وأكالك منكرٌ عند الأطبا لأنك محرق للكبد تلذع
وإما أن تسل عني فاني أنا اللحم الذي قدري ترفّع
ومطبوخي لذيذ مستطابٌ شهيّ الأكل طاب لكل مبلع
كذلك طعم أمراقي شفاء يقوي كل ّمن منه تجرّع
وأنواع البقول وكلّ نبتٍ نما للأكل لي خدم وتُبّع
ولي دسم يذكيّ كل نوعٍ من الطبخ الذي لي فيه إصبع
لذاك ترى ملوك الأرض طراً لهم في مأكلي ولع ومطمع
فعد يا زيت عما انت فيه ومن هذا الجدال الشاذ دع دع

والى جانب هذا الهزل نرى للشاعر شعراً آخر رصيناً يقوله حسب مقتضى الحال . فمن يدخل قاعة الامير في بتدين ير قصيدة ، من عمل شاعره هذا مكتوبة على عالي

جدرانها وهذه هي :

الله الله انت الواحد الأحدُ والسرمد الأزليُّ الدائم الصمدُ
حيٌّ ، عزيز ، قدير ، خالق ، وله من في السماء ومن في أرضنا سجدوا
لا ربَّ غيرك يا مولاي نعبده ولا سواك الهاً فيه نعتقد
انت الغنى والمنى والفوز اجمعه والعون والغوث والانجاء والمدد
ما لي سواك غياث لي اطالبه كلا وغيرك مالي في الورى سند
خولتني يا الهي خير تسمية فكنت فيك بشيراً، انت لي عضد
فاللبّ والروح كلٌّ فيك مشهده والفكر والقلب والاحشاء والكبد
بل كل جارحة مني وعاطفة تصبو اليك ، ونار الحب تتقد
اذ انت علة نفسي ، انت مركزها يارَبَّ كلٍّ ومنه الخلق قد وجدوا
يا ربيَ امننْ بعفوٍ منك لي كرماً واغفر جنايات عبد منك يرتعد
وجد بخاتمة يارب يعقبها ذاك النعيم السعيد الثابت الوطد

ولكن الخاتمة ، وا أسفاه ، لم تكن في هذه الدنيا كما اشتهى الشاعر لاميره ، اما الآخرة فلا اعلم عنها شيئاً .

هذا هو شاعر الامير الاول ، وهو الذي قرّب المعلم بطرس كرامه من مولاه ، فصار شاعره الاكبر ، ونجيه ، ومستشاره .

كان نقولا طيب القلب دمث الاخلاق ، مرحاً طروباً حسن البديهة ، وهو برز معاصريه شخصية في شعره وان قاله ركيكا كما ترى . فنان طمح الى التجديد والادب الرفيع فادرك ما قدر عليه، ولهذا ترى الطرافة عنده في كل مقام ومقال. واذا قصر في ميدان الفصاحة والبلاغة فهو معذور لانه ابن نفسه .

بطرس كرامه

●

– إمارتي من سيفي هذا .

هكذا اجاب الامير بشير حين سأله شريف باشا : إمارتك من اين ؟ لم يبال بطل (المزة) بما احدثته كلمته في نفس محدثه ساعتئذ، الا انه ، بلا شك، قد تذكرها في احدى ليلات مالطة ، كما تذكر نابليون، في جزيرة القديسة هيلانة، كلمات كهذه.

صدق الامير. أعلى الممالك ما يُبنى على الاسل، كما قال المتنبي منذ الف واكثر. الاسد يمنع عرينه الصغير ، اما سطوته فتحمي الغاب كله، ولهذا تطاول الامير بشير الى جميع آلات الملك فاصطنعها كلها . فللبلاط بروتوكول ، وللديوان مراسيم ، يجري عليها في مخاطبة العظماء ، ومناصب البلاد ، وللدخول على المير والجلوس بحضرته اصول تطبّق وتراعى. اما السيطرة وما يتبعها من بطش فسعادته أمها وابوها . كانت مهابته كما قال المتنبي في سيف الدولة :

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة ما لا تصنع البُهمُ

كان الامير عادلاً بلا رحمة ، يدعم عرشه بهدم كل ما يراه خطراً عليه سيان عنده في ذلك ما بناه الله ، وما بناه الانسان . اذا رجع من (شر) وقعد يستجم في بلاطه ، بين ندمائه وشعرائه ، فكأنه يضرب اخماساً لاسداس ، لان (الشر) دائماً خلف الباب . يجلس سعادته في قاعة العمود ، جاثياً ، فتخاله القمة الماثلة. ينسيه ثناء شعرائه تعب أمسه ومشاكل السياسة وعقدها حيناً، فيستانس بالشعر والادب. كان سعادته يضرب في الشعر بسهم ككل امير عربي فيساجل شعراءه ، ويأمر

بالقول ارتجالاً ، تخميسا وتشطيراً . وقد رُويتْ له هذه الابيات التي قالها متغزلا في عاصمة دولته بيت الدين :

سرى النسيم ببيت الدين ذكرني حديثَ من كنت اهوى،والزمانُ صبا
وقد شفى كبدي الحرى بروضتها جري (الصفاء) الذي في سفحهاانسكبا
أهدى لنا نسمات من نوافحه مبسامها ، فازال الهمّ والكربا
وبث عرف الاقاحي والخزام ضحى وادي الجنان فأحيا قلبي الوصبا

وفي سنة ١٨١٣ دخل نقولا الترك على اميره مقدماً له المعلم بطرس كرامه ، فعهد اليه الامير في تعليم ولده امين. وبعد فترة قصيرة أضحى هذا المعلم شاعر الامير، ثم صار كاتباً للشؤون الخارجية ، لاجادته التركية. ثم امسى مدبّر الامير وقهرمانه يستسفره الى الابواب العالية في الخطوب الجسام ، ويدير مالية الامارة ، وهكذا امست شؤون لبنان كلها في يده . وظل كذلك حتى مغيب الشهاب عن سماء لبنان، فرافقه شاعره ومدبره الى منفاه ، ثم كان له في الاستانة العلية شأن آخر .

لست ممن تعنيهم السياسة الا بمقدار ما تلابس الادب ، فهمي هنا ان اصف عهداً نتغنى به لنفهمه على حقه .

كان همّ بطرس كرامه أن يظل خاطر المير صافياً ، والأمير ككل البشر يرضيه الثناء ويعجبه ، فلم يدع شاعره فرصة تمر حتى قال فيها شعراً . فكل ما يحدث في البلاط ، وفي ساحة الوغى ، وفي الصيد ، وفي ساعات الفراغ ، يستحق عنده التسجيل شعراً ، فكأن قريحة شاعرنا عداد (تكسي) لا يقف أبداً . لو سعل سعادة المير سعلة رنانة ، أو تجشأ بعد عشاء ثقيل شمّته شاعره بالمنظوم ، فيطيب الخاطر العاطر .

وكان (سعادته) ماهراً في حلب القرائح يستفزها بطرق شتى ، كاهداء (باقة زهر) الى الشاعر فيقول هذا في وصفها :

وباقة زهرٍ من مليكٍ منحتها معطرة الأرواح مثل ثنائه
فأبيضها يحكي جميع خصاله ، وأصفرها يحكي نضار عطائه
وأزرقها عين تشاهد فضله ، وأحمرها يحكي دما أعدائه

فيخمسها ويعارضها نقولا الترك ، فتعجب أبياته الأمير ، فيأمر بتخميس التخميس ، وتشطير المعارضة ، فتخمس وتشطر في حضرته ، وتنال كلها إعجابه العالي ، ويعلم الله ماذا كانت جوائز صاحب السعادة ، وعطاياه في تلك الساعة .

أما قصائد بطرس الضخمة فكانت تقال في (الخلع السنية) التي تهدى الى الامير كل عام ، وفي الحوادث الجسام ، وكل ذلك منشور في ديوانه المطبوع عام ١٨٩٨ أما المناسبات الصغرى فحدث عنها ولا حرج :

يرخي الأمير عذاره فيقول شاعره (مؤرخاً) هذا الحادث الجلل ! !

إن البشير الذي جاد الزمان به قد ساد بالمجد والافضال واللطف
بدا عذار البها في سعد طلعته يحكي أساطير بسم الله والطُرَف
الله عظمه قدراً وجمله أرّخْ وزينه في حلية الشرف

ويُهدى الأمير أشجار سرو فلا يحجم شاعره عن القول فيها :

جاء سروٌ فقلت هذا سرور يتجلى في روض مجد البشيرِ
حيث يروي النسيم عنه، فحيوا يا وجوه الأنام فضل الأمير

ويصطاد الأمير فيخص شاعره بحجل من صيد يمينه المباركة ، فيقول في هذا شعراً . ويزيده الأمير فيزيد الشاعر وهكذا دواليك . وإذا انقطع الوارد الملهم الموحي ورأى الشاعر مولاه جالساً في الايوان في إحدى الدكتين المختصتين بجنابه العالي ، أنشد الشاعر :

وإيوان مجد برج ليث تخاله به كوكب الاقبال أصبح مشرقا
حوى منزَليْ عزٍ كانهما به (السماكين) والبدرالبشيربهارتقى

وإذا سكت الطائر هيجه مولاه ، فأهدى إليه (بز كهرباء) ؛ فالهمه المناظرة بين (البز والماسورة والأركيلة) فيبذل في هذا الموضوع جهده ، ويقول :

وربَّ خرساءَ اضحت بعد لكنتها (فصحاء) ذات فم للضدِ ردّادِ
قامت بمبسمها الزاهي تردّ على نرجيلة ، فجرت في قولها البادي :
تندّدين باني غير ناطقة الم تريْ منطقي يروي ظما الصادي؟!
ألم تري ماجداً نعم الامير ومن أحيا وجود الندى في كفّه النادي

فهو الذي قد غدا لي منجدا وبه   ثغري يغرّد في مدح وانشادِ

واذا غفل الامير عن أعطية التبغ نطق الشاعر ملتمسا (الدخان) من سعادته ، كما طلب نقولا من قبل دارا وشروالاً وعمامةً .

واذا كان الشاعر قال حين رمّم مولاه بناء سبيل ، فما تراه يفعل ومولاه قد جر نبع الصفاوبنى الجسور ؟ إنْ رمم الامير باباً او فتح طاقة تنفتح للشاعر ابواب وابواب على دنيا عبقر ... ما احلاها حياة لا ادري كيف اصفها ، فليته كان لها شعراء اكبر ... فقصيدة (نهر الصفا) طويلة كالقناة التي هندسها للمير (أُخوَت) شانيه ، ولكن الركاكة تشينها .

وللصيد ورثاء البزاة مقام جليل في ديوان كرامه ، وكذلك وصف البرك وكل مكان تشرفه ركاب صاحب السعادة . دخل الامير بستانا فقال الشاعر :

وبستان زها شرفاً وحسناً   بزورة كوكب الشرق المنيرِ
حللناه فماس الغصن قداً   ومال مقبلا ذيل الاميرِ

وتظهر الحصبة في جسم (سعادته) الشريف فيقول شاعره في ذلك :

قالوا حبيبك محصوب فقلت لهم   لا . لا . فقولكمُ زور وبهتان
وانما جسمه مذ راق جوهره   الصافي ، فنقطه بالحسن مرجان

ويصف الشاعر ما في قصر بتدين فتخالك في الحمراء اذ يقول :

ما ترى البركة العذيبة اضحت   تتثنّى كصفحة الهندواني
جاد فوارها العجيب برقصٍ   حين غنت سباعها كالقيان

ويمد سعادته يمينه المباركة فوق البركة ، فتهرع الاسماك اليه ، وتأكل من يده فتات الخبز ، فيصرخ شاعره :

حيًّا الاله بشيرنا المولى الذي   ضاءت بنور شهابه الافلاك
خضع السماك للثم راحته التي   نهضت للثم بنانها الاسماك

ويتعمم (سعادته) بعمامة سوداء فيقول شاعره فيها :

بعمامة سودا أتى رب السنا   فغدا الوجا يسمو على النبراس
ما ذاك حباً بالسواد وانما   يروي ثناء عن بني العباس

ويبني سعادته إيواناً في مقام النبي يونس فيستلهم الشاعر الكتاب ويقول :

فانزل بحضرة يونسٍ تأمن به حوت الطريق
واقرأ بفاتحة الثنـــا حمـــداً لمنشئه العريق
أعني الشهابيَّ البشـير بكل سعـدٍ للصديق
وانشقْ نسمات الصبا من عرف لبنان العريق

وقضت الايام فابتعدوا عن بتدين ثم عادوا اليها فقـال الشاعر في ذلك قصيدة طويلة :

هذي الديار ديار بيت الدين فتمتعي يا مهجـــتي وعيوني
دار بها طاف الصفاء فاصبحت تهدي السرور لقلب كل حزين
ان دُنِّستْ عيني برؤية غيرها طهّرتها بصبيب ماء جفوني

ولا نستغرب هذا بعد ما قرأنا للامير نفسه شعراً في بتدين كما مرّ .

ويوفد الامير شاعره الى مصر فيسمع هناك غناء قينة تدعى أمّ رضوان ، فيقول فيها :

رعى الله مصراً ان مصراً لَجنّةٌ يزول بها عن صاحب الهمّ همُّهُ
ففي جنة الفردوس رضوان وحدَه وفي مصر رضوانٌ كذاك وأمُّه

ودارك الفلك ، لما اتت الساعة ، فاذا الامير في مالطه . وجاءت نوبة المدبّر السياسية فلعب دوره على المسرح العالمي . أرسله مولاه — الامير بشير المالطي — الى اسطمبول رائداً فكتب اليه كلمته المشهورة : « الصندوق في سطمبول والمفتاح في لندره... » ثم رغّبه في الاقامة بها ، فجاءها الامير وقضى فيها اعواماً سكت في خلالها طبل المديح ومزماره . تحوّل عنه شاعره الى مدح وزراء الدولة العليـــة وصدورها العظام ، ولم نسمع صوته الا حين أرّخ ضريح مولاه المتوفى سنة ١٨٥٠

قد كان صاحب هذا اللحدِ ذا شرفٍ مدى الزمان رفيـع غير منخفضِ
لاقى المنية في التسعينَ متشحـــا بردَ الفضائل في عمـدٍ وفي عرضِ
أولتْ ولايته لبنانَ طيبَ ثنـــا وشاد بالعدلِ فيـــهِ كل منتقضِ
فهو الامير الشهابيُّ البشير ومَـــن غير العلى لم يكن يرتادُ عن غرضِ

قضي فأظلمتِ الدنيـــا مؤرّخـــةً اما البشير شهاب في الجنـــان يضي

ثم يقول قصيدة طويلة في رثاء الشهاب الذي انطفأ . ويمضي الشاعر لسبيله لاحقاً بمولاه بعد عام ، فقال شاعر الامير الثالث ــ الشيخ ناصيف اليازجي ــ مؤرخاً وفاتـــه :

مضى من كان اذكى من إياس بحكمتـه وافصح من زهـــير
فقل يا ابن الكرامة قرّ عينـاً لبطرس ارخوه ختـــام خير

ضوضاء الخالية

كان المعلم بطرس كرامه أرصن واصحّ قولا من شاعر الامير الاول،ولكن هذاك كان ، كما قلنا ،اخف روحاً . كان القدماء يرون الهزل والضحك في الادب قلة هيبة ، ولهذا طارت لكرامـة شهرة لم يكن لنقولا شيء منها . وقف نقولا نفسه على اميره فما تطاول الى ولاة الاقطار حتى يذيع له صيت ، اما بطرس فما احجم عن ذلك ، فاحدثت قصيدته (الخالية) ضوضاء ادبية اشتركت فيها الاقطار العربية .

قال بطرس هذه القصيدة جاعلًا قافيتها لفظة واحدة ، ولكنها مختلفة المعاني ، قال في مطلعها :

أمِنْ خدها الورديّ أفتنك الخالُ فسحّ من الاجفان مدمعك الخالُ

ثم ختمها بقوله :

لكلّ جماحٍ ان تمادى شكيمة ولكن جماح الدهر ليس له خال

ولما وقف عليها الشيخ عبد القادر الموصلي ، وكان يومئذ ببغداد ، عارضهـــا ممتدحاً واليها المشير داود باشا فقال :

الى الروم اصبو كلما أومض الخال فسحّ من الأجفان مدمعك الخالُ
وعن مـدح داودٍ وطيب ثنائـهِ فلا القدُّ يثنيني ولا الخدُّ والخالْ
مشيرٌ الى العليا أشار فطاطـــأت واصبح مندكاً لهيبتهِ الخـــال

ثم ختمها بهذا البيت :

فذي معجزاتي ما أرى ابن كرامةٍ   يُعارضها حتى يصاحبه الخـال [1]

وخمّس (خالية) بطرس الشيخ ابرهيم ابن الشيخ صادق آل يحيى العاملي الشامي . وخمسها ايضاً الشيخ موسى المشهدي . ثم عارض وامتدح هذه القصيدة كثيرون من شعراء ذلك العصر ، ولكن الشيخ صالح التميمي شاعر المشير داود باشا قال قصيدة يعتذر فيها الى مولاه حين كلفه معارضتها ،فابتدأها مخاطباً اياه قائلاً :

عهدناك تعفو عن مسيء تعذرا   الا فاعفنا عن ردّ شعرٍ تنصرا
وهل من مسيحيٍ فصيحٍ نعده   اذا اينع الشعر الفصيح واثمرا
عداه (شبيبٌ والاحصّ) وفاته   من الرندو القيصوم ما كان أزهرا
دع الشاني المخصوص بالنصر اننا   نراه بميدان البلاغة أبترا
به سمةٌ من صبغة الخال سودت   بصيرته ، لو كان ممن تبصرا

ثم يقول بعد استجلاف المشير بصفاته المثلى :

لجمٌ غفير صير الخال قبلةً   مكان القوافي بالقوافي مكررا
لعمرُك ما (كعب) وما الشيخ قبلَه   (زهير) بتكرار الرويّ تصدرا
وما الشعرُ الا ما أبانت صدوره   قوافيه ، لا ما السمع فيه تحيّرا

فرد عليه بطرس بقصيدة طويلة هذا مطلعها :

لكل امريء شأن تبارك من برا   وخصّ بما قد شاء كلاً من الورى
ولو شاء كان الناس امة واحدٍ   ولم تلق يوماً بينهم قط منكرا
اذا انحط قدر الدر من أجل بائع   فذلك جهل باللآلي بلا امترا
كما عاب شعري قائل في قريضه :   الا فاعفنا عن رد شعر تنصرا

وبلغت هذا الضوضاء مسامع الادباء في كل قطر فكتب الشيخ رشيد الدحداح في كتابه (قمطرة طوامير) انتقادا مطولا حمل فيه على التميمي ، واخيرا كان الكلام الفصل في هذه المعركة الادبية للسيد عبد الجليل البصري الذي قال :

حكمت وحكمي الحق ناءٍ عن المرا   بان التميميّ الاديب تعثرا
بذمّ قواف في بديع جناسها   وذلك نوع في البديع تقررا

(١) اي الكفن .

ثم يمدح شعراء نصارى راداً على قول صالح :

فمن كابن عبّاد يجاري مهلهلاً ... وكان مسيحياً تقدّم يشكرا
وكالاخطل المعروف شاعر تغلب ... يسوق به القسيس في الدير كالفرا

ثم يتطرق الى مدح بطرس فيقول :

فصيح رقى أوج البلاغة يافعا ... فاشعاره حلّى بها ربع قيصرا
اتى منه نظم هدّ حجة صالح ... وان كان في المنظوم قدماً تصدّرا
وقد كان لي من صالحٍ خير صحبة ... وعند اتباع الحق مازلت اجدرا
لكلٍّ تراني قد قضيت بحقهِ ... واسأل بارينا الهدى والتبصرا

وهكذا القت الحرب اوزارها ، واستراحت اقلام شعراء ذلك الزمان .

ولما كان بطرس (كاخية) الامير ورئيس ديوانه وجب علينا ان نعرّف القارىء بنثره الديواني ، ولكن ذلك النثر كان يكتب للبشر على مقدار افهامهم ، ولهذا لا يعوّل إلا على بعض رسائل اخوانية، وقد رأيته في هذه ينحو نحو الخوري الصائغ . كتب كرامة يجيب الشاعر الناثر فتح الله الطرابلسي :

« غير انه لما عاندني الدهر (برؤياكم) ، واعدني وانتحل مذهب عرقوب بلقياكم . ونأت (افعال المقاربة) وتدانت (المعمولات) بعوامل (عطف) الفؤاد عليه (عطف نسق) المحتاج اليه . . . الى ان يقول : وانتصب القلب (بالاختصاص لحبكم) ، (وجزم) ان لا بجله غيركم . »

ولم يقف عند هذا الحد بل شاء ان يزيد على من تقدموه ، فهرع الى علم العروض فقال : وتحقق ان (طويل) البعاد (بالسريع متقارب)، ولم يزل يعري (الاسباب مقتضبا متدارك) . ثم لا يكفي الصرف شره فيقول : ففؤادي (الاجوف بلفيف) حبكم (مقرون) ، وشوقي (المتضاعف مزيد غير مهموز) ولا (معلول) . الخ .

ولم يهمل هؤلاء الرواد الموشحات ، فلبطرس والانسي وغيرهما موشحات وتشطيرات وتخميسات وبديعيات . وهكذا خاضوا غبار كل ما سبقهم اليه (إمامهم) صفي الدين الحلي ، ومن جاء بعده من شعراء عصر الانحطاط .

ولست اقول لك ، كما قال القدماء : وحسبك من القلادة ما احاط بالعنق ، فليس في شعر هؤلاء لآلئ ، وان كانوا جهابذة زمانهم ، وشعراء عصرهم .

ناصيف اليازجي

الشيخ ناصيف اليازجي هو شاعر الأمير الثالث أو آخر شاعر (رسمي) دخل القصر . ولا شك أنه أفيضهم قريحة وأنقاهم ديباجة . دخل قصر بتدين حين اعتدل ميزان نهار العهد البشيري ، فقرب الأمير شاعره الجديد وأدناه . جعله كاتب سره ، فاتبع في رسائله بروتوكول القصر ، يكتب الى هذا (محبنا) فيظل كما هو . . . والى ذاك (أخونا) فيصير شيخاً مكرماً يتوارث بنوه هذا اللقب . وعلى هذا النسق جرت عادة الوزراء في الكتابة الى سعادة المير . تفتتح مراسيمهم بهذه التوطئة : افتخار الأمراء الكرام ، مرجع الكبراء الفخام ، ولدنا الأمير بشير الشهابي الجزيل الاكرام ، دام مجده على الدوام ، بحفظ الملك العلام) .

لا بد من أن يكون القاريء ، بعدما قرأ ما قرأ عن شعراء الأمير ، مشتاقاً الى التعرف بسعادته خلقاً وخُلقا . اسمه يملأ الأذهان حتى الساعة ، وهناك قصص تروى وحكايات تسرد ، فتقوم الى جانبها صور عنه فيها الخطأ وفيها الصواب . أما معاصروه فرسموه في التاريخ هكذا : أشقر اللون ، معتدل القامة ، طويل اللحية كثها ، نحيف ، أقنى الأنف طويله ، أشهل العينين . أما صفاته فقالوا فيها : جامع كامل الصفات الحميدة ، عاقل ، عادل ، حليم ، شجاع ، فاضل ، كريم ، ديّن ، عفيف ، مهاب ، شهم ، يقظ ، فطن ، صادق ، رزين ، حزوم ، جبار ، فتاك ، صبور ، غيور .

أما سلسلة نسبه فيرويها صاحب كتاب أعيان لبنان – كما ذكر صفاته – مبتدئاً بابراهيم وسام بن نوح فآدم حتى يمرّ المؤرخ ، أو صائغ تلك السلسلة ، بموسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) . . . .

أما (أيام) الأمير فكانت شغل شعرائه الشاغل ، تفتق وقعاته قرائحهم ، وتخلق لهم كل يوم موضوعاً جديد . (وسعادته) يسمع ما يقال مغتبطاً ، يهب مما

نهب ، و كذلك هي الحرب خيرها لناس وشرها لآخرين . ينظر الشعراء الى حصة الأسد فيسيل لعابهم ، وأميرهم جواد لا يبخل عليهم بما يسند قلبهم ، فلا يبقون على الريق .

وهذا شاعره وكاتب ديوانه ناصيف اليازجي يرفع عقيرته ضاماً صوته الى صوت شاعر الأمير الكبير وغيره ، فتتالف من هؤلاء جميعاً (جوقة) لم يشهد مثلها بلاط من بلاطات ملوك ذلك العصر ، لأن أكثر من وظف لهم الأمير كانوا يقولون الشعر ،بل خير أهل زمانهم علماً وأدباً ،فيكونون كتّاباً في الديوان أيام العمل، ومداحين وصافين لأيامه المشهورة في أعدائه .

على هذا كان أبو سعدى البعيد الأماني ، الذهبي الأحلام ، ولكن النعم تابى التابيد ، والكلمة المأثورة ؛توقّع زوالاً اذا قيل تمّ ،صادقة دائماً ، فهؤلاء مناظرو الأمير وخصومه ينصبون للأسد الشباك في الخفاء ، ويحفرون دائماً في أساس ولايته ليدكوها ، فما مرت سنوات حتى قام قائمهم . كانت الثورات تلي الثورات (والعاميات) تلي العاميات ، فمن عامية انطلياس الى عامية لحفد ، حيث لا تزال (قلاعي لحفد) ، التي حن اليها ابن القلاعي في شعره ، تخبر عن بطش الأمير . وأشهر تلك القلع لا يزال يطلق عليه اسم (شير العمّية) .

اسكت الامير تلك العاميّات فسكنت الأرض بين يديه زمناً الى ان كان آخر العهد ، ولكل أجلٍ كتاب ، فظهرت عاميّة حرش بيروت ، وتلتها عاميّة سن الفيل ، فاوفد الامير من استخلصهم لينصحوا الثوار فاذا بهم يشددونهم ، فوجّه اليهم بعض بني عمه فعادوا اليه حاملين خمسة شروط ، فلم يقبل بها الامير وارسل اليهم البطرك يوحنا الحاج الذي كان يومئذ كاهناً يدرس الفقه في بيت الدين على فقيه عصره الشيخ بشاره الخوري ، فوجدهم قد اجمعوا امرهم في انطلياس ، فلم يصغوا له واظهروا العصيان .

وازدادت الثورة اشتعالاً ، فلجأ الامير الى البطرك الحبيشي فانتدب للمداولة معهم احد مطارينه - بطرس كرم مطران بيروت - فسلمه الامير بشير احمد اللمعي ، شروط الثوار وهي :

١ — عزل بطرس كرامه من ديوانه ، وتعيين كاتبين من كل طائفة .
٢ — رفع السخرة بنقل الفحم الحجري من قرنايل الى بيروت .
٣ — ابقاء السلاح الكامل للبنانيين .
٤ — تخفيف الأعانة .
٥ — رفع الاحتكار عن الصابون ، لانه كان للامير (مصبنة) في دير القمر ، وكان عمّاله في البلاد يعاقبون ويغرّمون من يشتري الصابون من غيرها .

وارسلت هذه الشروط الى بحري بك ، معتمد الدولة المصرية ، فشكر ووعد. وكان على اثر ذلك مدّ وجزر في خضم السياسة ، ابراهيم باشا من جهة والدول من جهة ، فجرف التيار امير لبنان فترك عرينه في العاشر من تشرين الاول سنة ١٨٤٠ وغادره معه اولاده الثلاثة ، وزوجته ، ومدبره ، ومعه ماله وكنوزه . قال المؤرخون ان خزنة الامير كانت ١٨٠٠٠ كيس من النقود الذهبية القديمة.

وبعد خروج الاسد من عرينه نهبت سراي بتدين ، ونزل الشيخ ناصيف بعياله الى بيروت ، وهناك انقطع الى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الشعراء ، يمدحهم ويمدحونه . شاع هذا الصنف من بضاعة الادب لأن الشعراء لم يجدوا من يمدحونه ، كما قلنا في غير هذا المقام . ومن شاء نموذجا من هذا النوع فليفتش عن الجزء الثالث والرابع من منتخبات الجوائب ، اذا تعذرت عليه مطالعة دواوين شعراء القرن التاسع عشر كلها .

وكان لانقضاء عهد الامير ، كما كان لوجوده ، فضل على الادب العربي في لبنان ، اذ استراح الشيخ ناصيف من مشاكل الديوان ومشاغله ، فانصرف الى التأليف طابعا على غرار القدماء ، فدنا من الحريري ، في مقاماته ، وضارع ابن مالك في ارجوزته « نار القرى » ، ولم يعفِ من نظمه الطب والبيان والمنطق ... فكان لنا منه شاعر يخوض وسط المعمعة .... ولا يقصر في جميع الميادين .

أجل كان شيخنا دلاّل القريض فخاض سوقه وشرى وباع . . . فها هو قابع في بيروت يرسل عرائس الشعراء بشراً بين يدي رحمته ... تهمي ديمته على هذا الباشا ، ويسحّ وابله على ذاك الوالي ، ثم لا يبخل بهذه الدرر على قائمقام او شاعر

او أديب او وجيه ففي مخزنه بضاعة لكل بندر ترضي انانية محبي الثناء. وهو في كل هذا المنظوم راض عن نفسه، يرسل الشعر سهلا هينا لينا فيدخل الآذان بلا استئذان.

ولم ينسَ ناصيف اميره المالطي (١) فارسل اليه قصيدة ننقل بعضها لنري القارىء نموذجا من شعر الشاعر المدحي :

طال شوقي لطول هذا البعادِ فترى هل لذاك من ميعادِ
كلما اقبل الرجاء ثناه الدهر عنا ، فكلنا في الطراد
خمدت نار ذلك الحي ، ويلاه ، ومن لي من جمرها برماد
واستقرت تلك الاباطح من ركـ ض المطايا ، ومن صهيل الجياد
لم تصبنا أيدي العداة بسهمٍ فرمانا بأعين الحساد
ايها الراحل الذي ضرب الاطناب بين القلوب والاكباد
ماسمعنا براحل أوحش الاحباب عند ارتحاله والاعادي
ربما انكر العدى منك أمراً يتمنّون هل له من معاد
علموا ان ذاك قد كان تأديب أبٍ فانثنوا عن الاحقاد
ضاق ذرع البلاد بعدك حتى لا مناخٌ لناقة في البلاد
فكأن البلاد جسم بدون الروح ، او مقلة بدون السواد
او قدت يا كليب بعدك نار سال منها في الحي قلب الجماد
وانقضى القرم بعدكم كل سيف كان في عهد سيفكم كالنجاد
كنت دهرا فبنت لم تغننا منك ولا عنك كثرة الاعداد
لك خوف لو صادف العين في الحلم لصارت تخاف طيب الرقاد
تفخر الناس بالجدود ولكن انت فخر الاباء والاجداد
وبك المنتمي يباهي ولو بابن أبيه يدعى كمثل زياد

ان في هذه الابيات اصدق وصف للحال بعد نفي الامير ولو كان للامير تشاؤم ابن مروان لتطير من شعرها الناعي اليه نفسه ، ولاشمأز ذلك الاسد فراسة عند ذكر كليب ، ولكن شيخنا ، رحمه الله ، كان يستوحي الكتب القديمة ولا يستلهم

(١) عرف الامير بشير بالمالطي بعد تلك الكنية ــ ابو سعدى ــ الكلية المهابة . وهذا مصير من يؤخره الدهر ، فانه يخسر كنيته اولا ، ثم يعرى من لقبه ...

غيرها ، فهو في كل ما نظم وما كتب زعيم المقلدين في عصره ، لا ينازعه هذه الزعامة احد . فكأنه ذات مجردة عن المكان والزمان ، فما علق بشعره ونثره شيء منهما . فمن لا يعرف انه نشأ في كفر شيما وشب ، واكتهل في بتدين ، وشاخ في بيروت ، خاله من مواليد نجد واليمن . وحسبك برهاناً على هذا الزعم انه كتب في (مجمع البحرين) مقامة سماها (المقامة اللبنانية) وليس فيها شيء من ريحة لبنان ، الا وصفاً فضفاضاً يصلح لكل ارض جبلية . فالمتنبي الذي مر عرضاً من وراء لبنان ، فشاهد قفاه ، او رأى قممه من حمص ، قد تأثر به اكثر من شيخنا اليازجي .

اما ما يعجبني من شيخنا فهو ان معجزاته اللفظية أربت على شيخ ربيعة الفرس . ما ترك في (مجمع البحرين) شيئاً لم ينظمه شعراً ، فمن اسماء الرياح حتى جراء الكلاب وخنانيص الخنازير ، وهاك من هذا نموذجاً — بلا قيمة — قال عظم الله اجره ، وشكر سعيه :

للخيل مهرٌ ، وحـوارٌ للجملْ والجدي للمعزى ، وللشاءِ الحَمَلْ
والعجـل للثور ، وللحمـير عفوٌ ، كـذا الخنوص للخنزير
وشبل ليث ، ولضبع فرعـلُ وجرو كلب ، ولفيل دغفـل
وخرنـق ، لارنبٍ ، وتتفل لثعلبٍ ، ولابن آوى نوفـل

وكل ذلك بالسهولة التي اتسم بها شيخنا ، وخصوصاً في غزله الذي عليه دلُّ الحاضر المتنعم كما ترى :

أتظنُّ هذا الخال فوق المبسم إلا عُبيداً حارساً درَّ الفمِ
أخـافُ اذا أشار براحتيه لعلمي أنَّ روحي في يـديـه

وللشيخ ، ككرامة وغيره من ادباء وكتاب هذا العصر ، وثبات موفقة على (العلوم) حتى في الشعر الغزلي كما ترى عند شيخنا :

مـا بـين اعطاف القدود الهيف (سبب ثقيلٌ) قام فوق (خفيف)
من كان كاتب (نون) هذا الحاجب هيهات ليست من بضاعـة كاتب
مليح شهدنا ان نـارا بخـده لأنّا وجدنـا بينها فحم خـاله

حقاً ان غزل الشيخ ناصيف اليازجي ادق واحلى من (غزل البنات) وهو رقيق كنسيم لبنان العليل ، والشيخ فيه مبدع وان كان الابداع في الغزل يكاد

يكون مستحيلا . اما في غير هذا فمشى على سنن من كانوا قبله ، واقتفى اثرهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ...

كان ناصيف يظلع في سيره خلف القدماء ، وصديقه الشدياق يصيح به : وراءك ، حنانيك . والشيخ هاجم مشمر الاردان لا يلوي على شيء . يعنيه ان يكون له في كل معركة غبار ، وحسبه ذلك . وكان له من يوحّيه فيجدّ ، ولا يلهث، ولا يتعب، ولا سيما حين يأتيه ثناء طيب من شاعر كابن الصباغ العراقي الذي قال فيه :

كبش الكتائب والكتاب وانـــه   بالنحو ينطح هامـة (ابن خروف)
متوقد الافـكار يوشك في الدجـى   يبدو له المستور كـــالمكشوف
فطن تمنطق بـالفصاحـة ، وارتـدى   جلباب عـــلم النحو والتصريف

وكان (التاريخ الشعري) ، وهو من معجزات دهر الشيخ ، رائج السوق في ذلك الزمان ، فملأت (تواريخ) شيخنا المقابر والقصور ، واغتبط بهـــا الازواج والمواليد . حيا بها الباشوات والسلاطين بالمئات في القصيدة الواحدة ، فتوالدت في قصائده وتكاثرت (كالآميب) التي يسميها العوام (حبل القر) ، ولم يبزه احد الا معلمنا عبدالله البستاني كما مر بك .

الحكم في شعره

ان قريحة الشيخ فوارة ، أجاد المدح وتفوق عـــلى شعراء عصره بالرثاء المملوء حكمة . وقد يرثي من لا يعرفه ، كالمتنبي في اللاذقية ، فيتوسل الى رثائـه بوصف زوال الدنيا ، والحكمة التي نحبها نحن ، فيخرجها اخراجاً بطيئاً كأنه مشي الشيوخ الاجلاء . انه لا يقذفها قنابل كالتي كان يرمي بها المتنبي الناس . فهو يقول مثلاً :

للموت يولد منـــا كل مولود   يا ايها الام ربّي الطفل للدود

ويقول في مقام آخر ، ونعم القول :

مـــتى تر الكلب في أيام دولته   فاجعل لرجليك اطواقاً من الزرد
لا ترتج الخير من ذي نعمةحدثت   فهو الحريص عـلى اثوابه الجـددِ

الا ترى مثلي انه شعر طلي غير انه محتاج الى شيء لا ادري ما اسميه ليذهب الى مدى ابعد من النفس . إني احس بتكسره على ابواب الحواس فيقف عندها . لست

تهابه كما تهاب شعر المتنبي وغيره ممن ارسلوا الشعر حكمة ، فهو وشوقي ينظمان الحكمة نظماً ، والفكرة ان لم تنبثق من اعماق نفس صاحبها فـلا تبلغ الاعمـاق .
اسمع قوله :

ومـــا للميت الا قيد باع ... ولو كانت له ارض العراق
اذا حُمل النضارُ على نياقٍ ... فاي الفضل يحسب للنياقِ
واقبح مايكون غنى بخيل ... يغصُّ وماؤُه ملء الزقاق
اذاحرزت مال الارض طرا ... فمالك فوق عيشك من تراق
اتأكل كلَّ يوم الف كبش! ... وتلبس الف طاق فوق طاق
فضول المـال ذاهبة جزافا ... كماء صب في كأس دهاق

✲

اذا هلكت رجال الحي أضحى ... صبيُّ القوم يحلف بالطـــلاق
أسرُّ الناس في الدنيـا جهول ... يفكر في اصطباح واغتباق
واتعبهـم رئيس كلَّ يـــوم ... يكون لكل ملسوعٍ كراق

ويقول ايضاً في الحكمة التي نجد اكثرها في شعره الرثائي :

تكثر الخيل في المرابض ان عُدّت ... ولكن تقـــل عنـــد السباق

المعنى شريف ـ هكذا عـــبر السلف الصالح ـ ولكنه يصل الينا فاتراً ينقصه (الزخم) الذي هو من مقومات الشعر .

اما رثاء الشيخ فهو عندي في المحل الارفع من شعره،انه كلام يلطف من حرقة الجرح . واذا كان لايرضينااليوم فقد كان في عصره يستحلى ويستملح ويحتل صاحبه صدر المحفل . هاك نموذجا من الكلام الذي درج عليـه الشاعر في مواقف النوح :

ماذا التعللُ في دنيـاك بالاملِ ... هل في يمينك ميثاق من الاجلِ
ان كنت تعلم ان النفس خادعة ... فحبذا لو قرنت القـول بالعمل

الى ان يقول في رثاء هذا الشاب الذي اسمه خليل مسدّية :

بـني مسدّيةٍ أسدى الاله لكم ... صبرا على هول هذا الحادث الجلل
كن يا اباه كأبراهيم حـين سخا ... لربـه بابنه في ذلـك الجبـل

يا ليت هذا بنفس ٍ من أحبّتهِ ... يفدى، كما قد ُفدي اسحقُ بالحمل
لسنا نعزيك يا من لا عزاء له ... وان سكتنا وقفنا موقف الخجل
ان الحزين اذا هونت فجعته ... زادت فكنت كمطفي النار بالشعل
فاعذره فيما تراه منه وادع له ... بالصبر فهو له من انفع الحيل

وشعر الشيخ كله هذا الطراز المهلهل، وما اراه في هذه السهولة إلا ضريب ابي العتاهية . اسمع كيف يعزي صديقا كان تاجرا كبيرا وافلس :

يا بائعَ الصبر لا تشفق على الشاري ... فدرهم الصبر يسوى الف دينار
لا شيء كالصبر يشفي جرح صاحبه ... ولا حوى مثله حانوت عطار
ان السلامة كنز كل خردلة ... منه تقوّم من مال بقنطار
والمال يدعى صديقا عند صاحبه ... وقد يكون عدواً داخل الدار
يا من حزنت لفقد المال انك قد ... خلقت (١) عارٍ وما في ذاك من عار

فيا له شعراً كان فراج الازمات، وبلسم الجروح ، ينتظر شيء منه في الخطوب الجسام ليكسر من حدتها ، والشيخ جواد رحيم .

اما في المدح فقد شرّق شعر الشيخ وغرب ، فاصحابنا شعراء هذه الحقبة ، وبخاصة الشدياق والشيخ ناصيف قد زيّنوا نحور الملوك والسلاطين والأباطرة بعقود شعرهم الضادي . فاز الشدياق بالحظوة والجوائز الضخمة ، اما ناصيف فناجاهم من بعيد . ان شعر هذين الشاعرين مختلف جداً ، نفَسا وتعبيرا وتفكيرا ولغة . الشدياق صلب وناصيف رخو ولكنه غير هشّ . وبعد فليس هنا موضع الكلام على شاعريتهما ، فلنقل كلمة في اسلوب الشيخ ناصيف :

قد يكون لمزاج ناصيف اكبر عمل في اخراج شعره على هذا النسق ، فهو في جميع اغراضه يمشي على مهل ، وفي التاني السلامة .

اجزل الله اجره . لقد عمل جهده في زمن كانت روح الشعر فيه تنازع ، فحسبه انه كان خير شعراء زمانه تقليدا ، فالتجديد في ذلك الزمان ، لم يكن في الحساب .

(١) يريد : انك عار قد خلقت، على ان عار خبر ان ولكن هذا تعسف شنيع .

الشعراء العلماء

الشيخان : الاحدب والاسير

●

عاشا صديقين، وكأنهما كانا على موعد فلحق الاحدب بصفيّه الأسير بعد اشهر.
فالشيخ ابرهيم الاحدب، طرابلسي المنشا والمربى، دب ودرج على موسيقى نهر (بو علي) الثرثار، وعلق بنفسه اريج بساتين الفيحاء. اعطته واعطاها فرد اليها الكيل كيلين، وعرف بها وعرفت به حقبة من الزمن. كان لجمال طبيعتها يد في طبعه على حب الجمال، فاستيقظت فيه قريحة الشاعر العجيبة فارسل الشعر عفو الطبع، وهو لو شاء ان يكون حديثه كلاماً منظوماً لاستطاع. كذا قالوا، ولكنه قول يصدق فيمن بلغ مجموع ما نظم ثمانين الف بيت، وكلها من الكلام الذي لا غبار عليه.

نشأ الاحدب في وكنات الكتّاب، وما كان اكثرها في طرابلس، واخذ لغة الضاد عن شيوخ زمانه. حفظ كتاب الله فاولى كلامه مسحة رائعة من جمال البيان والبديع. وتبحر في العلوم الدينية واللسانية، فصار حجة جيله في الفقه والتأويل والاحاديث المسندة، وكان له القول الفصل حين تختلف الاراء في الفرائض فيأخذ الميراث من يستحقه.

وكأنّ طرابلس قد ضاقت على الشيخ، فرحل الى عاصمة الخلافة فاحله علماؤها صدور مجالسهم. ثم زار مصر فلقي فيها الحفاوة والاحترام. ثم قفل الى بيروت فكان محله من الادباء والمتادبين محل القطب من الرحى، فخدم الوطن والآداب بين علم وهذب وثقف، وبما الف وانشأ وصنف من كتب جليلة كانت زاوية ضخمة في صرح النهضة الحديثة. واذا كان لا بد لكل قرن من ثالوث، تبعاً للتقسيم التقليدي، فالشدياق والاحدب والاسير هم ثالوث الفصحى في القرن التاسع عشر.

اخرج الاحدب ثلاثة دواوين من الشعر، وثمانين مقامة نحا فيها نحو الحريري،

فلم يقصر عنه بلاغة وصحة تعبير . وبارى الزمخشريّ في كتابه (فرائد الاطواق في اجياد محاسن الاخلاق) فبزه او كاد ، وجارى ابن مالك ، ولكن في غير نظم النحو والصرف ، فنظم ببيان مشرق الديباجة « امثال الميداني » فجاء كتابه انيق النظم والطبع . اخرجته المطبعة اليسوعية بحلة قشيبة ، فكان آية من آيات الطباعة في ذاك الزمان وهذا العصر .

وكأني بثقافة الشيخ العربية قد دفعته الى احياء آثار السلف ، فعمد الى تحقيق وشرح رسائل بديع الزمان في كتاب سماه (كشف المعاني والبيان) فكشفت لنا حواشي الشيخ ابرهيم عن ادب وظرف فيما حشى وعلق ، فصار الكتاب كتابين ، وكثيراً ما يحدث هذا حين تتقارب الشخصيتان .

لم تكن في ذلك الزمان سوق تنفق فيها بضاعة الشعراء ، فحدث ما يحدث عادة في القرى النائية حين تهجم علينا الاثمار هجوم المستميت ، فنحتار كيف نصرف وفودها المتدفقة فنعمد الى تهاديها . وهذا ما اصاب ادباء القرن التاسع عشر فمدح بعضهم بعضا ، وهكذا خلقوا نوعاً جديداً سموه (المراسلات) وما هو الا مدح شاعر لشاعر ، كما مر ، فكان لشيخنا الاحدب في هذا الباب جولات عديدة . راسل شعراء عصره فاطراهم وأطروه ، وحكّ لهم وحكوا له . هاك ما كانوا يسمونه مراسلة ، ثم قل لي بعدئذ اذا كان المتنبي وغيره قد بالغوا في المدح اكثر من هؤلاء . قال الاحدب مخاطبا الشيخ ناصيف اليازجي حين أهدى اليه مجمع البحرين ، فابتدا بالغزل كعادة الشعراء في ذلك الزمان ، الى ان قال مقرظاً :

أبدى (الحريري) على خده (مقامةً) تنسي (بديع الزمان)
اقلامه في الطرس تبدي لنا أغصان روض ، او فروع القيان
فقل علاه (مبتدا) في الورى من غير (اخبار) ودع ذكر (كان)
(والفرق دانٍ) انه في العلى يقصر عن ادراكه (الفرقدان)

فانتفض ناصيف للاجابة مبتدئا بالغزل ايضا حتى قال :

في خدها نار المجوس التي قام لديها الخال كالموبذان
او (نار ابرهيم) مشبوبة في مهج الحساد ذات الدخان

هـذا (خليل الله) والناس في الدين وفي الدنيـا فنعم القران
الشاعـر الواري الزناد الذي تحكي قوافيـه عقود الجمان
ينسي جريراً نظم ابياتـــه ونثره ينسي بديع الزمان
يا خـير من صام وصلى ومن قام خطيبا وارتدى الطيلسان

وهكذا قعـد شعراؤنا يتسلون بالترمس الأحلى من اللوز . . . ولكن الشيخ الاحدب لم يكن وكده هذا النوع من الشعر ، بل كان يتطلع دائما الى (الجديد) ولن لم يدركه اهل زمانه ، فلانهم كانوا يدورون على قطب واحد من انفسهم .

كان مارون النقاش أول من الف في الفن المسرحي بلغة الضاد – كما سيأتي – فاعجب ذلك اهل عصره فوقف الشعراء يتفرجون . اما ابرهيم الاحدب فأقدم ولم يقف . نظم مسرحية مدرسية مؤلفة من ثلاثة فصول ضمنها الكثير من الفوائـد ، وقد طبعت عام١٢٨٥ وهي تبتديء هكذا: يقف المؤلف ملخصاً موضوع مسرحيته، ثم يرفع الستار فيظهر اثنا عشر ولداً يتحاورون بمـــا يلائم سنهم ،وتمشي الرواية .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد الاولي بل تجاوزه الى تأليف مسرحية أدبيـــة موضوعها ابن زيدون وصاحبته ولادة ، وهي خليط من شعر ونثر مسجع .

اما قريحة الشيخ السيالة فكانت كنهر بو علي الذي نشأ على ضفتيه كما قلنـــا . حدّث الرواة عنه : انه كان يملي مـا يقترح عليه القول فيه بلا توقف . وكثيرا ما كان ينظم القصيدة الطويلة ويرتجل الرسالة او الخطبـة في اي موضوع كان ، فيبرز ذلك تاما صحيحا بلا تكلف .

اما كتابه النفيس (فرائد اللال في مجمع الامثال) فرفعه هديـةً الى السلطان عبد الحميد ، وقد افتتحه كابن مالك في ألفيته . قال ابن مالك :

قـال محمد هو ابن مالك أحمد ربي اللهَ خيرَ مالك

وقال شيخنا :

يقول ابرهيم وهو ابن علي اسير ذنبه طليق الأمـــل

ثم يتخلص الى مدح السلطان فيقول :

فالقصد فيه عزّ كل مصر عبد الحميد روح هذا العصر

ظلُّ الالهِ الوارف الظليلا   من لم نجــد لعزه مثيــلا

اما الكتاب فهذا نموذج منه ، والذي اضعه هنا بين هلالين ، قد اخرجته المطبعة بالحبر الاحمر ، للدلالة على ان الامثال ، حتى في الشعر ، لا تتغير عن مواردها :

دع طمعاً يوقــع في مــاثم   (إنّ الشقيّ وافدُ البراجم)
وصن اموراً ذو الحجى واراها   (ان ورا الأكمة ما وراها)
لا تخل بالمرأة ، واحذر التهم   (ان النسا لحم يرى على وَضم)
عـلى الفتى من نفسه دليــل   (ان الغنيّ ذيله طويــل)
(عن مهجتي) هذا الشقي (أجاحش)   فـــانه قـد جـاء وهو فاحش

ثم يختم هذا الكتاب القيّم الضخم بنبذ منظومة من حديث النبي الكريم، وكلام الخلفاء الراشدين وغيرهم .

وللشيخ ايضاً نظم فتاوى شعرية ، وله ديوان مديـــح لم يغفل فيه عن نظم الموشحات . لقد عرفت شيئاً من شعره التعليمي ، ولعلك رأيت فيه شيئاً لم تألفه ، لانك منه كمن يتفرّس في متحف فيقع نظره على ازياء يستغربها او ينفر منها، ولهذا احبّ ان تسمع شيئاً ، من ديوانه (النفح المسكي في الشعر البيروتي) قال متغزلاً :

من لي بعطارٍ أراني شامة   سوداء فوق الوجنة الحمراء
امسى يبيع ويشتري أهل الهوى   في سوقـــه بالحبّة السوداء

وقال في آخر :

خزنت بمـــالك لحظه جنّاته   أيكون مالك خازن الجنات
كلي عيون ان تجلى وجهه   فلذا اراه من جميع جهاتي

وقال ايضاً :

عرجتُ في الحب ولهاناً على رشأ   ما شأنه بين ارباب الغرام عَرَج
نبيُّ عشقٍ لعشاق الجمـــال اتى   لذاك فوق سماء الحسن منه عرج

وللشيخ ايضاً (تواريخ) والغاز شعرية كما كانوا ينظمون في تلك الايام .

وكأني اسمع من يقول لي : واين هذا من غزل اليوم ؟ فالى هذا اقول : لكل زمان رجال ، ويا ويل الامة اذا كان الابناء والاحفاد دون الآباء والاجداد .

فحسبُ الشيخ انه اسمعنا كلاماً فصيحاً في عهد كانت العجمة فيه تسوق الناس بعصاها . لقد عمل ما عليه ، فلنعمل ما علينا .

اما الشيخ يوسف الاسير فولد في حجر بساتين صيدا ، ثم انتقل الى دمشق حيث أتمّ دروسه الاولية ، ورحل الى مصر للتفقه في العلوم العقلية والنقلية وعـــاد من الازهر بعد سنين فكان شاعراً وشيخ علم اكثر منه مؤلفاً ومصنفاً . شارك في بنيان هذه النهضة بتعليم الكثيرين الفقه وغير ذلك من العلوم ، اما تآليفه فاكثرها في العلوم وقد عرفت من تصفحي ديوان الانسي ان للشيخ مسرحية عنوانها (سيف الافكار) .

كان شيخنا خفيف الروح ، يستطرف مجلسه ويستظرف . وكان شاعراً كالاحدب وان لم تكن له غزارة مادته . شعره رائق فصيح ، اكثره مدح حتى يكاد يكون ربع ديوانه في مدح صديقه احمد فارس . وللشيخ في النقد اشياء طريفة كتبها يوم دارت رحى المعركة الادبية بين الشدياق واليازجي والبستاني ، فجلى الشيخ يوسف في ذلك المضمار منتصراً لحليفه الشدياق ، وان كان الشيخ ناصيف قد امتدح ديوانه « الروض الأريض » قائلاً :

أسير الحقّ في حـكم تساوى | فما يدرى الحبيب من البغيض
إمـــام الشعر يبتدع القوافي | ويأمنُ دونها حَوَلَ القريض
اصار ليوسفٍ ببيروتَ مصراً | تدفقُ بحرِ عـــلمٍ مستفيض
يقـلّ له الثناء ولو أخـــذنا | قوافيه من (الروض الاريض)

وكاني بك تقول لي : والشيخ يوسف شاعر ايضاً ؟ نعم يا سيدي ، فقلما تجد واحداً من هؤلاء الجهابذة لم يقل الشعر . ناهيك ان الشيخ يوسف الاسير شاعر مجيد وفي ديوانه القصائد والموشحات والمقطعات الحكمية ، وهاك شيئاً مما قاله في شعراء عصره :

خليليّ كم قد جدّ في الناس شاعر | وليس له بيتٌ من الشعر عـامرُ
وأحسن شعر ما تراه مهذّبـــاً | بليغاً بـه يلتذ بـــادٍ وحاضرُ
به تطرب الأسماعُ من كل منشدٍ | وتجري به الأمثال وهي سوائر

وللشيخ الاسير ابيات في وصف لبنان ونهضته الحديثة، بعد مذابح سنة ١٨٦٠

التي عقبها ما كان يعدّ استقلالاً في ذلك الزمان :

ترى لبنان أهــلًا للتهاني فقد نال الامان مع الأماني
وأضحى جنّةً من حلّ فيه قريرُ العين مسرورُ الجنان
وجدّتْ للعلوم به دروس وكانت في الدروس وفي التواني
وللأخبارِ قـد وجدت سلوكٌ[1] كذلك طبع ذي الصحف الحسان

وللشيخ ايضاً رسائل نثرية وشعرية ، وتلك خطة كان لا بد للاديب من ركوبها في ذلك لزمان .

عمر الانسي

قال شيخو : « ولما كانت مصر تفتخر بطهطاويها ، والعراق بأخرسها ، كانت بيروت تأنس بأنسيها . قلدته الحكومة السنية عـدة مناصب كنظارة النفوس في لبنان ، وعضوية مجلس بيروت ، ومديرية حيفا ، ونيابة صور فتقلب فيها كلها واظهر فيها دراية وعفة نفس وعلو همة [2] . »

ويقول جامع ديوانه ، وهو ابنه الدكتور عبد الرحمن ، انه جمع من ديوان ابيه ما عثر عليه ، وبعد ان نقحه ما استطاع رتبه على حروف الهجاء تاركا ما كان في الهزل إلا ما نزر من الملح جلباً للأنس وترويحا للنفس [3] .

فليت الدكتور ترك لنا ديوان ابيه بعفشه ونفشه لتبدو لنا نفس الشاعر المرحة كما خلقت . فلولا التورك والشدياق لم تَبِنْ للادب سنٌ في هذا العصر ، حتى خلنا ان الضحك محرمٌ على هؤلاء. ان شعر الانسي رصين التعبير ، بريء من الركاكة . قال الشعر المدحي مثل معاصريه مهتديا بالصناعـــة اللفظية التي كانت نجمة قطب الشعراء . قال كرامة قصيدته الخالية ، فقال الانسي قصيدة اطول منهـــا قافيتها لفظة (العين) وهي في مدح الامير امين ارسلان ، وهذا مطلعها :

خذي من ودادي العين يا قرّة العينِ ومن عبد عينٍ ما رأى منك من عينِ

---

(١) يقصد الاسلاك التلغرافية ، والجرائد .

(٢) شيخو . الاداب العربية في القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١١ .

(٣) المورد العذب ص ٣

ولا تبعديني عمـــدَ عينٍ ، فتشمتي وشاتي ، وتغري في الملامة بي عيني

ثم يطلع الانسي علينا بمعجزة لفظية جديدة فيقول قصيدة من أبحرٍ متعددة ، وقواف مختلفة ننقل منها مطلعها :

يا للهوى من لصبّ لم ينل اربا عطفاً على مستهام رق وانتحبا

ولك ان تقول في الصدر : (املا) او (وطرا) بدلا من (اربا) . انك تجد القوافي مهيأة أمامك طيعة للسانك ، فاختر ما تريد . وهكذا تصير هـذه القصيدة الطويلة مثلثة القافية متعددة الاوزان ، فحكم ذوقك واقرأ ... واذا اردت حسابا أدقّ من حسابي هذا فراجع مشاهير القرن التاسع عشر،[1] تعلم ان هذه القصيدة تستحيل تسع عشرة قصيدة واكثر ، وتقر معي ان عصر النهضة هو عصر المعجزات .

ليس هذا ما يعنيني من الانسي فهو في كل ذلك كغيره من الرواد . ولكن شيئا لم يبد له اثر في شعر هؤلاء قد رأينا اثره واضحا جليا في شعر الانسي ،فلو أبقاه لنـــا ولده لعثرنا على كنز من الهجاء جزيل . فالانسي هجّاء روّاد هذه الحقبة ، ولعله هو الذي اوحى ما قيل في الشاعر الياس صالح كما سيرد في حينه . قـــال الانسي في قهوجي اسمه هلال :

تعس الهـلال القهوجيُّ لانـــه قد قطّع الانفاس من (انفاسه)[2]
هـذا الهلال هو الهلاك ، وانمـــا غلطوا ولم يضعوا العصا في راسه

كان شيخنا يدخّــن النارجيلة كما يستدل من بيته الاول ، والمولع بها يولـــع طبعاً بالقهوة حتى يرى اساءة طبخها والبخل بالبن كفراً لا غفران له ، ولهـذا قال الأنسي يهجو قهوة احدهم :

سحقاً لقهوة من امسى يجود لنا بقهوة من سحيق الفحم سوداءِ
سوداء صفراء ، يبدو من فواقعها ريحٌ يهيّج سودائي وصفرائي
ما خلت من باسط كفًا ليشربها الا كباسط كفّيه الى المـــاء

وقال في اقرع :

---

(١) جزء ٢ ص ٢٦٣ ، الطبعة الثالثة .
(٢) بريد ما يسمونه (نفس) الاركيلة .

رأيتُ أقيرعاً في الرأس منه عجيب بات يخفيه ويبـــدي
يغطيه فيستر سلح هـــرٍ ويكشفه فيظهر إست قرد

ومما قاله في هجو بيت وصاحبه وهي طويلة جداً ، مع ان ابنه يقول : حذفت منها جملة ابيات :

حتى وصلت لداره ، لا حيّيتَ طللاً ، ولا رحبت فناً ومعرّسا
فنظرت بيتاً لا أشكُّ بانــــه بيت الخلاء لمن يريـــد تنفسا
تتسابق الجرذان في عرصاتـــه زمراً تنوّع جيشهـــا وتجنسا
وبه العناكب طالما قد خيَّمت او طنبت حـتى تستر واكتسى
بيت تجاوره القبور وما بـــه من يستحق اذا قضى ان يرمسا
فيـه الذباب تنوّعت ألوانـــه ملأ الفضا لو رام ان يتشمّسا

وبعد ان قلب ذلك الرجل على نار هجائه حتى صار كسفّود النابغة ، ختم كلامه بقوله له :

كلفتني نظم الهجـاءِ ولم يكن دأبي ، ولكن الأسى لا ينتسى
ولقـد أتتك فريـدة لو شابهـا ابليس يا ابن الارذلـين تبلّسا
قابلت طولـك يا بليد بطولهـا بل ليس موضوع هناك فيعكسا
وتعجرفت ألفاظهـــا بمعجرف فهي العملّس حيث كنت غملسا
لكن معناهـا أرق من الصبـا لطفاً لدى من بالقريض استأنسا

لقد صدق الشيخ في وصف قصيدته ، ففيها الكثير من الالفاظ الغريبة الخشنة ، ولهذا قدّم احسن العذر بين يديها ، فكأنه ابن الرومي حين اعتذر لصاحب المهرجان ، عن خفة الاوزان باشرف المعاني .

ونلحق بهذا الباب من شعره بعض ابيات من قصيدة قالها في رثاء برذون :

كديش كان ذا صبر اذا ما رماه الجوع بالامر العسيرِ
وكان اذا ألمّ بـه اضطرار لاجل التبن يقنع باليسير
وكان يودّ لو في العمر يوماً رأى في نومه طيف الشعير
توفي وهو في ضنك ينادي : أليس لمستجيرٍ من مجـير

رمته يد الخطوب فصيرتـه طعاماً لـلوحوش وللطيور
فيا أسفي ويا كدري وحزني على عنقٍ حكى عنق البعير
ويا اسفي على كرشٍ عريضٍ رمته يـد المجاعـة بالضمور
فكم سوطٍ له صوتٌ عليـه وندب في الاصائل والبكور
وأقلام العصيّ لهـــا صرير بطرس أديمه فوق السطور
لقد نشبت مخالبها المنـــايا به فرأى الحياة من الغرور
وقد اوصى لصاحبـــه برحلٍ وجلٍّ أخلقته يـد الدهور
واوصى بالحزام له ولكن ليلبس كالوشاح على الخصور
وأوصى بالزمام وكان ممن يرى حفظ الذمام الى العشير

قلنا ان شيخنا كان يدخن النارجيلة ، وها نحن نقرأ خمسة أبيات قالها بلسانهـا فنكتفي بثلاثة منها للدلالة على ابداعه :

قالوا تحمّلتِ نيراناً فقلتُ لهم : النار في حبّ من أهوى ولا العار
شُهِرتُ حتى غدت تعشو السراة الى ناري ، ولي بتزيـد الفضل آثـار
فها انا مثل (صخر) حين قيل به : كأنه عَـلم في رأسه نـارُ

كان مجلس الشيخ الأنسي ، كما ارى في شعره ، مجلساً حافلاً بالأنس ، تستهوي صاحبه الطرافة فيصفها بكل طريف : فاقرأ هذين البيتين من قصيدة بين بين في الطول بنى (عروضها) على السين ، و(ضربها) على الثاء ، لتكون محاورة طريفة بينـه وبين ألثغ اسمه سليم . قال الشاعر :

اقول له : يا بـدر مالك عابساً ! ! يقول دلالا : انـي بك عابث
فقلت : وما للطرف اصبح ناعسا ! فقال هو الفتّان للعقـل ناعث

ثم يمضي في هذه القصيدة بين قلت وقال ويقول ، حتى يقول عشرين بيتاً مطبوعة على هذا الغرار ، وأظنه مبتدعاً في هذا غير متبع احداً . اما في الغزل فله تفنن قصصي من نوع آخر . قال :

لثمت يد المحبوب يوماً فقال لي على خجلٍ : جوشيت يا علمَ المجد
مقامك أعلى ان أراك مقبـلا بجسمي غير الجيد ، والثغر ، والخدّ

فقلت ارى إحيـاء نفسي بقبـلةٍ | برجلك اولى من هلاك اخي الوجد
وما انت الا كعبة الحسن حيثما | لثمتك نلت الاجر يا غاية القصد
فأعجب حتى قال : سبحان من برى | لنا دولةً مولاي اضحى بها عبدي

وللشيخ احاجي كما لشعراء زمانه ، وله غير ديوانه الشعري رواية تمثيلية عنوانها (كشف الظنون عما جرى بين الامين والمأمون) دلنا عليها ذكره لها في ديوانه .

هذا هو الرائد الأنسي الذي ابتسم معه الشعر في القرن التاسع عشر، كما ضحك مع الترك قبله .

القاسم الكستي

كل هؤلاء الرواد من الملتين ان لم يكونوا تلاميذ (مدرسة تحت السنديانة) فهم تلاميذ مدرسة تشبهها ، فــلا حاجة الى التكرار والمراجعة . والشيخ الكستي ، كفطاحل زمانه ، شاعر له ديوانان : مرآة الغريبة ، وترجمان الافكار ، وله ايضاً رواية تمثيلية عنوانها (حكمة الافكار) يدلنا عليها تقريظ لها في ديوان الأنسي .

وللشيخ الكستي اراجيز طويلة اشهرها مقصورة كأنه يعارض بهــا المقصورة الدريدية في حكمها . والكستي يجاري صديقه الأنسي في مواضيعه،فيقول ارجوزة فكاهية في وصف الملوخية ، منها :

خيوطهــا بيضاء كاللجين | تظهر كالصبح لذي عينين
لو انهــا قد نبتت في اللدّ | يشمُّها من في بـلاد الهند
ان ملئت بها بطون القصعِ | تشرقها الابصار قبل البلع
ترى عليها كثرة الملاعق | تقرع بالاسنان كالصواعق
كانت للقمان الحكيم مأكلا | وجوفه لهـا استقر منزلا
وكان يوصي سائر الأطبّا | بقراطُ ان يستعملوها شربا
كذا ابن سينا قال في القانون | لا تبخلوا بها عـلى البطون
وخصها بالذكر افلاطونُ | وقال منها يصنع المعجون

وكما بارى الأنسيُّ ابنَ الرومي في الهجاء ، رأينا شيخنا الكستي يباريه في وصف

المآكل ، ثم يتفق مع الأنسي في رثاء العجماوات ، ولكنه لا يرثي كديشاً بل كناراً ، ولا يهجو صاحبه كالأنسيّ بل يعزّيه ، وهاك بعض ما قال :

يا صاحبي عزّيت بالكنار ... فانه من أحسن الاطيار
ماماتَ من جوعٍ ولا من قلّهْ ... لكن رماه ريشه بعلّهْ
عليه لا تحزنْ وكن صبورا ... والتزم الشكر تكن مأجورا
لو كان يفدى بالنفيس الغالي ... فديته من طارق الليالي
لكن اذا ما حدثُ الموت نزلْ ... لا ينفع الحزم ، ولا تغني الحيل
عوّضك الرحمن عنه طيرا ... يكون بالتغريد منه خيرا

ويصف شكل ذلك الكنار فيقول :

ذو ذنب فاق ، ولله العجب ، ... على اللجين وهو بالحسن ذهب
مزيّنٌ بالتاج كالطاووسِ ... ملوّن الرداء كالعروس
لله حسنُ ذلك المنقار ... من ذهب قد صيغ لا من قارِ
قد كان في الدنيا من الزهاد ... ملازم الخلود بانفراد
وعاش محبوساً ولم يشك الضجر ... حتى أباده القضاء والقدر
فانني أهدي اليهِ الفاتحه ... وان يكن من الطيور الصادحه

اشهد انني شممت رائحة شعراء (يتيمة الدهر) في هذا القريض ، رحم الله من قاله .

محمود قبادو والدحداح

رشيد الدحداح رائد هاجر فأفاد الادب من هجرته . كان كاتباً شاعراً من طراز معاصريه فصار كاتب سر الامير أمين ابن الأمير بشير ، ثم هاجر فاستحال تاجراً في مرسيلية ، وادركته حرفة الادب كهلاً فأنشأ جريدة برجيس باريس . ونشر معجم المطران جرمانوس بعدما اصلح ما افسدته فيه يد النساخ . ثم نشر ايضاً شرحي ديوان ابن الفارض للشيخين الصوفيين البوريني والنابلسي ، وهو اول من نشر بالطبع كتاب فقه اللغة ، وله كتاب قمطرة طوامير مع كتب اخرى .

ومتى ذكرت (القمطرة) تداعت الافكار فذكرنا اسم السيد محمود قبّادو

التونسي صديق الدحداح الذي نشر له في القمطرة تصديره وتشطيره — ارتجالا — القصيدة المنسوبة لبشر بن عوانة : أفاطم لو شهدت ببطن خبتٍ .

لقد احسن الكونت رشيد الدحداح تقديم صديقه الشيخ محمود الى القراء قبل نشر التصدير والتشطير . ليست القمطرة عندي لأنقل تلك المحاورة الطريفة، ولكني اذكر العبارة التي اعتذر بها قبّادو عن ركوب هذا المركب الخشن . قال قبادو : قريحتي صدئت ، فأجابه الدحداح : اجْلها بالنظم ، فقال : اكتب اذن على خيرة الله . ثم كان ذاك التشطير فتكافأ الشاعران قبادو وابن عوانة ، وزاد عليه رائد النهضة تصديره الجميل . والناس يذكرون عن قوة ذاكرة قبادو مثل ما ذكروا عن ابي العلاء .

ولهذا الشيخ ديوان كبير جمعه تلميذه في جزئين . وهو من اصحاب (المعجزات التاريخية) وقد فاتنا ان نشير اليه مع اصحاب تلك الخوارق ، في مقال (التأريخ الشعري) .

يوسف الشلفون

رائد متسلسل من جدٍّ حكم ساحل لبنان تحت ولاية الامير بشير ، وقد اصدر اربع صحف : الزهرة ، والنحلة ، والنجاح ، والتقدم ، بالاشتراك مع المطران الدبس ، ثم اسحق ، وصابونجي . وأنشأ المطبعة الكلية .

له ديوان عنوانه (انيس الجليس) قال اكثره في مدح ذوي السلطان ، وكبار أولي الامر في زمانه ، وقد (راسل) ادباء وشعراء عصره . امـا غزله فاراه يقلد فيه معاصره الشاعر خليل الخوري ، فهو يقول مثله ، وان قصر عنه في الابداع .

هي العيون وان تسأل هي الاجل ... لم تُبقِ صَباً وما في قلبه وجل
يا دولة حاجباهـا ناظران لهـا ... قرّت لسطوتك الايام والدول

ويذكر لبنان مثل خليل ، ولكنه لا يبلغ شأوه في وصفه ، ولا بدع ، في تقصيره فقد كان ، اولا ، عاملاً في مطبعة الخليل كمنضد حروف ومصحح مسودات .

وقد حاول كغيره من (الرواد) اجتراح العجائب البيانية فنظم قصيدة تقرأ من الكامل ومجزوئه ، وله ايضاً موشحات . وقد نظم (تواريخ) من ذوات الطلق الواحد ...!!

فجر التجديد

خليل الخوري

•

هو اول رواد التجديد، وقد تناساه الناس كما تناسوا سواه من السلف الصالح. ليس الادباء باقل بأسا من الملوك الذين اعتادوا هدم آثار من سبقوهم ليبنوا بحجارتها قصوراً يحملونها اسمهم زورا. فلو كان للشدياق والخوري اسباط لما اهملهما لبنان هذا الاهمال المخزي. ولما اسودّت وجوه عند ذكر الاول منهما.

يقول لك بعضنا اليوم: ماذا عمل عمرو، واي أثر يؤبه له تركه زيد؟ ماذا عمل هؤلاء الذين تعدُّهم لنعتدَّ بهم؟!

صَهٍ‌نْ، ايها المغرور الاحمق. اما ترك لك ابوك وجدك بيتاً كان معدودا في زمانه، فماذا تطلب منه اكثر؟ افتح انت باباً، بل شبّاكا، بل طاقة في ذلك البيت، ثم عد الى اللوم والنعي. ضع فيه على الاقل حجرا يبقى ان كنت ذلك الرجل. زد على قامة بيت الامة الادبي ولو شعرة ثم قل ما شئت.

يظن من أعمى أعينهم الغرور انه لم يفكر احد قبلنا في انعاش الادب ونفخ الروح فيه، فيرون أن كلماتهم الملفّقة خلقت الادب العربي خلقاً جديدا، وان من سبقوهم لا يستحقون ان يحلوا سير حذاء زارتوسترا، كما قال نيتشه، يوم كان مجنونا غير مشهور...

قالوا «لكل عصر رجال» والقول حق، فالذين مرّوا على الطريق قبلنا عملوا ما عليهم، فما علينا نحن إلا الاعتراف بذلك تشجيعا لسواهم من العاملين اليوم، اقول هذا بمناسبة الكلام عن الشاعر خليل الخوري ابي الجريدة العربية الاهلية.

ولد خليل في الشويفات عام ١٨٣٦، وتلقى العلوم في مدارس زمانه، ثم على اساتذة خصوصيين. قال الشعر فكان طريقه الى ابواب الولاة، فمكنوه من اصدار

اول صحيفة عربية اهلية هي حديقة الاخبار ، ثم احدث الى جانبها مطبعة تطبعها سماها المطبعة السورية .

طرب المعلم بطرس البستاني الاول لصدور هذه الجريدة ومطبعتها ، فقال في خطابه (آداب العرب) الذي ألقاه عام ١٨٥٩ في الخامس عشر من شباط :

« ومما لا يشوبه ريب ان الجرنالات من اكبر الوسائط لتمدن الجمهور ، وزيادة عدد القراء اذا استعملت على حقها . والامل ان هذه الفتاة — المطبعة السورية لحديقة الاخبار — التي هي أول مطبعة عربية خصّصت بالجرنالات تتقوّى ، وان اتعاب مالكها ومديرها العزيز خليل افندي الخوري تكلل بالنجاح ، فيخلد ذكره عند ابناء الوطن كفاتح لهذا الحصن الحصين الذي غفل المتقدّمون عن فوائده. وكأني به واقفاً على شاطيء البحر الكبير الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد ، يستشرف تارةً على الجديد ويلحظ اخرى الى القديم ، ولدى انتشار ديوانه الموسوم (بالعصر الجديد) الذي افرغ فيه الشعر القديم في قالب جديد يتضح المعنى المقصود [1] »

أشاد البستاني بذكر خليل الخوري ودل على فضله الاسبق في حقلي الصحافة والشعر ، وترجى له خلود الذكر كفاتح ادبي ، ولكن الخليل خلد في شعره لا في نثر جريدته ، وقد كان في استطاعته ذلك لانه لم يكن في الشرق يومئذ الا الصحف الحكومية ، ولكن سياسة ارضاء الدولة العلية كانت اقصى امانيه ، فرتع في النعم الشاهانية ، وتقلب في مناصب عديدة محترمة ، ونال اوسمة كثيرة من الاستانة وغيرها من العواصم .

لم يبرز خليل في النثر لانه لم ينصرف اليه ، فهو شاعر اولاً ، بل لا يعنيه الا الشعر الذي كان سلمه الى المناصب. ومن عثر على دواوينه العديدة النادرة الوجود واجال فيها نظره رأى في : زهر الربى في شعر الصبا ، والعصر الجديد ، والنشائد الفؤادية ، والسمير الامين ، والشاديات ، والنفحات ، مدحاً كثيراً لرجال الدولة وغيرهم .

اما ما يعنينا نحن ، اليوم ، فهو التجديد الذي أشار اليه المعلم الاكبر بطرس

(١) مجالي الغرر ليوسف صفير طبعة ١٨٩٨ ص ٤٠

البستاني ، والذي قال ناصيف اليازجي في مدح قائله :

يا هلالاً قـــد أرانا في الدجى وجهاً جميلا
سوف نلقى منك بدراً كاملاً يُدعى (خليلا)

وعندما بزغ فجر القرن العشرين كنا لم نزل على مقاعد المدرسة ، نسمع الجديد ولا نراه الا في شعر اثنين : خليل الخوري وفرنسيس مراش . فالمراش ، وهو المقتفي آثار خليل الخوري في ديوانه (العصر الجديد) ، سوف نصف آثاره البديعة على ما فيها من ضعف لغوي . اما خليل الخوري فهو أسبق وأظرف وأمتن عبارة، والطف اسلوباً . انه ، بلا منازع ، اول من افرغ الشعر القديم في قالب جديد . امده في ذلك خياله الخصب فخلق صوراً رائعة . ثم ظل ذلك السراج الوهاج يرسل نوره حتى انطفأ عام ١٩٠٧ في ٢٦ تشرين الاول .

امتدح البستاني ديوان العصر الجديد ، فماذا في هذا الديوان الذي أطريناه نعتاً؟ كان يقال الشعر قبله اما حكمة ، واما زهداً ، واكثره كان مديحاً ورثاء ، فلم يترك خليل الخوري المديح ، ولكنه فعل ما لم يفعله غيره من قبل ، فقال القصائد الطريفة في مواضيع مستقلة ، واذا لم يبلغ فيها شأو الشعراء العظام فصاحة وبلاغة ، فحسبه انه كان رائد الجديد الاول في ابداعه .

في ديوان العصر الجديد قصائد غراء اخرجت الشعر من الصيرة التي زرب فيها ادهاراً وعصوراً ، وان كان جـــله في مدح السلاطين العظام ، والوزراء الفخام ، والوجهاء الكرام . اعجب هذا الشعر أعلام ذلك الزمان لانه لم يكن للشعر العربي عهد به من قبل ، فاثنوا على قائله . واذا تصفحنا هذا الديوان برزت لنا قصيدة عنوانها (الغرام) ثم قصيدة (الخداع) التي منها هذا البيت :

ان ابتسام الثغر يذهب باطلاً ان كان قلبك عابساً لم يبسم

ثم (وداع الغرام) ، ولكن الشاعر لم يودّعه الا ليعود اليه في قصيدة (الفجر) لان العاشقين كما قال ابو نواس :

كأهل النار ان نضجت جلودٌ أعيدتْ للشقاء لهـــم جلودُ

فها هو الشاعر في قصيدة (زيارة الدجى) ينادي حبيبته :

قومي افتحي الباب غيري ليس يقرعه فانما خشية الاقدام تمنعه

ويظهر ان بيت هذه الفاتنة الحسناء كان على سِيف البحر ، فتامل كيف يغريها شاعرها بتلك الليلة الحلوة اذ يقول لها :

فاصغي به لحنين البحر منتحباً كأنه يشتكي بيناً يروّعه
والشطُّ مدَّ ذراعيهِ على ظمأ يعانق البحر والامواج تصفعه
تلقى على صخره الفضي موجته وتنثني بعدما بالقرب تطمعه
كغادةٍ صادفت محبوبها فغدت تدنو اليه دلالاً ثم تمنعه

ثم ينتقل الى وصف السفينة ويشبّه شراعها بالازار ، والى السماء ونجومها الغمّازة البسّامة راجياً ان تنشط تلك الحبيبة حين تسمع وصف هذا الجمال .

ولم يحرم الشاعر لبنان من قصيدة رائعة جسّدها خياله ، واروع ما فيها هذا البيت المبتكر في وصف الارز :

يا صفحةً بقيتْ لهذي الارض من أصل الكتاب تُرى بها الاسفار

الا ترى مثلي ان بيت شوقي :

هذا الأديم كتاب لا كفاء له رث الصحائف باق منه عنوان

ينظر الى بيت الخليل ؟ ثم يصف الشاعر عواصف الجبل المجنونة ، ويأتي على ذكر سوريا وصور وصيدا وبعلبك التي درس الكثير من معالم مجدها ليستطرد قائلا للبنان :

وبقيتَ وحدَك انت منتصباً على هام العظائم تحتك الأدهار
هل حلت عن قدم الثبات مشيعاً اذ اشغل الرومان عنك سفار
وهل ارتعدت مروعا لما سطا بالروم ذاك الصارم البتار

كأن شاعرنا قد نظر في الامس الى ما رأيناه نحن اول من امس . وفي هذا قال رئيس لبنان الشيخ بشاره الخوري ، في ختام احدى روائع خطبه : الحكومات تزول ، ويبقى لبنان .

ثم ينقلنا الشاعر الى قصيدة عنوانها (الاشتباك) فندعه وشانه لأنّ للمصلح ثلثي القتلة ... ويدهش البخار شاعرنا فيقول قصيدة عنوانها (معجزات العصر) يصف

فيها قدرة العقل البشري على الخلق. اما شعراء اليوم فيرون اكثر مما رأى الخليل فما يخفّ وقارهم كما خف وقاره ، ويظلون ساكتين لان الذهب خير من الفضة ...

قيل ان المنصور عندما مات ابنه طلب من ينشده: أَمِن المنون وريبها تتوجّع ، فلم يجد في حاشيته من يعرفها فقال : ان مصيبتي بابني أهون عليّ من هذه المصيبة . فالى شعراء اليوم نحوّل هذه الكلمة ليفكروا فيها .

ثم يأسف الشاعر لتأخر الشرق ، ولكنه يعود الى غزله فيقول قصيدة عنوانها (العهد) ، وأخرى عنوانها (البعاد) . ثم ينظم قصيدة طيبة عنوانها (الحلم) يهديها الى الخواجه اسكندر التويني ، الذي صار فيما بعد بمقام وزير الخارجية في عهد المتصرفية . ليس في هذه القصيدة شيء من المدح ، بل كلها غرام وعبرة ، وما للتويني فيها غير الاهداء . وهناك قصائد اخرى من هذا الطراز المعلم لا يتسع المجال للالمام بها . ويخص الشاعر (البدر) بقصيدة فيها التخيل والخلق الرائعان ، ويتبعها بقصيدة عنوانها (المحب المغدور) ، وليس هو اول سارٍ غرّه قمر . . . وبعد ان تاب توبة نصوحاً في هذه القصيدة سمع صوتاً ، فقال قصيدة عنوانها (اليقظة) وهذا مطلعها :

أصوتكِ ام صدى عـودٍ يعاد وانت ام الملاك له ارتيـاد

ثم ينثني فيقول قصيدة طويلة النفس كقصائد ابن الرومي يهديها الى التويني ايضاً ، ويخصه ببضعة ابيات في ختامها . ثم نظمَ في مدينة صور قصيدة طويلة ايضاً حتى قال بلسانها :

ما كان لي ابداً نظير في العلى والآن ما لي بالخراب نظير

هذا مؤسف ، والثابت وجه الله ، كما يقول اخواننا الدروز . ويصف ليلة في لبنان ، وما قصده فيها الا وصف لبنان الذي يذكر كل شيء من شؤون الامس الا عُباقرته .

لقد افضت في الكلام عن (العصر الجديد) لان فيه خيرات كثيرة ، فلنترك ، ولو قليلا ، لاحد دواوينه الاخر وعنوانه (الشاديات) فنخص بالذكر رائعة خالدة فاقت بخيالها العجيب (حديقة الشعر) لابن الرومي ، وأرتنا ان القائل : ما

ترك الاول للآخر ، قد كان واهماً . فمتى وجدت الارادة كان الابداع ، وها هو الخليل يقص علينا احسن القصص في قصيدة (الرمان والعناب) فتضج بالحياة التي لم نر لها اثواً في حديقة ابن الرومي ، قال :

ما بالُ صاحب ذا البستانِ قد علقا بوبة الحسن يبدي الغيظ والحنقا
ما باله انقض من هول الهموم على تلك الغزالة كالصياد وانطبقا
هيا اسرعوا لنرى ما ثار بينهما من الخصام الذي قد اوجب القلقا
أراه مشتبكاً معها بمعمعة كطالب الثأر للغارات قد سبقا
معلقاً برداهـا وهو يصرخ يا اهل الحمية ، ان الروض قد سرقا !
يا لصة غافلتني وهي مائسة بين الغصون تناجي الزهر والورقا
سرقت ويحك رماني ومنه لنـا قوت العيال الذي القى به الرمقا
وقد سرقتِ لي العناب معه وذي ايديك قد حملت من حبهِ طبقا

وكانت معركة كلامية حامية الوطيس بينهما ، وظل البستاني مصراً على ان الفتاة تخبيء رمانه في عبهـا ، وعبثاً حاولت الفتاة افهام مـن لا يفهم ، بل ظل يصيح :

ردي عليّ ثماري لست اتركها اولا فارجع مالي كيفما اتفقا

فغضبت الحسناء غضبة مضرية ، واحمرت وجنتاها من الغيظ ثم :

قالت له : ويكَ . لا تمدْ الي يداً اذا سرتْ نحوصدري كسرها سبقا

وبعد كدّ الذهن اهتدت تلك الحسناء الى برهان ذي حـدين فقالت للبستاني :

هل عندكِ الورد في البستان اسرقهُ صبحاً ، وأنشرْ منـه للملا عبقا ! ؟
فقال لا وردَ عندي والربيع مضى ومـا تريدين من وردٍ اذا سرقا !

فدلته على الورد – في خدها – فشده المغرور وفارقه ذلك العناد :

فقـال ويحي لا رّمان كان ولا عنّاب سبحان بارينا الذي خلقا ! !

اما الفتاة :

فاستضحكت ثم سارتْ وهي قائلة الحسن يدهش في انوارِه الحدقـا

والله ما سرّقت كفاي في زمني الا العقولَ وإلا القلب منسحقا

هذا هو شاعرنا واضع الحجر الاول في صرح تجديد الشعر المعاصر بعدما اقوى وطال عليه سالف الامد، قال اطرف شعره في منتصف القرن التاسع عشر، وظل يقول حتى مات في صبح القرن العشرين . وكيف يموت من تردّد له الالسن مثل هذا البيت :

هاتوا المطارق ان قلب حبيبتي امسى حديدا فاضربوا ليلين لي

فرنسيس مراش

كان فرنسيس المراش على قصر عمره زعيما ادبيا ترك دويا، ان لم يكن في الدنيا، كما اراده ابو الطيب المتنبي، فقد بلغ الفرات زئيره والنيلا . . . وكيف لا يسوغ لي ان استعير له وصف المتنبي لأسده وهو الذي اجترأ على نشد الحرية يوم كانت الافواه مكمومة، والخزامة في الانوف والشفاه . وسيأتيك الخبر حين نتكلم عن (غابة الحق) .

قلت انه زعيم ادبي قبل ان اعرفك به ، كما هي الخطة عند من يكتبون عن الادباء ، اظن انك تعرفني فمن طبعي ان اسير في الجاثي كما يشاء القلم فهو الذي يسيرني ولست انا الذي يسيره .

اما زعامة المراش الادبية ، على وهن عبارته ، فبرهاني الاول على اثباتها هو هذه الذكرى التي مرّ عليها نحو نصف قرن ، وهي تستحق احتفالا بيوبيلها الذهبي. كان ذلك عام الف وتسعماية ، وكان استاذ اللغة العربية يلقي علينا آخر درس من دروس ذلك العام ، فقال لنا في ختامه: التلميذ كالبيت يحتاج الى مؤونة، ومؤونة من كان مثلكم الكتب ، فاذا اردتم رسوخ القدم في الانشاء فاقرأوا نهج البلاغة ، والدرر لاديب اسحق ، وكشف المخبا ، وكنز الرغائب لاحمد فارس الشدياق ، ومشهد الاحوال ، وغابة الحق لفرنسيس المراش. المراش يا اولادي ، شاعر كاتب مجدد ، ولكي يهتدي الواحد منكم الى ذاته ويكوّن شخصيته يجب عليه ان يقرأ هذا وهذاك ، ومن قراءة الكتاب المختلفين تظهر الذات ، وما نفع كاتب او شاعر

بلا ذاتية .

انني اقف عند هـذا الحد من كلام استاذنا ، فقد كان وقت درسه ساعتين ، فودّعنا بالكثير من الوعظ لأنــه كان خائفا ان نضيّع في الصيف اللبن ، ونعود اليه وقد نسينا ما شقي هو في تلقيننا اياه من فرائد . تركنا المدرسة في العاشر من تموز ، وكدت لا اصدق انني اطللت على الضيعـة . تسعة اشهر ونصف مرت ولم أر لها صورة وجه . قل وصلنا بالسلامة ورأيناها ما زالت حيث كانت . . . وكما كانت ... فالقرى اشد محافظة من كل الذين يزعمون انهم محافظون .

وكانت السهرة في بيتنا تلك الليلة . اما في الليلة التالية فكانت في بيت عمّي لحاً ، فعمّي هـذا ذاهب الى بيروت ولم تكن الرحلة الى بيروت هينة في ذلك الزمان . سوف ينام الليلة القادمة في جونيه اذا عجّل ، ويتابع في الغد سيره الى بيروت التي لا يعود منها قبـل اسبوع . فالطريق وحدها تقتضيه اربعة ايام . تلطّف ذاك العمّ وسأل ابن اخيه عما يتمنى من (المدينــة) فاجبته على الفور : كتابين يا عمّي : مشهد الاحوال ، وغابة الحق .

وكان الوالد ينتظر ان اطلب من عمّي شيئا له قيمة وشأن . فهز برأسه كعادته في تلك المواقف الحرجة وقال : غابة وحق يا صبي !! الحق ضائع في العلالي والقصور فمن يجده في الاحراش !! أما العمّ فرأى أخاه غير مصيب ، طبعا ، لان الطلب هيّن ، فانزله حالاً في دفتره ذي الغـلاف الاسود اللامع . وسكت الوالد ، وسكتُ انا ، اما العم فقال : اين ألاقيه ؟

— في المكتبة العمومية لأبرهيم صادر وأولاده .

فاجاب ، وهو يزجّ دفتره في عبه : عرفته .

وبعد العود الميمون من تلك الرحلة السندبادية جاءَ الكتابان وغرقت فيهما الى اذنيّ ، وقرأت لوناً جديداً وذكرت معلمي الجليل بالخير .

ففرنسيس مراش حلبي ، وعن حلب الشهباء اخذ لبنان لغة الضاد ، واعطاها ما عرفه في القرن السابع عشر من لغات اجنبية ، وهكذا لقحت الثقافة الضادية بدم جديد منذ ذلك العهد . ذكرت هذا لان له الاثر البارز في ما كتبه المراش .

المراش ابن بيت علم ، وللبيت اثره في الاولاد عندنا ، فبيت العلم يخرج العلماء، وبيت الصناع يخرج صناعاً حاذقين ، ففرنسيس هذا من اسرة مثقفة ، ابوه تاجر له من العلم نصيب ، واخوه عبدالله عُرف بالفضل والادب وقد زار مكاتب اوربا فلندن وباريس ونسخ منها آثاراً عربية اعجبته ورأى فيها فائدة لابناءجنسهالناطقين بالضاد . واخته مريانا شاعرة كاتبة . ففرنسيس اذن ابن بيت يذكرنا ببيت زهير وجرير مثلًا .

ولد بمدينة حلب ، واعتل بصره في الرابعة من عمره . قال الشعر وهو ابن تسع كما رووا عنه وعن اديب اسحق وغيرهما . ولما حذق العربية شاء ان يكون طبيباً فتلمذ لطبيب انكليزي بحلب، ثم طمح في ان يكون طبيباً قانونياً فرحل الىفرنسا طالباً هذا العلم ، وقد حدثنا عن سفرته في رسالة عنوانها (رحلة باريس) . وصف في هذا الكتاب الطريق التي قطعها بين حلب والاسكندرونة وصفاً دقيقاً رائعاً . اقول هذا لاني قطعتها بعده ، في السيارة طبعاً . وهاك بعض ما قال لنستدل به على قوة مخيلته وتصوره :

« أوعار ملقاة في وسط الطريق كأنها امواج البحر الجامد معدة لتمزيق سفن البر . صخور منفردة في العراص الخالية كأن الايام نخرتها والرياحصقلتها لتكون أوتاداً لمضارب الخراب والكآبة . جبال صلعاء القمم ، معممة بسحب القتام ، ولا مزية لها سوى الشمخ الى السماء ، فهي كالجاهل المتكبر او الاحمق المدعي ...اوهاد فاغرة الافواه لابتلاع السالكين على شفاهها ، وهضمهم في ظلمة وظلال الموت ... قناطرمقطعة الاوصال هابطة تحت ثقل الشيخوخة ودوس اقدام الزمان.» ثميقول :

« وفي احدى مراحل هذه الطريق انفردت مساء الى جهة من تلكالبريةالساكنة وجلست على صخرة مضطجعة في حضن الوحدة ، واخذت اتأمل هذه الفلاة الحزينة بينما كانت شمس الغروب تصبغ وجه الطبيعة بصفرة المنون ، والافق يحوك على سراج الشفق ثوب الظلام » .

ثم عاد الرائد من باريس مكفوفاً ولم يستفد منها طباً . اراد هو الطب واراد القضاء الادب ، فكتب (مشهد الاحوال) و (غابة الحق) ، وكلاهما مستوحيان

من باريس . وظل فرنسيس يكتب ويؤلف ، ولما اصبح غير مستطيع استعان باصحابه الذين يكتبون ما يملي ، وظل عــلى ذلك حتى مات عام ١٨٧٤ تاركاً كتباً عديدة .

شخصيته : كان الشدياق في ذلك الزمان يملي من وراء بحرنا فرائد يجلوها خرائد، وكان اليازجي والبستاني والاسير والاحدب يؤلفون ويصنفون ، اما هـذا الشاب فكان يتطاول الى انعاش الادب ، ويحاول بثّ دم جديد في الجسم المترهل . كان هو بلبل الشمال الصداح . ادركته حرفة الادب فازورّ لتجارة ابيه واخيه الواسعة، ووقف فكره وقلبه عـلى النظم والنثر وقفا خالصاً لوجه الادب والفكر ، فـكان كاهن الحرية الاعظم في هيكلها الذي بناه لها رفيع العماد في برية الشهباء كما سترى في (غابة الحق) .

نظم الجديد من الشعر متعمداً ، وكتب الطريف من النثر قاصداً ، وقـد قال عن نفسه في معرض الرد على احدهم :

وشيخٍ مذ رأى نظمي ونثري فقـال وطبعه شر الطبــاع :
ارى معناك مطروقــاً كثيراً فقلت : نعم بمطرقـة اختراعـي

كان مفكراً يعنيه ان يقول شيئاً ، وضالته الحكمة في كل ما كتب ، فكثيراً ما كان يخلط الغزل بالحكمة تارة ، وبالنصائح الاجتماعية حيناً ، والفلسفة طوراً . فبينا نراه يتطوّح في الحب حتى يخرّ الى ذقنه اذا به ينهض نافضاً ما علق باذياله من غبار التذلل ، رافعاً عنقه باباء الجواد الاصيل ، ثم يحمحم :

أأذوب لا والله لست اذوب ؟ ان قال : ترك . قلت : ذا المطلوب
رح يا رسول الى الحبيب وقل له : مــات الغرام ، لك البقا فتطيب
ان المحبّ سلاك فــابشر بالمنى ، واذهب فــانت لمن تشاء حبيب

ان مخيلة المراش ككأس ابي نواس — فانّى اتجهت في شعره ونثره تجدها منتصبة امامك كالمنارة امام السفن الضاربة في عرض البحار .

قال اكثر شعره في اغراض جديدة ، وعبارته رقيقة سهلة واحياناً ركيكة. غزير الافكار وكثيراً ما يعجز عن تاديتها بعبارة صحيحة . متشعب المواضيع ،

تغلب اللهجة الخطابية على ما يكتب شعراً ونثراً . واضح الصور ، واسع الوصف ، تشابيهه واستعاراته وصوره مؤثرة ، ولكنها تفيض عذوبـــة وحنانا . يغلب عليه التشاؤم حتى في غزله ، وفي اشد مواطن الفرح ترى على وجهه جهومة ابتسامة حزينة الا انها صادقة . واني اعزو هذا الى الحصبة التي اصيب بها صغيراً ، فتركت تشققاً وتصدعاً في بنيان هيكله ، فأدّى ذلك الى كفّ بصره وموته الباكر .

وشعر المراش ونثره يدلان دلالة صارخة عـلى حبه للعلم ، فكأنّ الطب الذي تعلمه احاله فيلسوفاً في (مشهد الاحوال) و (غابة الحق) وكذلك اصاب اصحابنا الاندلسيين اذ استحال طبيبهم فيلسوفاً . وللغربة اثرها البيّن في شعر المراش ونثره ، كما نرى في مشهد الاحوال حين يصف لنا مشاهد باريسية . كان الشاعر أميل الى وصف الحضارة والمدنية منه الى وصف الطبيعة ، وان سمعناه يحنّ الى جبل ابي العلاء المعري — جبل سمعان — قائلًا :

فمتى أرى الأظعان تعدو بي على (سمعان) حيث مطالع الشهباء
ومتى أرى جبل اللكام يمـدّ لي باعاً يطول عـــلى حبال النائي

مرآة الحسناء

عنوان ديوان له يقع في ٣٤٨ صفحة ، وهو لو طبـع كما تطبـع دواوين اليوم لفصلنا من ذلك القماش دواوين عديدة ، واستقل كل من مواضيعه بديوان خاص به . ولكنه طُبـعَ في ذلك الزمان ، يوم لم يكن هذا التنظيم والترتيب الذي يكثر ورقه ويقل كلامه . . .

يثور المراش في مقدمة ديوانه على القديم فيقول : ان المـــدح اطراء ورياء ، والقدح حسد وعياء . ثم يعلن في قصيدة لامية الثورة على القديم ، ولكنه لا يجهل انه دونهم تعبيراً ، فيعلن ذلك في كل مناسبة ، وحسبنا ان نذكر هذه الابيات التي ختم بها ديوانه (مرآة الحسناء) معيداً الامر كما بدأه ، قائلًا :

هفواتي كثـيرة ليس تحصى ومن الفضل ليس لي من مزيه
غلطي فاضح فان سترتـــه فئة الفضل قلتُ نعم السجيّه
واذا رام كشفـه ذو كمال كان شكري له اقـل هديه

وفيها يقول عن نفسه :

تأنف الرفد والجوائز مهما كنّ ، فالذلُّ كله في العطيه

ويحمل المراش على الشعراء الذين يبيعون شعرهم بالجوائز والرتب والالقاب فيقول :

لا امدحنّ سوى لبيب فاضل او صاحب حامي الذمار مؤاس
ما لي وللالقاب ، فهي باهلها جاءت كاجراس على أفراس
كم دولة ، او رفعة ، او عزة ، شريت بمال ، او برشفة كاس
كلمات تعظيم على مستحقر لم يسو فلساً في غلاء الناس

ان نفس المراش تحسُّ كل ما حولها ، فهو يفتش عن مواضيعه تفتيشاً ، بل يستلهم المكان والزمان وينتزع منهما مواضيعه . اما رأي المراش في الشعر فقد عبر عنه بيت في احدى القصائد اذ قال :

والشعر ليس يحله شيء سوى . لفظ جميل فيه معنى مطرب

واشهد انه لو اطال الله عمره واسلست له العبارة قيادها لكان شاعر عصره . ولم تعدم العروبة حظها من شاعرنا — وهو العائش في ظل الاتراك — فاسمع كيف يخاطب الفرنج وان كان من المعجبين بتقدمهم :

حتّامَ تزرون يا افرنج بالعرب مهلا فلا خير بابن قد زرى بأبِ
ان كان بالعلم جئتم تفخرون فمن معالم العرب كل العلم والادب
تذكروا ما غنمتم يوم ندوتكم في ارض اندلس من تلكم الكتب

وهو يذم الزمان كغيره من شعرائنا ، فقد شاع ذم الزمان عندنا حتى حمَّلناه ، وما زلنا نحمّله ، اثقال كل تقصير ، ولكن الزمان قادر على حمل الدنيا وما فيها ..

ثم يلوي على شاعر اسمه ابن خياط فيقول متهكماً بشعره :

رأينا لابن خياط قريضاً يقرّضنا بلا ناب وضرس
اذا ما قال في تموز شعراً اعاد الثلج قنطاراً بفلس

وقد نظم المراش الموشحات حتى كان ينطلق احياناً من قيود القافية فينظم قصيدته مقاطع ذات قافية يلتزمها هو كما فعل الاندلسيون قبله . وهو لا يحرم العلم

والاكتشافات الحديثة من شعره ، فيلجأ اليها ليخلق معنى جديدا لم يسبق اليه فيقول :

تكهرب القلب من برق الطلى فغدا   يجاذب العشق لكن قط ما دفعا

وتراه يترسم خطى ابي الطيب ، فينحو نحوه ولكن في معنى غير معناه :

الحسن يمنح والتدلل يمنـــع   والقلب يعشق ، والتدلل يردع
كثرت عيون الراقبين وانمــا   عنـدي قبالة كل عين اصبع

ثم ينحو نحو البهاء زهير في قصيدته : رفعت رايتي على العشاق فيقول :

انا هو سلطان الغـــرام وربّـهُ   وكل فتى يرعى الهوى هو من جندي

بيد ان هذا الطموح الى الجديد قـد اندفع مع التيار العصري فقـال كغيره ، تواريخ والغازاً ، ونظم على طريقة الحلّي قصيدة يبتديء كل بيت منها بالحروف الهجائية من الهمزة الى الياء . كما قال ابياتا كلها من المهمل .

وفي الديوان ايضاً ما يشبه المواليا ولكنه افصح لغةً واصح . وقـد لاحظت في استقرائي هذا الديوان أن الشاعر لم يدع حرفا إلا قال عليه شعرا حتى حرف الثاء والظاء وغيرهما . وقـــد راسل اشهر ادباء عصره ومدحهم كالشدياق واليازجي وغيرهما ، وتلك كانت خطة متبعة في ذلك الزمان كما ذكرنا .

هـذا هـــو ديوان مرآة الحسناء وسأعرفك بمشهد الاحوال وغابة الحقّ ليس لانهما كتابان نادران لا تجدهما إلا على رفوف المكاتب الخاصة، بل لانهما كتابان من نمط جديد .

مشهد الأحوال

على كتاب (مشهد الاحوال) و (غابة الحق) قامت شهرة المراش ، فقـد كان لهذين الكتابين شأن حين ظهرا فاحلا مؤلفهما مقاما رفيعا في دنيـا الادب . لم يكن ذلـك لبلاغتهما ولكن طرافتهما — في زمن قلّ فيه الطريف — انزلتهما تلك المنزلة . بنى المؤلف كتابه « مشهد الاحوال » على احوال الحياة والمجتمع : حال الكون ، حال الجماد ، حال النبات ، حال الحيوان ، حال الانسان . ومـمـا قاله في هذا المخلوق الاناني العجيب :

« فغدا يصارع الحاضر ، ويرتعد من المستقبل ، ويأسف على الدابر . فما ابتسم

إلا وبكى ، وما شكر إلا وشكا ، اذا فرح بضعة ايام ، حزن بعض اعوام ، الى ان يقول شعراً :

انما المرء لا يرى غير بلواه فلابن الانسان عين قصيره

ولا تعجب ان رأيت السجع في هـــذا الكتاب فما أرى صاحبه إلا ناحيا نحو اصحاب المقامات ، ولكن بموضوع غير موضوعهم لأن ثقافته غير ثقافة اولئك .

ثم يمر بحال الرجل وحال المرأة فيظهر محبته العظيمة لها كالشدياق حتى يقول :

ان كل اللطف والظرف لقد جمعا في ذلك الجنس العجيب

ويعود فيفصل الانسان : حال الطفولية ، حال الفتوة ، حال الشبوبية ، حال الشيخوخة فيقول فيها قولاً طيباً . وينتقل الى العمران فيبدأ بحال العيلة ، وحال الهيئة الاجتماعية ، وحال البلاد ، فيتطرق هنا الى ذكريات باريس التي فتنته انوارها ، وعاد منها بلا عينين . قال في هذا موشحاً من طراز (جادك الغيث) ، ولما توغل في عاصمة النور ذهل وهتف في قصيدة اخرى :

لست ادري في اي كون مكاني هل انا في باريس ام في الجنان
كل ما جاء في السماع عن الجنة القـــاه هـــا هنـــا بالعيان .
ها انا وسط جنة تحتها الانهـــار تجري لكن بهـــا كوثران
هكذا انثني وخلفي وقـــدّا مي مجـــال للحور والولدان
حينما الحسن والهوى وهما الاكثــــــر لعبـــاً في مسرح الانسان
فهما للحياة اصل كما الـــلاذوت اصـــلٌ لبنيـــة الانسان

وكانه كان مرة على ميعاد مع فاتنة فاوحى اليه الواقع هذه القصيدة التي انقل لك منها ما يلي وعنوانها (في حرش بولونيا) :

من ذا ينبهني ! فقالت لي : انا قم فالدجى ولى وصبحك قد دنا
فوثبت أمسح اعيني واجبتها : اهــلا وسهلا بالصباح وبالسنا
والله قــد قضيّت ليليَ باكيــاً واذا غفلت ، فذاك مفعول الضنا
فتمايلت ضحكاً وقالت طِبْ فلا عتب على من يستخير الأحسنا
ان الخنــاثــة للرجـــال سجية وهم الذين الى النسا نسبوا الخنا

ثم يصف ما يسميه (جسر القناطر) فيقول في وصف حسان باريس :

وقوامٍ كأنّه صنم الاسرار يوحي بعشقه للسرائر
هيكل الحسن واللطافة لم يحرق عليه سوى بخور الضمائر

ويقول في قصيدة اخرى فيبدع في الوصف :

والصبح ذو مكانس الشعاع يسعى بكنس الظلّ في البقاع
يرشّ ماء الوهج اللمّاع فينشر الشعاع كالشراع
وتنطوي غبائرُ الديجور

من لا يرى باريس في دنياهُ لم يدرِ ما الجنة في اخراه
ذي جنةٌ ليس لها اشباهُ ما صاح في جوارها : ويلاه ؟
سوى عديم الذوق والفقير

وينتقل الى حال الشرق والغرب ، وفي هذه الحال الاخيرة يصف لنا ليلة رقص باريسية في قصيدة طويلة . وينتقل الى حال الزمان ، وهنا يشعر الشاعر بما رماه به الدهر في باريس ، فينظم موشحاً هذا مطلعه :

جئتُ ارضَ الغيث كي اطفي الظما (فطفت) عزمي وزادت عطشي

ثم يمضي في موشحه حتى يقول :

لم اجد والله في هذي البلاد غير داء لي وللغير دوا

وينتقل الى حال العلم ، وحال الجهل ، وحال التمدن ، وحال المال ، فيعقد محاورة بين غني وفقير . وتأتي حال الحرب والسلم ، وحال الحب فيفتتح احدى قصائده في الحب :

ما للمليحة غضبى لا تكلمني كأنها بي لم تسمع ولم ترني

والمراش شاعر غزل قبل كل شيء ، ولهذا كثرت قصائده في (حال الحب). وتأتي حال البغض فلا يجود عليها بشيء من شعره ، ولكنه يرى البغض مدمراً كما يرى الحب معمراً ، ويختم هذه الحال بهذه العبارة : فلا ريب ان البغض آفة الكل والبعض .

ويظل ينتقل من حال الى حال الى ان يختم الكتاب باحوال تجعل من المراش

الاديب عالماً وفيلسوفاً ، ولا عجب ان يلمّ بكل هذا من رحـــل الى باريس في طلب العلم في ذلك الزمان الصعب القاتم .

واذا كان لم يخطر ببالك خليل الخوري الذي تقدم ذكره ، فعـد اليه وقابل بين الشاعرين لترى بينهما اقرب النسب . واني اظن ، وان قيل بعض الظن إثم ، ان المراش لم يقصد الا زميله خليل الخوري ، حين قال ما مرّ بك في ذم الالقاب والرتب ...

غابة الحق

كتاب يكاد يكون قصة . طالب فيه مؤلفه بالحرية لجميع البشر حتى العبيـد . دعا فيه الى السلام دعوة صارخة ، ولكن هل سمع العالم دعوة غيره ليسمع صوته ؟ وكل ما يقال هنا هو ان الاديب قد أدى رسالته ، ورفع الصوت جهرة يوم كانت اعاصير الاستبداد تجتاح الكون ، وحين كان ذكر الحرية ، بله المطالبة بها ، جريمة لا تغتفر . ولكن الكاتب اللبق عرف كيف يرفع عقيرته مطالباً بحرية الانسان في عهد سلاطين بني عثمان .

فالمراش شاعر كاتب خيالي من الطراز الاول ، ألف كتابه (غابة الحق) على نسق رؤيا يوحنا . جعل القصة حلماً ابتدأ في مطلعها وانتهى في ختامهـــا . واذا طالعت هذا الكتاب تعرف ان اسلوبه ، وان كانت عبارته كثيرة الخطأ ، قد اتبع زهاء نصف قرن حتى تأثر به الكثيرون من ادباء القرن العشرين .

تخيل المراش انه يستعرض دول الارض منذ البدء ، رآها في فجر التاريخ دولاً عمرانية ثم استحالت دولاً غازية فاتحة تتقاتل على حطام الدنيـــا وتتناحر فيسلب الغالب المغلوب . وبعد هذا العرض قال : « وانفتح لبصيرتي باب رحب مكتوب على قنطرته (العقل يحكم) ، ومنه عاينت وراء هذا الباب بريّة فسيحة جداً ، ولاح لي عن بعد بيرق يخفق متقربا ، فوضعت نظارة الاختبـار وامعنت النظر فرأيت مكتوباً به (العلم يغلب) . وظهرت حينئذ من ورائه جيوش التمدن الزاهر ممتطية متون الاختراعات العجيبة ، والمعارف الكاملة ، وهي تخطر متموجة بانوار اسلحة الحكمة والعدل ، متدرعة بدروع الحرية الانسانية » .

ثم رأى ممالك الظلام تندحر امام الحكمة والعدل والحرية ، فمدت دولة العدل سلطانها وقوتها على كل بقعة ومكان ، وعمّ السلام اقطار المسكونة .

ثم رأى الشاعر – في نومه طبعاً – عرشين منصوبين قرب صخرة ينبثق منها غدير . على العرش الاول يجلس جبار معتقل سيفاً ذا شفرتين – كأنه ذو الفقار – وعلى رأسه تاج مكتوب على اكليله « يعيش ملك الحرية » . والى جانبه على العرش الآخر امرأة على اكليلها الذهبي سطر من احرف نارية « تحيا ملكة الحكمة » .

ها هوذا ملك الحرية غضبان يتوعد مملكة العبودية بالاجتياح والتخريب، وهاهي ملكة الحكمة تطايب زوجها وتداوره ، وفيما كان الحوار على اشده اذا بقائد (جيش التقدم) ووزير (محبة السلام) يقبلان ، وقد اتم كل منهما ما عهد به اليه . قاتل (السلام) البغض حتى استظهر عليه بسلاح التعليم والتربية ، وبعد محاورة بين الملكين وقائديهما قرّ الرأي على هذه الكلمات الحكيمة : « الظالم يرتد وجعه على رأسه ، وعلى هامته يهبط ظلمه . » فخير سجايا الانسان محبته للسلم ، ونفوره من الحرب والخصومات ؛ فبالسلامة تنمو الهيئة الاجتماعية ، وتتسع دائرة تقدمهابالثروة والمعارف والاداب . وبالسلامة تخصب الحقول ، وتعطي الارض غلتها ، وتجود الفلاحة ويكثر الحصاد . وبالسلم تعمر البلاد والقرى ، وتتسع التجارة التي يقوم عليها مدار الاشتراك مع العالم كافة . وبالحرب تنقطع الشعوب عن مشاركة بعضها بعضا . »

الا ترى مثلي ان كاتبنا قد دعا منذ ثمانين عاماً الى ما تدعو اليه (الاونسكو) اليوم ، وانه قد ادرك ما قاله اشهر علماء الاجتماع اليوم : « ما من امةٍ بعد ، ولا انسان ، يستطيع ان يعيش في جزيرة ، فمصير الواحد مرتبط بمصير آخر انسان في ابعد نقطة من الارض . »

ويحمى وطيس الجدال بين الملكة والملك ، ملك الحرية يريد الشدة والعنف ، وملكة الحكمة تنشد الرحمة والرأفة ، فيستدعى الفيلسوف الذي جعل المؤلف مقره في مدينة النور ، فياتي ويشرع في بسط آرائه العلمية، فتنكسر شوكة غضب الملك . ولكنه يسأل الفيلسوف عن (مملكة الروح) التي سمع بها ، وانه يريد تدويخها

واخضاعها ، فينبري الفيلسوف للدفاع عنها ويمنع ملك الحرية من مهاجمتها لانها تؤدي لعرشه معونة جلى ، فهي التي تودع شرائعها الآثام الخفية التي تعجز الحكومة المدنية عن مقاومتها ، فيرضخ الملك لبراهين الفيلسوف ويذعن لحجته القوية .

ثم تتشعب المباحث بين صاحبي الجلالة والفيلسوف ، فتدور حول السياسة والمملكة ، فيشير الفيلسوف بنشر العلم والمعرفة لتقوى دعائم الملك وتثبت وتتآخى العناصر المختلفة المتشعبة . ثم يجري الحديث حول التمدن فيبنيه الفيلسوف على خمس دعائم :

١ — تهذيب السياسة .
٢ — تثقيف العقل .
٣ — تحسين العادات والاخلاق .
٤ — صحة المدينة .
٥ — المحبة .

ويفيض المؤلف بلسان الفيلسوف في تبسيط موضوع المحبة فيجسدها ويجعلها تحتج على الادمغة الكبيرة التي سمتها اسماء علمية مختلفة . قال :

« صاحت المحبة بعد ان صعدت على منبر النظام الكوني :

أنا التي أوثقت هذه الاجرام برباط الانضمام فكانت افلاكا تدور حول بعضها ، فلماذا دعيت التصاقا ؟ !

انا التي ألفت بين العناصر المختلفة فكانت مملكات تزهو بمجد الارتباط ، فلماذا لقبت تماسكا ؟ !

انا التي قد فتحت في اجناس الحياة مسالك الميل لتحافظ على انواعها ، فلماذا دعيت تناسلا ؟ !

انا التي جمعت أشتات البشر الى هيئة واحدة فكانوا متعاضدين في حروب الحوادث ، فلماذا سميت اغتصابا ؟ !

انا التي اقفلت مصارع البحر ، واتخمت كبرياء لجه ، فلماذا أدعى جزراً ومداً ؟!

انا التي حيثما نزلت عمّرت ، وحيثما رحلت خربت ، انا التي اتخذني التمدن

دعامة قوية ، وبدوني لا يثبت له بناء ، فهل يهدمني الا كل متوحش ؟)

ثم يتخطى الفيلسوف اخيرا الى القول : فـلا يخطي من يسمي المحبة الهة الهيئة الاجتماعية .

وبعد ان يعدد الفيلسوف الفضائل جميعها ويشخصها يجيء دور الرذائل : الجهل ، والكبرياء ، والحسد ، والطمع ، والبخل ، والحقد ، والنميمة والكذب ، والنفاق ، ثم يحشر هؤلاء الذين جعلهم شخوصا ، في مكان ما من (غابة الحق) ليحاكمهم ملك الحرية . ويتكلم الفيلسوف مقبحا العبودية بحضرة ملكها الماثـل للمحاكمة . وبينما المحاكمة جارية اذا بعبد زنجي قـد دخل القاعة وشرع يقص على محكمة ملك الحرية كيف اسره وأخاه القرصان واسترقوهما . وبعد الحكم على الرق والاستعباد بالموت تجري محاكمة الجهل والكبرياء وجميـــع الرذائل التي مرّ ذكرها ، فتطهّر منهـا (غابة الحق) .

وقبل ان يستيقظ المؤلف وينقطع حلمه يرى نفسه في برية الشهبــاء موطنه ، فيراها جنة خضراء ، فيتساءل من أين ياتي الخير هـذه القفار المجدبة ، والساقطة من اعين العناية ، منذ الف عام واكثر ؟ فيسمع صوتا يدوي في الغمام قائلا : « ابتهجي يا شهباء سوريا ، فها العناية الملوكانية ، مقبلة اليك ، والمراحم السلطانية هاجمة عليك . قد وقعت تحت انظار عناية حضرة ذي الشوكة والاقتدار السلطان عبد المجيد خان ، دام ملكه مدى الدوران » .

وهكذا سلم للمؤلف رأسه وظهر كتابه (غابة الحق) ومشى بخطوات ثابتة في سوق الادب ، واستقر على رفوف المكاتب ولا يزال .

ان في (غابـــة الحق) ملامح من كتب الفلاسفة العظام كافلاطون ، ومن حذوا حذوه ، ففيها يحاول المراش خلق دنيا اجتماعية يسودها السلام والاطمئنان فجعل عمادها (المحبة) القادرة على كل شيء .

والخلاصة ان عمل الخيال في غابة الحق يبلغ مداه الابعد ، وقـــد استولى فيها المؤلف على الأمد . فالعرض والسياق جيدان ، والقص يمشي على رسله وان ركّت العبارة احياناً . اما الابطال فلا سمات لهم . لم يستعر المؤلف لشخوصه الاجساد

التي تنبثق منهـا اعمالهم ، وآراؤهم وافكارهم ، بل ناب هو عنهم جميعاً مكتفيا باسمائهم ، ثم راح يقول بلسانهم ما يقول .

قد يعذر على ذلك لانهم رموز لا اشخاص ، ولكنه في كل حال مسؤول عنهم لانه خلقهم . اما العبارة فخيالية سهلة ولكنه ينقصها شيء لتخرج ناتئة بارزة . انهـا كتلك الرسوم التي لم تفز بحظهـــا الكامل من الالوان والخطوط، فأنشاء المراش على ما فيه من خيال وصور قلما نحس فيه تلك الحركة ، وذلك الزخم .

ليس للمراش شقشقة تعبير اديب اسحق ولا هديره ، ولا صحة تعبير الشدياق ولا ظرفه ولا تهكمه ، ولكنه اقوى مخيلة منهما . وقد ذكرت هذين لانهما كانا سيدي الموقف في الحقبة التي وجد فيها المراش ، فهو ولا شك من قراء الجوائب .

والمراش يختلف عنهما جميعاً في تفكيره ومبادئه ، فهو متأثر بالعـــلم والفلسفة اكثر من جميع كتاب عصره ، نزاع الى اصلاح المجتمع ، يدعو الى الاخذ بالحضارة الحديثة . اما ثقافته فمتأثرة بالدين ، ولغته تكاد تكون لغـــة الكنيسة المستعربة حديثاً ... ولا تنس ان المحيط الذي نشأ فيه كان محيطاً تركي اللسان . فحلب التي سرت منها الفصحى الى لبنان كانت اللغة التركية تجري على ألسن معظم سكانها .

وبعد ، فلست احدثك عن الاخطاء اللغوية في كتب المراش هذه لانها كثيرة جداً . ولا عن الاسهاب في التعبير لان عبارته غير مرصوصة ولا متـلازّة ، وهو يزجُ في شعره ونثره الالفاظ العامية غير الفصيحة ، ويتصرف كما يشاء في الاشتقاق والجموع ، ولو خلا نظمه ونثره من مثل هذه العيوب لكان اكتب واشعر اهـل زمانه .

شاعرا الكلية

هما الياس صالح وسليم عازار وكلاهما ماتا في شرخ الشباب .

كان لهذين يد في التجديد والتوليد ، ولم يقولا الشعر مقلدين . نال الياس صالح شهادة بكلوريوس علوم سنة ١٨٨٨ ومات عام ١٨٩٥ . قال زيدان فيه : « ومن غريب قريحته انه جمع بين الشعر والانشاء ويندر ان يتفق ذلـك لواحد ، ولذلـك

استدعته جريدة المقطم ، فتولى التحرير فيها حتى مات . ولو فسح في اجله لأتى بمعجزات البيان . كان متضلعاً من قواعد اللغة قابضاً على أوابدها وشواردها ، وعارفاً باشتقاقات الالفاظ ومواقعها . »

وينعته زيدان بحلاوة النكتة . ولعل هذه الحلاوة هي التي أمرّت عيش أحد معاصريه حتى استولى على بيت الأنسي ليحرفه ويقول فيه :

هو طالح لا صالح لكنهم غلطوا ولم يضعوا العصا في رأسه

اما اشهر قصائده ، ولعلها هي التي اطارت صيته ، فهي قصيدته التي عنوانها (الحرّية) . ولها حكاية كنا نسمعها في صبانا ، ولهذا احب الآن ان امتع القاريء بها . كان ذكر الحرية يخيف السلطان عبد الحميد ورجاله ، وكان خطيب حفلة الكلية — الجامعة الاميركية — تلميذها المتخرج الياس هذا. وكانت الحفلة تحت رعاية والي بيروت ، فقام الياس ينشد :

خلِّ عنكَ الوقوفَ في دارميّهْ واعتزل ذكر زينبٍ وأميه
رحم الله كل من قال شعراً في ربوع الاسلام والجاهلية
انما دارنا بمن شرفوها عن سليمى وعن سعاد غنيه
لا تلمني يا عاذلي بهواها فانا قيس هذه العامريّه
وعلامَ الملامُ والقلب قلبي ومعي فيه (حجّةٌ شرعيه)
فاذا كنت تدعيه فقدم (عرض حالٍ) للأعين التركيّه

الى هنا كان دولة الوالي منشرح الصدر ، حتى اذا ما انشد الشاعر هذا البيت :

واتخذنا سلاسل الشعر قيداً فنسينا المسكينة الحريه

تجهّم وجه الوالي واستعد للطواريء . ومضى الشاعر في انشاده حتى قال :

أنت حرٌّ يا ايها المرء فاعلم ولك العلم فيه والاسبقيه
يتمنى الانسان لو كان عبداً ويُقيم الأدلة العلميه
والكم قد رأيتُ من حيوانٍ يقضم الحبلَ بغية الحريه
يا بني امنا ذوي الفضل بل يا معشر الناطقين بالعربية
لست عبداً انا، ولا انت مولى ايها اللابس الحلى الذهبية

انتفض الوالي لما اشتدت الأزمة ، ولم يبق في استطاعته السكوت فوقف وقال للشاعر : باسم جلالة مولانا السلطان اقول لك : قف ! فهب ، عندهـا ، رئيس الكلية ، متذكراً الامتيازات الاجنبية ، وقال : وانا اقول لك : باسم حكومة اميركا كمّل .

وكان الشاعر اقوى بديهة من الوالي والرئيس فاتمّ كلامه مادحاً جلالةالسلطان ارتجالاً ، دون ان يفلت منه خيط الموضوع ، وهكذا انقذ الموقف .

هذه هي حكاية معلقة (الحرية) في عصارى القرن التاسع عشر ، وان لشاعرها مقدرة على ارسال الكلام حلواً مبتدعاً كما قرأت ، وكما ترى في هذين البيتين :

ونحويّةٍ ساءلتها أعربي لنـا : حبيبي عليه البينُ قد جار واعتدى
فقالت حبيبي مبتدا في كلامهم فقلت لها ضميه ان كان مبتدا

اما سليم عازار فكان شاعراً له حلو الكلام كما كان له كالياس صالح قصر العمر ، فكلاهما ماتا مسلولين . كان الياس نحيلا كما وصفه زيدان ، اما سليم ، وقد عرفته شخصيا ، فكان عملاقاً ضخماً ، ولكن الداء لا يهاب طولاً ولا عرضاً ...

لم تكن شهرة سليم عازار في الكلية دون شهرة الياس ، فكلاهما تقريباً من معدن واحد ، وكلاهما طريف ظريف ، واشهر ما قرأنا لسليم هذه الابيات الرائعة من قصيدة :

جار الزمان وصرت يا نفسي تتقلبين تقلب الطقس
طوراً على امل وآونـةً في اليأس او اشقى من اليأس
اين السرور ، واين ما عهدته فيك ربّات الهوى أمسِ
أزهدتِ في دنياك قانعـةً بالحزن ، بالانشاد ، بالدرس
عودي الى الماضي فقد عبثت لما عبثتِ معاهد الأنس
عودي فليس بما اهتممتِ له زهو الصبا ولطافة الجنس
عودي فقد صيرتني ظمئاً للحبّ ، للاشعار ، للكأس
او لا فكوني كيف شئت ، وما شئت افعليه ، فليس من بأس
لا خيرَ في من ليس ذا ثقةٍ من نفسهِ ، أسمعت يا نفسي ؟!

وبما اننا في الحديث عن رائدين مسلولين ، لا بأس ان نذكر بعض قصيدة قالها شاعر يصف مسلولاً ، ثم مات هو بعدئذ ، بالداء الذي وصفه ، وما هذا الشاعر الا محمد إمام العبد احد الرواد . قال :

عشق الموتَ مكرهاً في شبابه | ربَّ موتٍ يحـــار في اسبابه
قبل ان يدفنوه في الرمس ميتـــاً | دفنتـه الايام في جلبـــابـــه
فـــاذا رمت ان تراه بعـــين | لا ترى غير أنةٍ في ثيابـــه
لو تمنى مكانةَ الملك وهمـــاً | لاكتفى بالنحولِ عن حجابـــه
كيف تقوى كفاه في موقف العرض | اذا كلفوه حمل كتابـــه
قطرته المنون في الليل قطرا | تكتفي بالنجوم من اصحابـه
ايها الموت ، لا عدمتك خِـلا | طالما انقذ الفتى من عـــذابـه

ولامام العبد هذا حلاوة النكتة ، ولا بدع في هذا لأنه مصري . لامه احدهم على تركه الزواج ، فاجابه ببيتين لا اذكر غير الاخير منهما ،ولكنه الزبدة ، قال:

انا ليلٌ وكل حسناءَ شمسٌ | فاجتماعي بها من المستحيل

أرأيت انه ، بعد عنترة ، قد احسن استغـــلال سواده ، والارض السوداء مغلال ، كما قلتُ في كتاب « الرؤوس ».

البارودي وارسلان

●

صدق من قال : الشعر اسبق في آداب الامم من النثر . اليس هـذا ما رأيناه نحن عند روادنا الأولين؟ اما قرزموا الشعر جميعاً فجاء عليلاً سقيماً يسأل الله العافية والستر ؟ وظل ركيكاً غير مصقول حتى كان له محمود سامي البارودي فاقال عثرته ونهض على يديه من كبوته .

قال البارودي الشعر عباسي الديباجة ، واذا غلبت عليه الحماسة فـلا عجب لانه احد الشعراء الفرسان الذين تغنوا بالسيف والرمح ، ولِمَ لا يكون كذلـك وهو بطل الثورة العرابية .

لا تعنينا هنا مواضيـع الشاعر بل ديباجته التي اعاد بها الى الشعر رونقه القديم . واذا سمينا هـذا الرائـد زعـيم مدرسة فلا نقول الا الحق ، فهو الموّطيء لاسمعيل صبري ، وارسلان ، وشوقي ، ومطران ، وحافظ ، وتامر الملاط ، وتقي الدين ، ووديـع عقل ، وغيرهم من شعرائنا الاحياء .

كان البارودي متأثراً بفصاحة القدماء وقد اسعفته قريحته وارادته فقال شعراً لم يسمع في عصره مثله ، فذكر الناس بالبحتري وسواه من شعراء الديباجة الدمقسية . ستقرأ شيئاً من شعره بمناسبة الشيء بالشيء يذكر ، اما الآن فارجو منك ان تقرأ له هذه الابيات الثلاثة :

هل من فتى ينشد قلبي معي ... بـين خدور العـين بالجرع
كان معي ثم دعاه الهوى ... فمـرّ بالحـيّ ولم يرجـع
فهـل اذا نـاديته بـاسمه ... يفيق من سكراته او يعي ؟

وكان الامير شكيب ارسلان طريّ العود يوم تطاول الى مقام البارودي الرفيع ، فساجله ، وهو في منفاه بسيلان ، ولا بأس علي اذا ما أعادني تداعي الافكار نصف قرن الى الوراء ، وعدنا معاً الى المعهد الذي نشأ بين جدرانه الامير شكيب ارسلان. ففي ضحى النهضة كنا في مدرسة الحكمة، وكان لا يعنينا غير الشعر وقائليه . كنا ننظمه بلا ملل ، ونتباري فيه بلا وجل ، وكان شكيب ارسلان قدوتنا . كان نجمه قد لمع ، ثم طبع ديوان شوقي الاول وفي مقدمته ذكر لشكيب فكبر في اعيننا حين قرأنا قول شوقي فيه :

صحبت شكيباً برهةً لم يفز بها ... سواي ، على ان الصحاب كثير

وضخم امر الامير شكيب في اذهاننا حتى كنا نفضله على شوقي لولا قصيدة شوقي (خدعوها) التي حفظناها جميعاً ، ولم نبال بتعنيف معلمنا الخوري « ص » المحافظ على طهارة اجسادنا لنظل هيكلاً للروح القدس .

واول ما اذكره من شعر شكيب هو رثاؤه للبارودي . استقبلني هذا الرثاء عام دخولي مدرسة الحكمة سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . وقد كان الشيخ رشيد تقي الدين ، إمام حلقتنا العكاظية ، يتبجح بهذه القصيدة ويردد مطلعها :

يا ناظريّ ألأياً تذرفان دما ... أهكذا عهدنا ان نحفظ الذمما

ويطغى رشيد اذ يبلغ هذا البيت ، حتى تخاله الفرات وقد زعزعته رياح الصيف :

فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبةً ... معهُ ، وقولوا لشوقي : انه يتما

ثم ننتقل الى قصيدة حافظ ابراهيم في رثاء محمود البارودي ايضا فنتمطق بمطلعها :

ردوا علــيّ بياني بعـــد محمود ... إني عييت ، وأعيا الشعر مجهودي

فنرى في حافظ رشاقة كما رأينا في شكيب متانــة ، ونرى في (لأياً) بمطلع قصيد الامير مايذكرنا بالنابغة ، فتعلو كفته على كفة حافظ. تلك كانت عقليتنا... بل عقليــة من علّمونا . ويزداد شكيب علوّا حين يروي لنا رشيد بصوته العريض قصيدة البارودي لشكيب :

أدّي الرسالة يا عصفـورة الوادي ... وباكري الحيّ في قولي وانشادي

لعــل نغمــة ودٍّ منك شائقــة ... تهزّ عطف شكيب كوكب النادي

هو الهمام الذي أحيا بمنطقه   لسان قوم اجادوا النطق بالضاد

ثم يهتف بنا : شباب ، سمعتم هذه الشهادة ! ! بلا طق حنك يا مارون . سعيد ، – سعيد عقل الشهيد – اسمع جواب المير شكيب :

هل تعلم العيس اذ يحدو بها الحادي   ان السرى فوق أضلاع واكباد

تحمّلوا ففؤادي منذ بينهمُ   في إثرهم نضو تأويب واسئاد

الى ان يقول شكيب للبارودي ، رئيس النظار – الوزراء - المعزول :

ان يحجبوك فما ضرّ النجومَ دجى   ولا زرى السيفَ يوما طيّ أغماد

وننتقل الى مساجلة ثانية . وهي قصيدة كتبها محمود سامي من منفاه ، في جزيرة سيلان ، الى الامير شكيب ، فنروي جميعنا أبيات البارودي الرائعة في وصف الليل :

أرعى الكواكب في السماء كأنّ لي   عند النجوم رهينةً لم تُدفع

زهر تألقْ في السماءِ كأنها   حببٌ تردّدَ في غدير مترع

والليل مرهوب الحمية قائم   في مسحه كالراهب المتلفع

متوشح بالنّيرات كباسلٍ   من نسل حامٍ باللجين مدرّع

حسب النجوم تخلفتْ عن أمره   فوحى لهنّ من الهلال باصبع

ويجتاح الشيخ رشيد القصيدة، هادراً كنهر الباروك، حتى يبلغ مدح البارودي للامير فيمشي الهوينا ، وعينه عليّ ، عند هذه الآيات :

نبراس داجية ، وعقلة شاردٍ   وخطيب أنديةٍ ، وفارسُ مَجمع

صدق البيان أغص جرول باسمهِ   وثنى جريراً بالجرير الاطوع

لم يتخذ بدر المقنع آية   بل جاء خاطره بآية يوشع

أحيا رميم الشعر بعد همودِه   وأعاد للأيام عصر الاصمعي

وينتقل رشيد الى انشاد جواب الامير ، فلا يروي وصفه المجرة والليل ، بل يروي لنا فخره :

وطلعت اعثر بالسيوف ولو درى   أهل السيوف مقامتي لم افزع

أيغول مهجتي الكماة وماهم   فخر سواي اذا اغتدوا في مجمع

وترى تخون الخيل فارسها وهل ... يُردَى الحسين على يـد المتشيّع
او من لهم مثلي اذا عبس الوغى ... وتضاحكت انياب ثغر المصرع
وتشاجرت سمر القنـا وتجاذبت ... بذوائب ، والسيف شبه الاصلع
ولقد بذذت السابقـــين فمن لهم ... بوقوف سير بالمكارم موضع
وبلغت من (سامي) الفخار وجاءني ... التقريظ من محمود سامي الارفع
خنذيذ هذا الدهر ، واحـــد اهله ... مقدام حلبتـه الأغر الأبتـــع
القائل الفصحى التي عن مثلهـــا ... يثني المقفـع في بنان مقفـــع

ونظل سكارى بهذه المذاكرة حتى يصيح بنا هـــادم اللذات : هوب ، لا . Vous parlez l'arabe فنثرثر بعض ألفاظ فرنجية ، ويتفرق العشاق ...

وينقضي عامي الأول في مدرسة الحكمة فاتتلمذ في عامي الثاني والأخير للشيخ سعيد الشرتوني . ونأتي على ذكر اسلافنا الذين اخرجهم معقل الضاد ، حتى اذا جاء ذكر شكيب انفتحت حدقتا شيخنا سعيد وقال : المير شكيب قُفلَة .

فقلت : وما معنى قفلة ؟ فاجاب شيخنا الجليل : أي يحفظ كل ما يسمع ولا ينساه ، فكانما يضعه في صندوق ويقفل عليه . ثم طفق يطري ثروة شكيب اللغوية كل الاطراء ، وقال في شعره وشاعريته كلاماً كثيراً .

ولما افلت من قفص المدرسة وزاولت الصحافة صرت أقرأ للأميرشكيب شعراً في كل مناسبة خطيرة . انقلب شعره مطية سياسته ، فلم يمر حدثٌ في الشرق الا تناولته قريحته بما حضر ، فشارك في كل معضلة بقلمه ورأيه واساء . لم يمدح غير العظام ، وقلما قال شعراً في غير الحوادث الجسام ، وكثيراً ما تلاقى مع شوقي ومطران وحافظ وباراهم في خطوب الشرق . واول مرة سمعته فيها ينشد كانت عام اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، بيد انه لم يعنفْ ، ولم يَلُمْ ولم يهاجم مثلنا . عدَّ الدستور مِنةً من جلالة السلطان ، واوصى بالتعلق بالعرش ، فلم ترق قصيدته للمتطرفين منا .

وظل الامير ، على توالي المحن ، صديقاً للدولة العلية يشد ازرها ، ويرى فيها العروة الوثقى . فبينما كان افذاذ العرب يمثلون في الاستانة رواية صلاح الدين الايوبي

قبل الحرب العامة بسنة وكلهم ساخط حانق ، وفي مقدمتهم مبعوثوهم – نوابهم – كالزهراوي وفارس الخوري ، وغيرهم اذا بالامير شكيب يقول للحفل من قصيدة :

فمن كصلاح الدين تعنو لذكره رؤوس أعاديهِ ومن ذا يعادله

الى ان يقول :

وكيد على الأتراك قِيلَ مصوب ولكن لصيد الآمنين حبائلهْ
تذكرْ قديم الامر تعلمْ حديثه فكلُّ أخيرٍ قد نمته أوائله
اذا غالت الجلى اخاك فانه لقد غالك الامر الذي هو غائله
فليست بغير الاتحاد وسيلة لمن عاف ان تغشى عليه منازله
وليس لنا غير الهلال مظلة ينال لديها العز من هو آمله
ولو لم يفدنا عبرةً خطب غيرنا لهان ولكن عندنا من نسائله
سيعلم قومي انني لا اغشهم ومهما استطال الليل فالصبح واصله

وللامير قصيدة رائعة هي بالملاحم اشبه . قالها في وصف وقعة حطين ، وهي ابلغ قصائده ان لم تكن خير ما قيل في موضوع كهذا .

أما الرأي في شعر الامير فقد قاله خليل مطران : « حضريّ المعنى ، بدويّ اللفظ ، يحب الجزالة حتى يستسهل الوعورة . نبغ منذ طفولته وكان ابكر الفتيان في نشر ديوان له . وجاء ديوانه في وقته آية ، غير انه لم يلبث ان ترك الشعر وانصرف الى الترسل فحبس فيه ما أوتيه من العبقرية . على انه قد يدعوه داع من النفس فينظم . ينظم كما ينثر ، فياض الفكر غير تعب ، ولكن نظمه يحمل في عهده الاخير اثراً من نثره. » هذا رأي مطران في شعر شكيب، وقد اثبته الامير في صدر ديوانه . اما رأي الامير شكيب في الشعر فهو هذا ، كما جاء في كتابه : (شوقي او صداقة اربعين سنة) :

« ولو كانت القدمة مما يهجّن الشعر لوجب ان يكون هومير منبوذا فانه اقدم شاعر . ونحن نقول لهؤلاء الذين لا يفتأون يتكلمون في القديم والجديد من الشعر ، ويزعمون ان لكل عصر مدرسة : ان هذه المدرسة تكون في كل شيء إلا في الشعر ، فان مدرسته هي القلب ، وان طريقته هي النفس ، وان النفس البشرية

لم تتغير ولن تتغير – فهي هي في اذواقها ومشاربها ومواردها في الحياة ومصادرها.»

« هذا من جهة الشعر على العموم ، اما من جهة الشعر العربي الذي تريدون أن تفرنجوه ، فالشعر العربي لا يكون شعراً إلا اذا وافق ذوق العرب ولاءم مشارب انفسهم ، وجانس مذاهب لغتهم ، واتصل بمناحي حياتهم . فاذا باين الشعر العربي اساليب العرب في بيانها ربما لم يفهموه اصلاً ، على حد ما قال الاستاذ محب الدين الخطيب : ان الواحد من هؤلاء يظل يومه يسطو على منظومات الافرنج يستل منها معانيها الغريبة عن الاذواق العربية ، فيصوغها بالفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضا ، فلا يفهم منها القاريء العربي إلا بقدر ما افهم انا من الصيني » .

ثم يعقب الامير على هذا الكلام بقوله : « وأنا ايضاً اعترف باني لا افهم هذه اللغة التي يكتبون بها » .

هذه آراء الامير وغير الامير في الشعر ، اما أنا فارى ان الامير متأثر باستاذه الشيخ عبد الله البستاني . والشيخ عبد الله كان معجما ناطقا قلما فاتته شاردة أو واردة . يقول الشعر كطرفة وعنترة . واليك مطلع قصيدته التي هنأ بها الحويك بالبطركية :

حي القطين وناسم عني الدارا ودر مع اليمن فيها كيفما دارا

وهو متأثر كشابّ في اول حياته الادبية ، باحمد فارس الشدياق ، علم اللغة المفرد . فلا تعجب ان رأيت في الامير نفحة جاهلية وثروة لغوية ، فشعره الاول ، وخصوصاً نقائضه مع البارودي ، هو أصفى شعره وانقاه ، مع انه لم يكن اجتمع اشده .

اما ترسله ، وخصوصاً في كتابه (اناتول فرانس في مباذله) ففيه شبه ، لفظاً وسرداً ، بأسلوب الشدياق الذي اثنى عليه الامير حين ذكر رثاء له فقال عنه : « امام اللغة وفارس ميدان الانشاء ، الذي عرفته بآثاره وقطفت من نوّاره . »

وبكلمة مجملة اقول : لو لم ينصرف الامير شكيب ارسلان الى خوض غمار السياسة التي تتطلب الترسل اكثر من النظم لكان هو امير الشعراء لا شوقي . وسبحان مقسم الارزاق .

شاكر بك الخوري

قال لي موسى صفير صاحب مكتبة المعارف : كلفني شاكر بك الخوري ان افتش له عن واحد يقرأ عليه كتابه (مجمع المسرّات) فيصحّح له الخطأ النحوي والصرفي فخطرت انت ببالي ، فما رأيك ؟

وكنت قد فصلت من الكلية اليسوعية ومدرسة الفرير لانني محرر جريدة (النصير) المطالبة بتاليف (مجلس ملي) لابرشية بيروت المارونية، فاجبت :نعم.

فقال موسى : يدفع لك البيك عشر ذهبات عثمانية عند النهاية .

فوجمت ثم اجبت : لا باس .

وبلغ الخبر احد اصحابي فقال لي شاكر بك (عملته ردّية) ، وهو هجّاء قلما سلم من لسانه احد ، كبيراً كان ام صغيراً ، فلا تعرض نفسك .

فقلت له : وانا عندي ما عنده . اتخاف عليّ !

واجتمعنا اول يوم في دار البيك وشرعنا نقرأ ، فمرت كلمة (التقنيص)فقلت له : (التقمّص) ، فتفكر قليلاً وقال : التقنيص مفهومة اكثر . وبعد قراءة جملة او جملتين،مرت كلمة (تقاصصه) فقلت له :تقاصّه.فقال: وهذي اضرب من هاتيك.

فقلت له : اذن ماذا تريد مني ؟ قال : ابداء الرأي ، وانا أرى الموافق .

ثم جاء دور الشعر ، فعرض عليّ ابياتاً نظمها لتكتب تحت رسمه ، كما جرت العادة في ذلك الوقت ، قال الدكتور :

لا بـــد من وتجته   لقباحةٍ يبدي الغضب
او من مدحت قريبه   بزيادة عنـــه انورب

فهززت رأسي ، فقال : مالك انوربت انت ايضاً ؟ فقلت : لو غيّرنا هـذا الشطر الاخير ، فأومأ برأسه ان لا ، وانشد :

مهما فعلت فانـني ما بين قومي في عتب
لي أسوة بمسيحنـا فأقام ميتاً وانصلب

وهنا وقعت الواقعة ، فاصررت انا على القول : أحيا لعازرَ وانصلب ، وأصرَّ هو . واخيراً صاح بي :

أفضّل كسر الشعر مع حسن سمعه علـى نظم موزونٍ لسامعه قتل

ثم كانت الكلمة الاخيرة له ، فعلمت ان لا طبّ مع هذا الطبيب ، واني شاهد زور لا اكثر ولا أقل . وكان البيك مصاباً بالسكري ، فكان يبول بلا حيـاء فيذكرني ببشار . . . ورآني امتعضت فقال لي : مارون أنت مثل اولادي . لاتؤاخذني ، انا ملازم سريري ، وفي روحتي ورجعتي ، كل نصف ساعة ، تضييع وقت كثير .

وكان الظهر فقمت ، فقال : اقعد . خبزي اسود ولكنه صحي اكثر من خبز السوق الابيض . وانا جبلي مثلك . تتغدى معي كل يوم ، وتأخذ اجرتك وحبة مسك . . .

فضحكت والتفت الى (الكوميدينا) فأدرك حالاً وقال : يظهر انـك أخو راسي . . .

ومضينا في عملنا ، فانستني نظافة طعامه كل ما عداها . كان على المائدة يشرح لي اموراً كثيرة ويحدثني عن كتابه : (صحة المتزوج وزواج العازب) ويصارحني بما يتعلق بي من موضوع الكتاب ، ويقول : هـذه دفعة . قيّدها . فيدقّ قلبي واتذكر قول صديقي (في عملته) . ثم حدثني عما ينفعني من كتابيـه الآخرين (نائب الطبيب) و (صحة العين) وافاض ، ولما انتهى قال : هـذه دفعة ثانية . قيدها معك .

فقلت له : انا لا اقبض (عملة حكي) هذي بضاعتي ، ولو كانت تجوز كنت اغنى البشر .

فقال : قال لي صاحبنا موسى انهم خوفوك مني . لا تخف يا ابني . انت لستَ

ممن أطمع فيهم . كلْ ملوخيا . كلْ لا تستح .

فقلت : اخاف ان (تملخ) رقبة حسابي ، فضحك وقال : خطيتك في رقبتي . احرق دين (الجاط) . كلْه كلّه . حسابك رقبته غليظة لا تنملخ ...

وكان شاكر يتنادر حتى على اولاده ، فلما دخل علينا ابن له طويل قال لي : تعرف ماذا انتقيت له وظيفة ؟ فبهت . فقال : ان يضوّي قناديل البلدية لانه لا يحتاج الى سلّم . طول بلا غلة ...

وظللنا شهرين ثلاثة نقرأ ونتغدّى ، وقبضنا اجرتنا علاوة ...

هو ذا حق خبزاتك ايها الرائد الذي لم يكذب اهله . فكتاب (مجمع المسرات) فارياق من طراز آخر . كشكول طريف ، وصاحبه مطبوع على النكتة القارصة . كان يشتريها بالثمن الموجع كل من يتعرض له ، ولذلك هابه معاصروه كما هابوا بشار بن برد . كان هجاء محترفاً لا هاويا كالحاج عمر الأنسي . وقد أبقى هجاءه السخن لديوان سماه (مجمع الحشرات) ولكنه لم يظهره في حياته . ولست أدري اذا كان (قبض) ممن هجاهم حين فتح باب الاشتراك بكتابه (مجمع المسرات) فعدل عن ذاك كما حذف الكثير من هذا . لقد كان الاشتراك بكتابه جزيةً أو ضريبةً أداها الاغنياء عن يدٍ ، ليسلموا من لسانه ...

فكتاب (مجمع المسرات) ترجمة حياة ، ومذكرات مكتوبة باسلوب طرافته في بساطته . ليس يسأل صاحبه عن الخليل ولا الفرّاء . فيه صفحات من تاريخ لبنان ووصف للحياة في عصر مؤلفه ، وفيه اشياء عن مصر وغيرها من الامكنة التي حلتها ركابه . فالرجل بشّاري فارياقي ، ولو كان في عصر الشدياق وقرأ ركاكته ورطانته ولحنه لشمّرت الحرب عن ساقها . فهو من هذه الناحية فقير جداً جداً . واما من ناحية الشخصية فغنيّ . إلا انه يظل في الحالين هجّاء عصر النهضة ، ولوناً طريفا من الوانه ، فكل كتابه نكات ونوادر . والذي لابسه كما لابسته ، ورآه في مباذله كما رأيته ، يقول مثلي : انه نكتة النكت .

والان فلنعرض عليك نماذج بضاعته لتحكم انت بنفسك . وصف شاكر بك حياته من أولها الى آخرها كما تذكّرها ، فهو يزعم لنا انه لم يدوّن شيئا منها قبل

ان فكر بتأليف كتابه هذا الذي يقع في سبعمائة صفحة من القطع الكبير والحرف الوسط . حدثنا شاكر عن (درسه العربي) في (المدرسة الوطنية) للمعلم بطرس . قـــال :

كان معلمنا الشيخ ناصيف الشهير ، فكان يقول لنا — في الصف أول موّال عمله ، ويبتديء يعمل (مطلع) على المعنى . وكان يقول انه هو الذي علّم ذاتـه ، وان المعلم بطرس البستاني يعرض عليه تأليفه القاموس محيط المحيط . وكان يعطيني الكرّاس المصلح لأعطيه الى المعـــلم بطرس ، وكان يقول لي عند ذلك : أنا (القاموس السيّار) .

وعند غيابه كان يوكل ولده الشيخ ابراهيم بالدرس . وكان لابساً — اي الشيخ ناصيف — عمامة سوداء مع قفطان وجبة وصرماية حمراء ، يحلق لحيتـه وهو بسن الشيخوخة ، وكان بيته قريباً من المدرسة وهو من المولعين بشرب القهـــوة والتدخين ، وقد كان يعهد إلي باشعال سيكارته او غليونـــه ، فكنت اذهب الى خارج الدرس وأشعل له الغليون بعد ان ادخن فيه قليلا ... وكثيراً ما كنت أهمل دروسي ولا اجيب على السؤالات ، فكان يلتفت الى المرحوم اخي خليـل ويقول له :

اخوكَ اخو مكاسلةٍ وجهـل فقل لي يا خليـلي كيف انتَ

وكان له صوت جرش ولسانه غير فصيح لا تفهم كلامه الا بصعوبـــة ، وهو مولع بفن الموسيقى وصوته لا يطابق النغمات . وكان معنا احد التلامذة له صوت جميل ، كان الشيخ يغني امامه بعض تواشيح يتعلمها [1] .

ويخبرنا شاكر ايضاً انه اسس مدرسة لما أيس من الوظيفة ، ثم تركها عندما وفق الى عمل . ألا يدلنا هذا على ان مهنة التعليم كانت ، كما هي اليوم ، عمل من ليس له عمل !

ويحدثنا عن الخوري موسى الذي علمّـه الهجو . ويقول : « ان الخوري موسى آية في الفصاحة والعلوم والعفة والاستقامة ولكنه مصاب بداء البخـل فكان يجمع

---

١) مجمع المسرات ص ١١٦ و ١١٧ .

كثيراً ولا يصرف شيئاً . ما اضاف احداً بزمانه الا لغاية او لخدمة او لجرّ مغنم».
ووقعت العداوة بين الخوري موسى والدكتور بسبب امرأة فقيرة عالجها هو ، وكتب الى الخوري موسى « لاعطائها كم رطل من الطحين ، فمزق الخوري الورقة ولم يعطها شيئاً » فاشتد الخصام بينهما فصار الخوري موسى يشيع ان الدكتور « كافر بلا دين » فكتب شاكر (قانون ايمان) جديد هذا هو :

(أؤمن بخوري واحد ضابط كل وقف الموارنة ، ما يرى ولا يرى ، وبشماس واحد ابنه الوحيد ، لا ينقص ولا يزيد في بيع ، ونؤمن بطانيوس بو ناضر المنبثق من الخوري والشماس ، وبكنيسة واحدة بسكنتاوية . وبخوري واحد يبقى لدهر الداهرين ، ليكفّر الاحياء والاموات آمين .)

ثم قال في المحترم شعراً ، كان باكورة الهجاء :

لا تعجبوا ان رأيتم بعضَ طائفةٍ ... في البخل قد شهروا سراً واعلانا
لانهم قبّلوا عند السلام يـــداً ... للأبّ موسى فأعداهم كما كانا
لو مسّ حاتم طيٍّ كفّ حضرته ... لكانَ أبخل خلق الله انسانا
ولو حوت داره ماء الفراتِ وقد ... تملّك النيل اكراماً واحسانا
وفي الصليب أتى يسوع سيده ... وقال يا ابني موسى ، بتُّ عطشانا
ما جاد عن كرم في بلّ اصبعه ... وقال : مت . ان فضل الموت ظمآنا.
قد سنّ موسى عهوداً في شريعتــه ... وقبّةَ العهـد للايمــان اعطانا
من جسها كان منقاداً الى عدم ... يموت في الحال محروماً ومنهانا
فقبة الابّ موسى بيت مونتهِ ... رغيفها بات كالأقـداس منصانا
عزريل يحرسهـا من كل ناحيـة ... انْ حضرة الابْ عنها بات غفلانا

هكذا شق شاكر طريقه،وراح يهجو الاصدقاء والاعداء، فالنكتة عنده اقوى من المحبة ، وان قيل ان المحبة اقوى من الموت ، ولهـذا قال يهجو لحية صديقه الدكتور سليمان مشاقه ، معارضاً قول المتنبي : نشرت ثلاث ذوائب :

ذو لحية دكتورُ ابنُ مشاقـةٍ ... قصد الغـديرَ بعصر يوم الاربعا
خلع الثيابَ وغاص قصدَ سباحةٍ ... فأرانيَ (الذقنين) في وقتٍ معاً

وقال في أمير كان يلزم السكوت ولكنه نطق حين قابل الدكتور :

اميرٌ حافظٌ ابداً سكوتاً — وقد عدّوه من بُكم الزمان
وقد أنطقته لما رآني — فظنوا أنني بلعام ثاني

وقال يهجو قسيساً لم يعجبه لسعيه بين الناس :

وقسٍّ للفساد غدا إماما — ولم يقضِ الصلاة ولا الصياما
ولم يحفظ من الانجيل الا — سوى : ماجئت كي القي سلاما ..

وقال كابن الرومي في صاحب لحية :

لحية أبشع منها — وجه حاويها المؤرّخ
بقباط ارّخوها — فاستحقت قلب أرّخ

وقال في طبيب كبير الشاربين :

في شخص جرجس مارون قد اجتمعت — حاجات طبٍّ حوت كل العقاقير
رؤياهُ مسهلةٌ ، أيديهِ قابضةٌ ، — وشارباهُ رباطٌ للبواسير

وقال يهجو قاضياً :

اذا قاضي بلادك صار يبطي — فذاك دليل (ابجد ثم حطي)

وقال في اناس ارادوا لعب الورق راغبين عن سماع شعره :

ولقد حفظتُ عن المسيح وصيةً — وهي التي لا تحقدوا بل إصفحوا
وعصيته في طرح شعري بينكم — يا ليتني قد طعت في لا تطرحوا ..

اي : لا تطرحوا جواهركم امام الخنازير .

وحضر رواية الوردتين للمعلم عبدالله البستاني ، فكثر المقرظون حتى لم يبق وقت لاستماع الرواية ، ففض هو المشكل بقوله :

روايةُ الوردتينِ اليومَ قد ظهرتْ — فقرّظتْ كلّ تقريظ كتلبيخ
لا شكَّ في ان ذا التقريظ ينفعها — لا بدَّ للورد من زبل لتسبيخ

قال : وقلت في جريدة استغنم صاحبها فرصة نفوذه ، فكان يطرحها للاشتراك حتى اشترك ثلاثمائة شخص لا يعرفون القراءة :

هذي الجريدة في البلاد جرادة — امسى بها (لبنان) اصلعَ أجردا

ماكولهـــا من ابيضٍ أو اصفرٍ   وبرازهـــا ابـداً تراه أسودا

ومرّ على دير رهبان لم يعجبهم ولم يعجبوه فقال مختتما قوله فيهم :

لم يشبهوا يسوع في تاريخهم   الا بميلاد لهم بـــين البقر

وامتدت لشاكر الخوري شهرة حتى صار كالحطيئة واكثر ، ويا ويل من لا يكرمه ، ولهـــذا تراه يصبُ جام غضبه على هؤلاء ، فقال في كاهنين كانا (يقدّسان) معا :

لما رأيت صليباً فوق مذبحـه   ما بين حنّا وجبرائيل قسّينِ
حسبته واقفاً من فوقِ جلجلةٍ   وانـه لم يزل ما بـــين لصين

ودخل على رجل مقامر فقال له : الهيتني . فقال :

الهيتني يـا شاكـراً   ما هكذا فعـل الصديق
فاجبتـــه انيّ الذي   يلهي الحمـار عن العليق

وقال في دراهم بخيل :

لا لذة لبخيل في دراهمـــه   إلا برؤيتها في الجيب كالهرم
دراهم البخل كالأسنان في رجل   تأتي وتذهب بالأكدار والالم

وقال في كاهن اعترف له :

من بعـد تعداد ذنبي والقرار بـه   قد (حلني) كاهني من كل تقصيرِ
ناديتـه : يا ابي ، ارجوك مغفـرة   نسيت ذنباً . فاني شاكر الخوري

ونظم للبطرك الياس الشهير ابيات مديح وقعها هكذا :

قديمـاً شاكر الخوري   جديداً شاكر البطرك
واحيـانا . لمطرانٍ   اذا قاسمني شكـرك

ودخل على هذا البطرك بعد سنة ، فسأله اذا كان لا يزال شاكر البطرك ، فقال رجل اسمه سليم بك : ان شاكرا يظل شاكرا ما دام ذنبه محفوظا ، فقال الدكتور له : صدقت ، والذنب ذنبهم اذا لم يبقوا لي ذنبي (سليم) .

فالرجل في اجوبتـه المسكتة لا يقصر عن بشار : قـالت له مرة سيدة تدّعي الجمال : يا دكتور ، لمـاذا كل أهل الجبل وجوههم ملخبطة ، فأجابها على الفور :

لأنهم لا يغيرون البدار ...

وقال في رجل ضخم انكسر (الديوان) تحته :

ثقيل قد علا ديوان داري　　وكسر جحشهُ وبغى اعتذارا
وقال بخور جحشك. قلت كلاّ　　فان الجحش لم يحمل حمارا

والشاعر مخترع في كل غرض من اغراض الشعر ، ولا يعنيه إلا تصيد النكتة، فاسمع كيف يخاطب عباس حلمي خديو مصر :

اتيت لمصر منقاداً لأمر　　من الله المحيط بكل علم
يقول لخلقه هيا اليها　　بأمن وارتعوا بديار سلم
ديار للفراعنة ادخلوها　　ولاتخشوا اذى رقٍّ وظلم
لئن ارسلت مع فرعون سخطي　　فقد ارسلت مع عباس حلمي

وظل في مصر حتى عيد الاضحى ، فمر امام فخامته مع وفود المعيدين ، فناداه عباس باسمه واستقدمه ، واعطاه يده ، فقال له مرتجلاً :

حلمتُ ان زرت مصراً　　انال جاهاً اعلمي
فالحلم اضحى يقيناً　　ماعشت اشكر(حلمي)

وفي الوصف لا يقصر شاعرنا عن الابداع ، قال في مرملة :

ومرملة تمرمرها حشاها　　تعزّي مَنْ بغمٍّ قد براها
اذا سكب اليراع دموع حزن　　تنشفها برفق مقلتاها

وقا في (نديا وإيزا) بنتي أخت مظفر باشا متصرف جبل لبنان :

كأنّ عيون نديا ثم إيزا　　اصابت قلب (مركوني) بفتك
تحرك قلبه لحراك عين　　فنبه فكره من دون شك
لسير الجاذبية دون وصل　　فأنشا التلغراف بدون سلك

وآخر دليل على قوة بديهته تعطيك اياه هذه الحادثة التي رواها . ترك شاكر بك بيروت عام ١٩٠٧ قبل الميعاد ، فسألت عنه المركيزة مدام فريج فقالوا لها انه جنّ لتعطيل شغله ... وعاد شاكر ، وراح ليهنيها باحد الاعياد ، فشهقت لما رأته وقالت : خبروني انك جننت .. فاجابها : لو كنت معرضاً لهذا المرض لكنت

(جننت) يوم رأيتك اول مرة . فضحكت وضحك المركيز !

هذا هو شاكر الخوري . اخاف الناس هجوه ربع قرن واكثر ، وهو اليوم لا يخطر لاحد ببال ، الا عند ذكر بعض ما يؤثر عنه من نوادر . لقد نقلت منها ما يقبل ، اما الحامضة كثيراً فظلت في كتابه .

ان شاكر الخوري يقتبس من الكتب الدينية اكثر نكته ، فهو في هذا كابي نواس . وان كان في غيره كابن الرومي وبشار .

ورب قائل قال : لم يذكر شاكر الخوري الا ليخبّرنا انه اصلح كتابه. عفواً سيدي ، فالكتاب مشحون كفلك نوح بالغلط ، فلا فخر لي في هذا، ولكن الرجل يستحق ان يقف مع كبار هجائي العرب ، لو صحت عبارته ، فما اصح قول مثلنا العامي فيه : يا حَينَهُ لولا عينه .

أسعد رستم

اما الشعر الهزلي الانتقادي فكان رائده اسعد رستم ، وقصائده مشهورة يدور الكثير منها على الالسن . وهذا الشاعر مثل شاكر بك فقلما يبالي بالفصاحة . عاد من اميركا عام ١٩٠٨ فكان اذا مشى في بيروت تغوص رجلاه بالوحل ، فقال قصيدة هذا مطلعها :

بلدية بيروت انتحست قد بطرت من كثرة ما لحست

وعلى هذا الغرار طبع اكثر شعره ، فلذّت الناس مطالعته ، لان هزله كهزل ابي نواس يضحك ولا يؤلم ، في حين ان نكتة شاكر الخوري توجع بل تقطع الظهر ألماً وضحكاً ...

واذا لم اتعرض كثيراً لاسعد رستم فلانه لا يزال حياً ، وليس هو من (المنقطعين) ...

شُعَراءُ مُتَفَلسِفونَ

محي الدين الخياط

•

شاعر رائق الديباجة متينها ، تلمذ للشيخين الاسير والاحدب ، فكان رائداً كبيراً من رواد النهضة بما ترك لنا من تآليف في الاصول والتاريخ حتى الفقه ، فمهد الطريق للناشئين . كان محرراً لجريدتي الاقبال ، وثمرات الفنون ، وله مقالات شائقة ، وقد عرب عن التركية رواية (الوطن) التي وضعها نامق كمال بك ، ومن ترجمته لها ندرك انه كان حر النزعة . وله ايضاً تعليق على شرح نهج البلاغة ، وتفسير لغريب ديواني ابي تمام وابن المعتز .

اما اشهر ما له من الشعر فقصيدة عنوانها (سوانح وبوارح) بناهـا (مخمسة) على احرف الهجاء ملتزماً في كل مخمس قافية توحد القصيدة ، وهاك مطلعها :

هيولى الكون في صور الهباء إلامَ نجول في هـــذا الفضاء
اتبقى يا فناءُ بلا فنـــاء ؟ ام الافناءُ سلسلة البقـــاء
ام الابقاء مجلبة الفناء ! ؟

الى ان قـال مخـاطباً الانسان ، وقـد رآه خلاقـاً مبدعـاً يريـد ان يطاول خالقه :

فسرْ في الارض زهواً او زميلا فلن تصل الجبـــال الشمّ طولا
وليس لخرقهـــا تبغي سبيـــلا نعم حاولتَ فيها المستحيـــلا
ولكن ذاك حول الكهرباء

ولم انقل ما نقلت للرواد الا لأدل المتأخرين على مـــا عالجه الاولون من مواضيع ، وانهم فكروا ، كجميع البشر قبلهم ، بما نفكر به نحن اليوم ، وليس شكنا بالجديد ولا البدع .

سليم عنحوري

هو مؤلف بدائع ماروت ، او شهر في بيروت . والجوهر الفرد او الشعر العصري . وله كنز الناظم ومصباح الهائم . ورواية الانتقام العادل والجن ، وله مقالات شتى في الجنان ، وفي المقتطف منذ نشأتها . الشاعر مطبوع حسن الديباجة حاول ان يحول الشعر عن مجراه فقاله في مواضيع علمية واخلاقية وادبية، وفلسفية اجتماعية ، حتى تناول ما وراء القبر ايضاً . فكان رائد تجديد في ما نظمه من مواضيع . فمن قصائده المشهورة (غادة العصر) التي يقول فيها :

انا لا امدح الغادات الا　　اذا كان العفاف لهن بردا
ولا ادعو النساء ظباء خدر　　اذا ما صرن بالتهذيب أسدا
فنفس الحر تأبى حب خود　　تريك تهتكاً زنداً ونهدا
تزيد تغنجاً وتتيه عجبا　　متى لحت ، ولو بالوهم ، مُرْدا

ثم يمضي في وصف حركات ، غادة العصر وسكناتها حتى يقول :

تجوز الاربعين وان تسلها　　تقل لك بنت عشرين واحدى
تسامر في الدجى أوراق لهو　　وان برعت فشطرنجاً ونردا
لتستلب النضار بلا حياءٍ　　من الضيف الذي تضنيه سهدا

فيا ليت شاعرنا عاش الى هذه الايام ليسمعنا قصيدة جديدة . . . وللشاعر عنحوري لامية عنوانها (الجامعة) كانها معارضة للامية ابن الوردي ، وهو يقول في اولها :

فتلقّ الآن عني حكما　　غير ما أثبتهُ القوم الأوَلْ

ولكنني ، ويا للخيبة ، قد رأيتها نظم آيات وكلام مأثور ، فلم يأتنا بجديد إلا حين حث الناس على تعليم المرأة والرفق بها .

وتحت عنوان (اوربا) قال قصيدة يخاطب فيها ملوك الغرب :

وفغرتم لابتلاع الارض　　طراً شدق كاسرْ
وانتزفتم ثروة الناس　　مكوساً وخسائر

أملوك يصلحون الارض انتم ام عناتر
فدعوا العالم يرتاح فما السلم بضائر !

وقال تحت عنوان (حقيقة الكون) ، والضمير عائد الى الانسان ، وان ذكر الحيوان :

بالنبتِ يعيشُ ، وبعدَ الموتِ لعيشِ النبتِ هو السببُ
فيعود جماداً ، ثم نباتاً ثم حييويناً يثبُ

ويقول بعد هذه القصيدة بيتين في الموضوع نفسه :

يتغذى النبات من حيوان بعد موتٍ كما رواهُ الثقات
ومن النبت يغتذي حيوان اذن الموت للحياة حياة

ثم يختم هذا الديوان بقصيدة مملوءة توبة واستغفاراً ورجاء . ولعلي مصيب اذا قلت : ما أرى الشاعر سليم عنحوري في ديوانه (الجوهر الفرد) إلا شاقاً الطريق للزهاوي وغيره ، ممن عالجوا هذه المواضيع المعرّية شعراً .

تامر الملاط

شاعر افسدت شعره السياسة ، ثم جنت عليه فقال في مصيبته اروع ما قال .
قال تامر يوم مات واصا باشا رابع متصرفي لبنان :

قالوا قضى واصا وواروه الثرى فاجبتهم وانا الخبير بذاته
رنوّا الفلوس على بلاط ضريحه وانا الكفيل لكم بردّ حياته

وعزل تامر في عهد مظفر باشا من منصبه القضائي وحبس ، فخربت ناحية من دماغه ، وقد قال في ذلك :

واذا الدماغ تناولته علة خاب الرجاء وضاع جهد الآسي

وقد وصف نفسه في قصيدة عظيمة أولها : ايه فما تحت السماء جديد ، قال فيها:

فلئن تروني نضو خطب باليا فالقول فخم والكلام جديد

وبرّئت ساحة تامر ، ولكن بعد خراب البصرة ، وبعدما قال في تحليل شخصيته ميميته التي حفظها الكثيرون في لبنان :

دعـــاني أجرع الغـما فجفـني بالأسى نمَّـــا
وخـــلاني اصيحابي وسهم الغدر قد أصمى
فـــلم ابصر أخاً يرجى ولا خالاً ولا عمّـــا
رأيت النـــاس تخشاني كأني وابىء الحمـــى
فـــلا أدري أحياً بتّ ام ميتـاً قضى ظلمـا
أشكّ اليـوم بي حتى وجودي خلته وهمـا
مقود غـير مختـار كأني آلة صمّـا
ويأتيني البكا عفواً ويعصيني البكا لمّا
ولا اسطيع جذب النفس عن ضحك بيَ ائتما
وحال كالغنى شكلاً بفقر مدقـع نمّا
وقالوا جنـة عاثت بعقـلي فالتوى رقما
وقالوا انمـــا القسيس فيـــه نافع حسما
خرافـات واوهـام تعيب العقـل والعلما

وللشاعر قصيدة سينية طيبة عنوانها (وحدة الدين) قال فيها :

واعمد الى الوجدان لا تعدل بهِ شيئاً ، ولو مطر الغمام طقوسا
فالدين مـا سَنّ الضمير محـذراً يومـاً عـــلى المتعطلين عبوسا
واذا نظرت الى الوجود رأيته بالحبّ يحيا سَائساً ومسُوسَا
والدين آخر ما يزول اذا اغتدت هـذي العوالم ظلمـــة حنديسا

وله دالية تاريخية تقـــدم ذكر مطلعها . وقال قصيدة كالتي قالها البحتري في (الذئب) ، امـا شاعرنا فتخيل انه يقاتل نمراً فقال :

وليلٍ تكاد الكفُّ تلمس جلده ترامت به الظلماء سدلاً على سدل

ومضى يطبعها على غرار «لامية العرب» في الغريب،حتى ختمها كما ختم البحتري قصيدته :

وقمت فاعددت المدى ، وسلخته ، واقلعت عنه أنفض النعل بالنعل

كان تامر في قصائده الاخرى مجدداً ، فلا يضيره ان كان في هذه مقلداً .

ولتامر في الفكاهة ، يوم كان سليماً غير مَوْسوسَ ، تشطير لابيات قالها محمد باشا المخزومي في (كبوت الشيخ نوفل) الذي يضرب به المثل عندنا . فهذا النسر اللقماني لم يمت حتف انفه ، بل اغتالته المنية في ساحة النضال . سقط تحت دولاب العربة في (نزلة الشحار) على طريق بتدين ، فمات ميتة الابطال بين سنابك الخيل ، ولهذا تفضّل المخزومي برثائه : [١]

(وكبُّوتٍ له خمسون عاما)	به مرعى لأنواع الذبـــابِ
تراهُ بـــين ترقيع ورتقٍ	(يقاسي بالعنا مرّ العذاب)
(ولمـــا همّ صاحبه بقلبٍ)	على وجهٍ غدا عكس الصواب
وألقاهُ عـــلى متنيه عجبا	(يعيدُ له به زهوَ الشباب)
(ترامى فوق دولابٍ ونادى)	أنوفلُ كنْ جلوداً في مصابي
وحسبي انـــني عمّرتُ دهراً	(فما لي راحة بسوى التراب)

(١) الكلام المحاط بهلالين للمخزومي باشا ، والآخر اي التشطير ، للملاط .

سليمان البستاني

•

لا بد للبناني من لغة ولغتين مع اللغةِ التي يتكلمها ، اما ذو اللغة الواحدة فيعدّ نصف قاريء وكاتب. فمنذ اعصر كانت السريانية والعربية مشدودتين في قرن عند اهل لبنان ، ثم عرفوا لغات عديدة معها . اما سليمان البستاني ففاق من تقدموه من الرواد ، فعرف خمسة عشر لساناً حتى لغة (النوَر) ان صدق من ترجموا له .. لانهم رووا مثل ذلك عن المطران يوسف الدبس .

استهل سليمان كغيره من الرواد فكان معلماً ، ثم عاف التعليم وطاف اقطار المسكونة ، فكانت له من تلك الرحلات ثقافة اخرى هي غير ثقافة الحبر والورق.

اما الألياذة ، وهي اجلّ اعماله ، فليس هو اول ماروني نقلها الى لغته الاصلية. فالرهاوي ، قبله ، قد نقلها الى السريانية منذ مئات السنين . ثم نقلها غير الرهاوي الى العربية نثراً . ولكن إلياذة سليمان كان لها شأن لما ظهرت ، فاحتفلت مصر بصاحبها يوم لم يكن يحتفى برجل لاجل كتاب ... فاقيمت حفلة تكريم لسليمان بالقاهرة خطب فيها صروف وغيره .

ان لألياذة سليمان فضلاً على غيرها بما علق عليها من شروح تقربها من فهم القاريء . فالألياذة شعر يوناني تاريخي أفرغت فيه جميع معارف القوم في ذلك الزمن . اما موضوعها فوصف وقعة من وقعات حروب طروادة ، توسّع فيها هوميروس فكادت ان تكون موسوعة . وصف فيها طباع الناس وعاداتهم وعمرانهم وطرق عبادتهم ، فدلتنا على ان اليونان كانوا اصحاب فلاحة وصناعة وتجارة وعلم وفلسفة وعتاد حرب . واذا بلغت اوربا اليوم ما بلغته اليونان في كل

ما ذكرنا ، فهي لا تزال مقصرة عنهم في النقش والحفر وصنع التماثيل .

قضى سليمان عشرات السنوات في دراسة الألياذة ، وتعلم جميع اللغات التي توطئها له ، وظل دائباً يرحل ويقيم حتى رأى بعينه اخيراً مواطن حوادثها ،فافاد منها ما كان قد فاته . واخيراً انبرى لها ، ونظمها ، وشرح لنا غوامضها . وكانه رآها لا تكون تامة بلا مقدمة فقدم لها بمئتي صفحة ، فجاءت تلك المقدمة كتاباً اشبه بمقدمة ابن خلدون لتعدد اغراضها ، ودقة بحثها . حلل فيها اولاً نسب هوميروس ، وخبرنا انه (ابن النهر) الذي ولد على ضفته ، وان اباه جني . ثم مات ذاك الجني ... فتزوجت ام هوميروس معلماً كفل الشاعر . ثم مات المعلم ايضاً فحل هوميروس محله . وفي احدى السفرات فقد هوميروس بصره فاطلق عليه هذا الاسم الذي معناه الكفيف .

ويحاول البستاني إثبات شعر الألياذة لهوميروس ويقدم آراء وجيهة تؤيد ما زعم . اما ناقد الطان الشهير – ديشان – فيقول : الألياذة والأوديسة هما شركة ادبية .

وينتقل سليمان الى الكلام على التعريب فيقول انه « نقل المعاني ورسمها رسماً صحيحاً ينطبق على لغة النقل ومشرب قرائها » وهو يرى ان اللغة العربية خلو من الملاحم ، ثم يعد رسالة الغفران من الملاحم ، ولكن غموض عبارتها وخلوها من الاسلوب الشعري يخرجانها من هذا النطاق .

ويخبرنا الاستاذ في مقدمته انه بدل التشابيه بمثلها لان اليونان يشبهون بالخنزير البري من نشبهه نحن بالاسد . ثم تحدث عن الادب العربي وشعره بما لا حاجة الى ذكره هنا ، لان طلاب اليوم يعرفون اكثره . اما يوم ظهرت الألياذة فلم يكن لنا شيء من هذا الطراز .

ويفيض سليمان في موضوعه هذا حتى يقسم الشعر الى انواع ، ثم يذكر توارد خواطر لهوميروس وامريء القيس ، وغيره من شعرائنا الاقدمين . ولا عجب في ذلك فمتى تساوت البشر جاهليةً تساوت تفكيراً .

ويذكر الاستاذ خاصيات الاوزان العربية فيرى ان بحر الخفيف اكثرها ملاءمة

للقصّ والشعر الملحمي . ويقول في بطل الالياذة انه كعنترة في حادثته ، ثم يقابل بين شعر هوميروس وشعراء العرب في المواقف المتشابهة . وينبئنا ان هوميروس كان لاهوتياً وقد جعل وكده إنصاف المرأة . ولا ينسى ، اخيراً ، ان يشير الى ان للارز ذكراً في الالياذة ،وقد رُسِم على وشاح هيلانة !! .

لقد شارك البستاني هوميروس في الشعر ، ثم شاء القدر ان يشاركه ، ايضاً ،في آخر العمر، بالعمى ، جزى الله الشاعرين عن الادب خيراً .

وللبستاني غير ترجمة الالياذة كتاب (عبرة وذكرى) الذي طبع عام ١٩٠٨ يوم كنا نبثّ له الدعوة ليكون نائب بيروت في مجلس المبعوثان،فكان ثم صار في مجلس الاعيان، واخيراً أمسى وزيراً خطيراً يرجع الى رأيه في الجلى . ولعل نثر البستاني لا يقل عن شعره جودة .

اما شعره في الالياذة فهذا رأيي فيه :

انا لا اعرف اليونانية لاحكم ، ولكن شعر هوميروس — كما يبدو لي من خلال الترجمة — شعر قليل التخيل ، ولست اعلم الى من اعزو هذا التقصير . فاذا اردنا ان نعذر سليمان قلنا ما قاله الجاحظ : الشعر لا يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، واذا ترجم سقط موضع التعجب منه .

وقد رأيت سليمان في ترجمته الشعرية مقصراً عن سليمان في المواقف الوجدانية . فمن يقرأ شعره السويسراني يجده فيه أقوى شاعرية . قد يكون تراكم الاعلام من اهم اسباب التقصير البشع كقوله معرّباً:

أو إكسَذٍ أو ثيسَسَ بن أغيسَ من قد كان مثل الخالدين رزينا

وكقوله :

كذا ابن هرطاقسٍ آسيَسُ البطل . . . .

وآكماس بن أنطينور يصحبه أخوه أرَخلَيْخٌ كانا بصحبته

ان البستاني في ترويض هذه الاسماء اليونانية لتصير شعراً عربياً لهو اشبه بمن ينفق السنين ليعلم الدبّ الرقص ، ثم لا يفوز اخيراً الا برقصة دبّ ...

اما داء (الغريب) ، وسنتحدث عنه في بحث رواد المعلمين، فيبدو لنا ايضاً في

شعر صاحب الالياذة . فيا ليت سليماننا عربها نثراً .

واذا سالتني لماذا لم ينظم العرب ملاحم ؟ أجبتك مع ابن الاثير : ان الشاعر اذا اراد ان يشرح اموراً متعددة ذوات معان مختلفة في شعره ، واحتاج الى الاطالة بان ينظم مئتي بيت او ثلثمائة او اكثر من ذلك ، فانه لا يجيد في الجميع ، ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضي .

وقبل وبعد ، فالالياذة تظل وتبقى عملاً جليل القدر من اعمال الروّاد ، وكم للرائد من فضلٍ على قومهِ .

الرائدات

والغريب ايضا ان أوليات الرائدات ، كاوائل الرواد ، قد كان ادبهن شعراً. فعندما مات فرنسيس المراش نظمت اخته مريانا قصيدة في رثائه وبعثت بها الى (الجنان) ، فتهلل لذلك المعلم بطرس ، ورحب بها في جنانه ، لأن المعلم كان اول من دعا لتعليم المرأة .

فلمريانا المراش دُوَيْوين شعر مطبوع . اما الرائدات الاخريات فهن وردة الترك ، ووردة اليازجي ، وعائشة تيمور .

فلوردة اليازجي ديوان سمته (حديقة الورد) افتتحته بابيات وجهتها الى سميتها وردة نقولا الترك وهذا مطلعها :

يا وردة الترك إني وردة العرب　　فبيننا قد وجدنا أقرب النسب

اعطاك والدك الفن الذي اشتهرت　　ألطافه بين أهل العلم والادب

اما عائشة تيمور الرائدة العصرية فلها شعر طيب ، وهي عندي اخطر شانا من وردتينا ومن مريانا . كما انها تفوق ، ديباجة ، الكثيرين من طلائع الرواد . لعائشة ديوان (حلية الطراز) اهدت نسخة منه الى اليازجية فشكرتها هذه بقصيدة. ومن حق النساء ان يتشبهن بالرجال ، وخصوصاً في تقارض الثناء الذي قال شوقي انه يغرهن ... قالت وردة :

يا نسمة من ارض وادي النيل　　وردت فأطفت بالسلام غليلي

انت الفريدة في النساء فكيف لا　　اهوى حبيباً بات دون مثيل

علمتني قول النسيب وهجت بي　　ما هاج حب بثينة بجميل

ولوردة مشاركة في قول الرثاء فكأنها فيه بنت ابيها حين تقول راثية مارون النقاش :

الموت للناس كالجزار للغنم　　فليس يترك من طفل ولا هرم

وكأن القدر قد أطال عمر وردة ، لترثي جميع اهلها حتى اخاها ابراهيم فتشبه

نفسها بالخنساء ، حين تقول ، والضمير عائد الى الخنساء :

بكت وحيدا وأبكي ستة ذهبوا لكل محمدة بين الورى وجدوا

عائشة تيمور

هي بنت اسمعيل باشا تيمور ، اخذت العلم من وراء الحجاب ، عن جلة المشايخ وكانت تصغي الى مذاكراتهم كلما اجتمعوا في مجلس ابيها ، ومن شعرها قولها في وصف نفسها :

بيد العفاف أصون عزّ حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي
فجعلت مرآتي جبين دفاتري وجعلت من نقش المداد خضابي
كم زخرفت وجنات طرسي أغلي بعذار خطٍ ، او إهاب شباب
ما عاقني خجلي عن العليا ، ولا سدل الخمار بلمتي ونقابي
ما ضرّني أدبي وحسن تعلمي إلا بكوني زهرة الالباب

وقد قالت بعد شفائها من رمد اصابها :

سفينة العين قد فازت من الغرق واشرقت تزدهي من ساحل الحدق

ثم عاودها ذاك الرمد ، فقالت :

فوا اسفي على انسان عيني غدا في سجن سقم واعتقال
تمسّ المصحف الأسمى يميني وقد وضعت على قلبي شمالي
وانشده : لآيك طال شوقي وما لي غيرها عز ومالي

وهذه الشاعرة الكبيرة – بالنسبة الى العصر – من فئة المستعربين ، فهي تركية اصلاً ، ومصرية وطناً ، ولها شعر قسمته (ميّ) في درسها لها الى خمسة اقسام : الغزلي ، والاخلاقي ، والديني ، والعائلي ، وشعر المجاملة . ولعل اروع شعر عائلي قرأته لها ، فاحسست بقشعريرة ، رغم ان جلدي سميك ... هو قول الشاعرة بلسان ابنتها (توحيدة) التي فقدتها :

أمّاه قد عزّ اللقاء وفي غدٍ سترين نعشي كالعروس يسيرُ
قولي لربّ اللحد : رفقاً بابنتي جاءت عروساً ساقها التقدير

أمّاه ، لا تنسي بحقّ بنوّتي — قـــبري لئلا يحزن المقبور
صوني جهاز العرس تذكاراً،فلي — قد كان منه الى الزفاف سرور

اما الام فتجيب في القصيدة نفسها :

لا توصي ثكلى قد اذاب وتينها — حزن عليك وحسرة وزفير
قسماً بغض نواظر وتلهفـي — مذ غاب انسان وفارق نور

هـــذه هي الرائدة الكبيرة التي درستها (مي) في المقتطف درساً مطولاً ، فهل تنبري كاتبة من كاتباتنا لدراسة باحثة البادية وميّ فتقضي ما وجب علينا من الحقوق نحو هاتين اللتين يصح فيهما ما قاله النابغة في الخنساء .

الروّاد الكتّاب

المسرح، والجريدة، والقصة

برز روادنا في النثر اكثر منهم في الشعر . كانوا في ذاك زعماء تجديد ، اما في القريض فظل بينهم وبين كبار زعمائه اشواط ، وان جددوا فيه . واذا كان قد لقي شعرهم المدحي استحساناً في عصرهم ، واجيزوا عليه بالمال والمراتب السنية ، فما ذاك الا من باب قول المثل : من قلة الرجال سموا الديك أبا قاسم ...

اما أثرهم في النثر فيسجل لهم في تاريخ الادب اسم الفاتحين . اعانتهم على ذلك معرفتهم اللغات المتعددة ، فطعموا الادب هذا التطعيم الذي جنى ثماره (رجال النهضة) .

وراح هؤلاء يطعّمون ويطعمون حتى صارت روضة آدابنا فواحة العبير دانية القطوف .

اللهم ، زد وبارك .

اللهم ، اجعل المستقبل أمامنا لا وراءنا .

يا فتاح ، يا عليم .

١١

روادنا والقصة

●

اظن ، وظني حق هو ، أن ادبنا الحاضر كاكثر الآداب العالمية الحديثة ، ترعرع وشب في حضن (الجريدة) . فالادب الانكليزي الحديث ، كان ، اولاً ، ادباً صحفياً ، وما ظهر الكتاب عندهم الا بعد ما اشتد ساعد المنشئين في ساحة النضال الصحفي .

اما الكتاب عندنا ، في هذه الحقبة ، حقبة النهضة الحديثة ، فكان اول ما ظهر منه إمّا ترجمة كتاب ديني لا بد منه (لخلاص النفوس) . يخرجونه كما تخرج دول اليوم كتاب (الدليل) للسائحين والمصطافين لهدي الناس سواء السبيل . . . ودلهم على مفاتن بلادهم ومحاسنها — وأيّة رحلة أجلّ واخطر من الرحلة الاخيرة . واما ان يكون تصحيح كتاب تعليمي أو تأليفه او طبعه .

ولما عرفنا الصحف والمجلات كان ادب المقالة اولاً ، فكتبت لتوجيه القراء في ميادين الحياة العديدة الشؤون والشجون . ثم تلاه ادب القصة والأقصوصة والحكاية . وهذه الالوان كلها من (مقبلات) المأدبة الصحفية ليقبل عليها القاريء بنهم ولذة ، يوم لم يكن يعني القاريء ما يعنيه اليوم من انباء ومشاكل اجتماعية مختلفة .

اما الكتاب العربي الادبي الاول فخرج من دهليز الجاحظ البصري العراقي منذ الف ومئة سنة ونيف ، كما خرج الكتاب العربي الادبي الحديث من كوخ اديب لبناني شردته عوادي الزمن عن وطنه ، وهو احمد فارس الشدياق الذي يربطه بالجاحظ اقرب النسب . اخرج الشدياق أبكار الكتب الطريفة - الواسطة ، وكشف المخبا ، والفارياق — قبل ان أخرج للناس جريدته (الجوائب) التي صارت فيما بعد ، بطرفها النفيسة من مقالات وحكايات ، ونوادر واخبار ، و(جمل)

ادبية ، وسياسية ، مدرسة سيارة تثقف القاريء العربي تحت كل كوكب .

وعرف اللبناني ، قبل غيره ، لاسباب دينية ، كثيراً من الألسن الاجنبية ، وتعرف الى ما عند نوابغها من روائع ، فترجم واقتبس واقتدى بهم في كل فن ومطلب .

تكلمت فيما مر عن شعر طلائع النهضة ونثرهم ، ولا بد لي هنا من الكلام عن القصة ، ذلك اللون الادبي الذي يكاد يطغى ، اليوم ، على ادبنا الحديث . كان اكبر همّ الاديب ، فيما مضى ، ان يكون شاعراً ، اما اقصى ما يروم ، اليوم ، فهو ان يحصى في عداد القصصيين .

فأدب القصة الذي اضحى قبلة الشباب حين يقفون في هيكل الفن ، قد كاد يطمس كل لون من الالوان الادبية . ان هـذا الضرب من ضروب الادب يكاد يكون كل شيء في آداب الدنيا جمعاء . فحنيننا الى رؤية ادب عربي عالمي لا ياتينا الا من هذه الناحية ، ناحية الادب القصصي . قرأت كتاباً اوربيـاً يتحدث عن الآداب العالمية مقارناً بينها ، ودالاً على تراث كل امة فيها ، ولو لم يكن لنا كتاب ألف ليلة وليلة الذي يعدّه اندره جيد بمنزلة الإلياذة وغيرها من الكتب المحتلة اعلى قمم الخلود ، ما كان هذا المؤلف أتى على ذكرنا . فالقصة اليوم ، على اختـلاف انواعها ، هي قوام الادب الحديث وملاكه . رافقتِ الانسانية من المهد ، وسوف تماشيها الى اللحد . كانت ، في الامس ، احلاما بشرية حافـلة بالجنّ والعفاريت والمردة ، مملوءة حنيننا الى بساط الريح ، وخاتم لبيك ، والقضيب السحري ،والقبع الأخفى وغيرها ، فأصبحت الآن حقيقة ، بل قل قطعة من الحياة ، اذا لم نقل انهـا الحياة بعينها . فأعظم بالروائي الحاذق مبدعاً يخلق عالما لا يموت . فالخطبة، والمقالة، والقصيدة، لا تستهوي الاطفال والصبيان والشباب ، بل الرجال الذين نسميهم بحق أطفالا كبارا ، كما تستهويهم تلك القصص الرائعـة التي تلقي على الحيـاة أشعة ثاقبة تمزق ظلماتها ودياجيرها .

تذكر جدّك الشيخ كيف كان يرى كل اللذة في ان يقص عليك وعلى غيرك حكايات حياته وما فيها من مغامرات . ألم تر الى غضون جبينه كيف كانت تمتليء

نوراً إذا رأى في وجوه السامعين اصغاء اليه وارتياحا لحديثه ، واعجاباً بقصصه .

فالقصة حديث البشرية منذ تجمع الناس في الكهوف ، بل الانسانية برمتها حكاية ابدية متشابكة الخطوط ، جمة الالوان ، أبطالها عباقرتها . ومن تأملها رأى جمالاً كثيراً حتى في أشد مشاهدها قبحا ، وما هذه القصص الدهرية ، ذلك الميراث الخالد ، إلا فصول رائعة من هذه القصة الكبرى .

وفي نظري ، ان القصة ، كلما شخصت الواقع ، تكون قد قربت من الكمال الفني . فالروائيون مصورون بغير الالوان ، وكم أوحى الملهمون منهم الى نوابغ المصورين رسوما رائعة ، ولوحات خالدة في دنيا التصوير . والمصورون كالروائيين ايضاً ، خيرهم من احسن تقليد الاشباح والظلال . فحسن التقليد هو قمة الفنون الجميلة . فهنيئا لمن أوتي من الروائيين سلامة الذوق ليختار من ألفاظ اللغة ألوانه ، ويبدع من تزاوج ألفاظها قوس قزح .

الروائي خالق مبدع، ومصور مثالي ،وشاعر كلي الخيال. يخلق عالما يتحرك ، وينطق ، ويحيا ، ويخلد ، وبخلوده يخلد الفنان معه . فالحياة والخلود متبادلان بين الروائي وشخوصه . فما يخلقه الفنان ويهب له جزءاً من حياته يحيا الى الابد .يتحرك كلما حركته يد مفكرة أو تداوله لسان. فبين دفتي كل كتاب من كتب القصص الخالدة عالم يتحرك كالبحيرة الساهية متى داعبها النسيم . الروائي الفنان يجعل من القصة ساحة لعالمه الذي يخلقه قلمه ، فيتمثل لنا كل بطل من شخوصه بشراً سوياً . وتنتصب حولك تلك الابطال فتنسيك العالم الخارجي حتى تصبح في عالم آخر لا يختلف عن العالم إلا انه وهمي . ينقلك الروائي الى الساحة التي خلقها فترى البيوت والاسواق ، وترى الجبال والاودية ، وتسمع خرير الانهار ، وتبصر كل شيء حتى نجوم السماء صلاةَ الظهر ، والشمس في منتصف الليل .

فحين تزج نفسك في عالم الروائي الأصيل لا تعود تعلم اين انت . فقد يحملك الرخ بمخلبه ، وقد تركب بساط الريح ، وتلبس (القبع الاخفى) فاذا بك تطير وتحط ، وتقوم وتقعد ، وانت ما زلت في فراشك ، أو مستلقيا على كرسيك .

يخلق الروائي الموهوب اشخاصاً لا ينقصها غير الروح ، بل قل لا تنقصها الروح

لانها تتقمص نفس قارئها فتحيا بها حينا ، كما عاشت زمناً مع من أنشاها وابدعها .

وبكلمة وجيزة نقول : ان اول آداب الامم والشعوب هو القصص ، والمشترع ، ولو وثنياً ، يفكر بقصة الخلق قبل عرض رسالته على البشر . فالحياة ، اذن كلها قصة ، ووجودي ووجودك ، يا سيدي القاريء ، قصة طويلة عريضة ، جعل الله خاتمتها خيراً .

— هل في الادب العربي القديم قصة ؟ هذا سؤال يرد على ألسنة الناس كثيراً . اما الذين قرأوا منا اعاظم كتاب الغرب واغرموا بروائعهم ، فلا يرون للعرب قصة ، ولا يرون لهم خيالاً يحترم ، ولا يرون شعرهم شعراً يستحق ان يحيا .

هذا ضلال منا اذ نحكم على اسلافنا هذا الحكم الطائش الجائر .

قال جيمس بريستد المتمشرق العظيم : ان انخذال المسلمين في اسبانيا كان بمثابة انخذال المدنية امام الهمجية .

وقال السر تشارل باتريس في خاتمة تاريخه لاسبانيا : ان عصر الآداب الاسلامية فيها كان من أزهى عصور امتزاج العناصر في تاريخ الحضارة .

ويقرر المستر جب المتمشرق الانكليزي الذي لا يزال حياً يرزق ، وهو عضو في المجمع العربي الملكي المصري : ان النثر العربي اخرج نثر اوربا في القرون الوسطى من جموده وصرامته التقليديين ، بما منحه اياه من خياله الذي يشبع الحواس . اما نحن فنقرر ، ويا للأسف ، غير ذلك ، مماشين المتمشرق أوليري القائل : العربي جامد العواطف ضعيف الخيال .

هذا من حيث نثرنا وشعرنا القديمان. اما القصة فالعرب هم الذين علّموها الغرب ، وان لم يكتبوها كما تكتب اليوم . وبرهاني على ذلك قول الاستاذ جب ايضاً ، وهو اختصاصي بدراسة القصة . قال : اسمع العرب اوربا حكايات السندباد البحري وما اليها ، فكانت خميرة للادب الخيالي الاوربي الجديد الذي زحزح الادب التقليدي ، وحل محله ، فنشأت في اوربا الروايات الرومنطيقية .

ويقول ايضاً : ان قصة الف ليلة وليلة التي ترجمت عام ١٧٠٤ كانت اقوى عضد للادب الخيالي ففتنت اوربا ، وقلدها كتابها في قصصهم ، فأشبعوا

نفوس الامة وميول العالم ، واتلدت منها قصتا روبنصن وجيلفر وغيرهما .

ونحن كغيرنا من امم الارض قد مررنا في اطوار ومآزق ، وقد خرجنا منها بقوة الفكر والخيال الذي لا يفتأ يعمل حتى في أدجى الظلمات . فمنذ عرف الشرق الطباعة والصحافة ألمّ كتّابه بمقدار من القصة والأقصوصة والرواية. فترجم احمد فارس لجريدته «الجوائب» بعض حكايات، ولما ظهرت«الجنان»، بعد عشر سنوات، شرع سليم البستاني ابن المعلم بطرس يعرّب ويؤلف لها الروايات والقصص فما خلا منها عدد منذ مولدها حتى مماتها . ومثله فعل جرجي زيدان في هلاله ناحياً نحو اسكندر دماس في رواياته التاريخية . ومثل هؤلاء ألف صروف قصصاً لمقتطفه ، وكذلك فعل شيخو في مشرقه فنشر روايات شرقية مؤلفة ومعرّبة .

اما فرح انطون صاحب مجلة الجامعة فكان ميالاً الى الفلسفة ومشاكلها ، فألف لمجلته رواياته الفلسفية الاجتماعية . ثم كان الى جانب هؤلاء كتاب كثيرون يترجمون القصص على اختلاف اشكالها والوانها ، فراجت الروايات البوليسية لان فيها مغامرات وعقداً تستثير فضول الناس حين ينتظرون النهاية . ولعل طانيوس عبده كان المترجم المجلّي في هذا المضمار الادبي .

اما الاقصوصة ، وهي التي نعالجها ، اليوم ، المبرّز والمقصّر ، فجبران خليل جبران كان اول من حاول تأليفها وفقاً لاصولها الحديثة ، فأخرج مجموعته الاولى (عرائس المروج) ثم أتبعها بالارواح المتمردة وغيرها . فهذه الاقاصيص تمتاز بخيالها الرفيع ، وبما يشيع فيها من الوان يندر وجودها عند الكتّاب الآخرين ، لان مؤلفها مصور، يفكر بالصور ويكتب بالالوان لا بالحبر والورق. اما مواضيع اقاصيصه فكانت اجتماعية تحارب تقاليد يقدسها المجتمع . ان اقاصيص جبران كالواقعية في حوادثها ، ولكن خيال صاحبها يخرج فكرته الاجتماعية بقالب خيالي يبعدها كثيراً عن الواقع ، ولعل هذا هو عيبها الصارخ .

وبعد تلك الاونة بوقت قليل ظهرت في مصر اقاصيص لمحمد تيمور الذي مات ولما ينضج . والقصة اليوم تكاد تكون هدف كل كاتب موهوب ، يلجأ اليها في تأدية اغراضه ، وبث فكرته ، ان كانت له فكرة . وانني كبير الامل بالشباب

وارجو ان يبدعوا في هذا الفن ، فتبلغ القصة والاقصوصة والرواية عندنا المستوى الذي يجب ان تبلغه امة كان أدبها ، فيما مضى ، منارة للشعوب ، كما يعترف بذلك رجال الفكر المنصفون .

لو جئت اعدد القصصيين لضاق المقام ، ثم اني اخاف ان انسى احداً منهم فتقوم القيامة ، ولذلك اكتفيت بمن ذكرت من الرواد . اما الاحياء فالقراء يعرفونهم جميعاً ، وهم يحسنون الحكم عليهم دون ان اكون لهم مستشاراً .

وبعد فلي كلمة اوجهها الى القصصيين عندنا ، وهي ان اللغة ليست جماداً ساكناً ولكنها حيّ نامٍ ، فيجب ان يوفق بينها وبين ضرورات التعبير التي تتغير بتغير العصور والبيئات ، فالاسراف في التمسك بالاساليب اللغوية العتيقة لا يلائم قصتنا اليوم . وهو يؤدي حتما الى تغلب الاسلوب المبتذل . فليكن اذن اسلوب القصة صحيحاً ، اولاً ، ثم قريباً من التعابير المألوفة في الحياة ، والتي تدور على الالسنة . واني اذكرهم بان القصة العالية هي قطعة فنية لا بد لها من العنصر الشعري. فليست القصة حكاية تروى كما هي في الحياة والواقع ، ولكنها تصور الواقع كما يراه الكاتب الملهم . نعم ليست القصة مقالا ولا فصلاً تاريخياً ، فعلينا ان نجعلها لابسة أجمل اثواب الادب الرفيع .

ولا يعني قولنا هذا ان نجعل الحوار شعريّ التعبير ، فللحوار لغته ، وللوصف اسلوبه ، وبهذين العنصرين تحيا القصة ، وبدونهما لا تعيش. ان بث الحياة في اشخاص قصصنا يقتضينا هذا وذاك ، فلنكن حكماء .

وقبل ان نطوي سجلّ هذا البحث الوعر نقول للقارىء العزيز بلسان فلوبير وتورغنيف : « لا تكتب القصة ليتسلى بها ، ولكنها قطعة فنية يجب ان تكتب جيداً » .

اجل ، على قدر ما في القصة من شاعرية يكون نجاحها . اما شعرها ، وما نعني الا النثر الشعري ، فيجب ان يكون منبثقاً من اعمق اعماق الكاتب الأصيل ، وان يتفجر من شخوص الرواية ومشاهدها لا من شخصية المؤلف .

وهنا لا بد من لفت النظر الى امر مهم وهو انه على القصصي ان يقطع السرة

بينه وبين ابطاله . فيجب ألا ننطق بلساننا الا عما لا يمكن ان ينطق بـه اشخاص قصتنا . فالحوار ، كما قلت هو ملاك القصة وروحها وفيه فنها كله .

طبعاً تريد ان تعرف ما هي مقوّمات القصصي لتعرف نفسك . وعليـه اقول لك يا عزيزي :

ان الروائي خلاق كما قلت لك سابقاً ، فاذا كانت الطبيعة لم تهبك قوة الابداع فلن تستطيع ان تكون قصاصاً . كما انك اذا تجاوزت الحد في الخلق الغريب كنت كمن يخلق مسوخاً وعجائب ، ثم اذا استطعت ان تخترع ولم تحسن القص تعرقلَ سير شخوصك ووقفت حركة قصتك ، والجمود قتّال .

فعلى القصصي ان يمسك سلك قصته ثم لا يفلته ، واذا أقبل وأدبر وكان غير لبق (تشركل) الخيط ... فالقصة محتاجة الى حسن وتنـوع في الموضوع ، والا ُقتلَ القاريء صبراً .

والقصصي محتاج الى كل علمٍ وخصوصا علم النفس ، وعلم الاجـــتماع ، وقوة الملاحظة ليستطيـع خلق ابطال لهم مميزاتهم الخاصة ، وعلاماتهم الفارقـة . وبغير تصوير هؤلاء أتمّ تصوير لا تحيا القصة مهما أسبغنا عليها من حلل الفصاحة والبلاغة .

وبعد كل هذا ، بل قل قبل كل هذا ، عليك ان تقرأ روائع القصص العالميـة قراءة عميقة ، وتطالع كتب النقاد وما علقوه على هوامشها .

واخيراً اذا سألتني كيف اكتب القصة ، اجبتك : اعمل بباعك وذراعـك ، فالفن لا يعرف المقاييس . والأم عندما تضع ولدها لا يعنيها ان تبحث عن كيفية تكوينه من بويضة الى كتلة لحم ذات محرك – موتور – يعمل بلا انقطاع عشرات الاعوام .

ان المقاييس لا تخلق الفنان ولكنها تهذب من خلق فناناً . ونصيحتي لـك هي ان تكون قارئاً مـدمناً لا يفرّق بين قـديم وحديث ، فالفن الصحيح كالخمرة ، كلما عتقت جادت .

مارون النقاش

●

امامي «ارزة لبنان» ،وهي مجموعة روايات مارون النقاش ابي المسرح العربي . احتفلت مصر بالذكرى المئوية لروايته الاولى ، منذ ثلاثة اعوام – ١٩٤٨ – وكي لا اطيل المقدمة وازعجك بشقشقة الكلام عما احدثته مسرحيات مارون النقاش ، ادع الكلام لمعاصره الشيخ يوسف الاسير الذي قال فيها :

هذي رياضٌ أثمرت	فكاهةً كالرطبِ
أم حكمٌ قد ركبت	في قالب من لعبِ
يكاد ان يرقص من	يسمعها من طرب
ام ذي ثمار فكر من	حاز فنون الادب
اعني به مارون من	ابدعها بالعربي
شكراً له من فاضل	فاز بكل الأرب
حق على نقّاشها	نقشٌ بماء الذهب

فلو لم يكن الفضل للمتقدم لما عنانا شيء من امر هذه المسرحيات لضعف اسلوبها، ولكنّ فهم مؤلفها للفن يشفع لها ، فقد تعرّف الى اصوله في كتب القوم ثم عندما زار اوربا وخصوصاً ايطاليا . تعلم ذلك حين تقرأ مقدمة (ارزة لبنان) وتصل الى التعبير عن خشبة المسرح بـ (البانكوشينكو) .

ثم يقول في تلك المقدمة بعد ان يتحدث عن التمثيل الأمثل : « نحن الآن لا نطلب من اصحابنا الوصول لهذه الدرجة بل نرجوهم الانتباه لذلك قليلاً . واشور عليهم الا يزيدوا الحد ايضاً بتكثير الاشارات والانفعالات ، بل الموافق ان يكون

كل شيء سائر طبيعياً بالاعتدال كما لو كان الحادث الواقـع اكيداً حتى لا يضيع رونق الرواية وتعب المؤلف ، لانه اذا لم تحسن الاشارات فالرواية هي كالعَدَم.»

هذا ما قاله نقولا اخو مارون طابع روايات اخيه عام ١٨٦٩ . وهو يقول في آخر مقدمته :

« اما المرحوم اخي المصنف فقال : اما انا فلا استحسن هذه الاشارات بل انما انا على رأي موليير (اشهر المؤلفين بهذا الفن) الذي قال : ان من لا يحسن تشخيص رواياتي بدون اشارات تدلّ على ما ينبغي عمله ، فالاحسن الا يشخّصها ، والقصد بذلك ظاهر . ان المعنى هو ذاته ينبه اللاعب للحركة اللازمة [١] »

اما كيف مشى التمثيل في ظهور الليالي يرجو التلاقي ، كما قال المتنبي لكافور، فهو أن مارون جعل من بيته مسرحاً ثم بنى آخر في جوار بيته ، ولكن هـذا صار كنيسة ، بعد موته . وهنا لا بد لنا من وقفة لنفهم القاريء ان هناك معاصرين لمارون اقتدوا به وألفوا مسرحيات . وهناك اعيان كمارون جعلوا مثله من دُورهم مسارح . فهذا ديوان عمر الانسي ينبئنا ان رواية مثلت في دار بني الغندور ، وان رواية ثانية كتبها الامير محمد ارسلان، ومثلت في دار بني حمادة. وقد مر بنا ذكر الرواد الذين ألفوا مسرحيات . ثم احتضنت المدرسة المسرح ، وانصرف الى تأليفها وترجمتها معلمون كثيرون .

اما المسرحيات الشعرية فتصدّى لها خليل اليازجي ، ثم المعلم عبدالله البستاني الذي نظم خمس مسرحيات اشهرها (رواية الوردتين) الـتي « قرّظ » مقرظيها شاكر بك الخوري كما مر بك .

انشأ مارون مسرحياته ليجذب الناس الى محبة هذا الفن لانهم اعداء كل جديد. ثم تنوعت المسرحيات بعده مع اديب اسحق ، والحداد ، وفرح انطون وغيرهم ممن ترجموا والفوا .

اما في سوريا فابو خليل احمد القباني كان اول من احيا هذا الفن في دمشق عام ١٨٦٥ ، فاستمد مواضيع مسرحياته من التاريخ العربي ، فاقبلوا عليه في مصر ،ولم

---

(١) ارزة لبنان ص ١٩ و ٢٤ و ٢٥

يُخرج منها كما اخرج يوسف الخياط الذي مثل رواية (المظلوم) بحضرة الخديو اسمعيل .

ان هذا الفن — كما كان في اوربا — نشأ وترعرع في لبنان ، وان آلت زعامته بعد حين الى مصر، وهي لا تزال في ذلك القطر في رقي بفضل مناصرة الدولة لاربابه ورعايتها لهم . فاذا كان لبنان مثّل اول رواية عربية فمصر انشأت اول (اوبرا) ملكية . اما مسرح سميّي مارون ، وهو بكر المسارح العربية الشرقية، فاستحال الى كنيسة [1] كما قلنا .

نجيب الحداد

ولد في بيروت عام ١٨٦٧ ، ومضى لسبيله عام ١٨٩٩ فكان خاتمـــة كتّاب القرن التاسع عشر. دبَّ في حجر خاليه ابراهيم وخليل اليازجي فتلقى منهما اصول اللغة العربية . ثم هاجر الى مصر وهو صغـير السن فادخله ذووه احـدى مدارس الاسكندرية فأتقن اللغة الفرنسية . ولما نشبت ثورة عرابي باشا عـاد الى بلده وأتم دروسه في المدرسة البطريركية ببيروت .

ولما هدأت عاصفة تلك الثورة رجع الى الاسكندرية وانصرف الى الكتابة فخاض غمار الصحافة وبرز في ميدانها. كانت المقالة في زمن نجيب بضاعة الوقت الرائجة في سوق الادب ، فانتجت منها قريحته روائع وطرائف ، فطارت شهرته وبعد صيته. وكان المسرح في طور صباه فغذاه نجيب بروايات تمثيلية عديدة كان لهـا احسن وقع في النفوس ، فطغت على مسارح الشرق العربي .

كان بلبل هذه الروايات الشادي الشيخ سلامه حجازي آية دهره في الانشاد ، فاستيقظنا نحن على اسطواناته ذات الاهتزازات الساحرة تغنّي لنـا من شعر نجيب الحداد :

ان كنتُ في الجيش أدعى صاحب العلم — فـانني في غرامي صـــاحب الالم
يا من تملكتمُ قلـبي ، فكان لكم — عبداً ، وكنت له من أطوع الخدم

هذا من رواية صلاح الدين الايوبي التي راع السلطنة التركيـــة تمثيلها . ثم

---

(١) كنيسة السانطا قرب حي الجميزة . المكشوف . العدد ٤٥٢ السنة ١٤ ص ٨

الانشودة الثانية من رواية روميو وجوليت :

سلام على حسنٍ يد الموت لم تكن لتمحوه أو تمحو هواه من القلب

وهناك روايات اخرى عديدة شهدت تمثيلها في بيروت لجوقة رحمين بيبس .

أتم نجيب الحداد ما بدأ به مارون وسليم النقاش واديب اسحق، فمضى بالمسرحية قدماً ، كما أحسن انشاء المقالة وان قصر عن اديب اسحق فيها . فالفرق بين الاديب والنجيب هو ان اديب اسحق كفرس سبوح جموح والنجيب يمشي مشياً وئيداً . في نجيب الحداد شيء من نفَس خاله ابراهيم فيسير الهوينا حين يكتب . وقد رأيت ابن الاخت هذا يترسم خطى الخال في مقالاته الادبيـة . ان هؤلاء الذين اسميهم اساطين كتاب المقالة –بعد ابيها الشدياق– وهم سليم البستاني، والمراش ، واسحق، وتقلا، وابراهيم اليازجي، ونجيب الحداد، وخاتمتهم المنفلوطي قد ساروا بالمقالة الى امدها البعيد ، اما الذين جاؤوا بعـدهم ، وان كتبوا المقالة مثلهم ، فقـد تغـيرت عناصرها على يدهم ، وبرزت من تحت سن قلمهم فاتنـة مغرية كما نلحظ حـين نقرا الريحاني ، ابا الشعر المنثور ، وجبران وولي الدين يكن وعمر الفاخوري وغيرهم .

كان للمقالة الشأن الاول في فجر النهضة ولهذا نرى اثر الشدياق واسحق ظاهراً في جميع من أتوا بعدهم ، فقد كان يوصينا اساتذتنا بقراءة مقالات هؤلاء وخصوصاً درر الاديب ومنتخبات النجيب ، فكان هذان الكتابان في قماطرنا – طبقاتنـا – الى جانب نهج البلاغة ، نظل ننهل منها ونعلّ حتى نخرج من قاعـة الدرس جارّين الذيل تيهاً كالتغلبي ...

كان يعجبنا الحداد اولاً لسهولته وليونته . حتى اذا تمكنا من ناصية لساننا المبين ملنا الى اديب ، ثم عدلنا عـن الاثنين الى نهج البلاغة ، وامسينا ولا كفء له في نظرنا . لقـد اجملنا فلنفصل الكلام عن الحداد الناثر .

لنجيب منتخبات طبعت مرات لتهافت الناشئين عليها . كانت مثالا لنـا في ذلك الزمن نطبع على غراره ، اما موضوع هذه المقالات فاكثره ادبي اجتماعي ، لان معالجة القضايا الاخلاقية كانت اغلب في ذلك العصر . وفيهـا ايضاً مقالات عديدة ، سياسية ، وفيها حكايات وملح ، وقصائد معربة عن الفرنسية ، وكلها ذات

مغزى ترمي الى غرض ادبي اجتماعي . لا يتسع المجال لتحليل اسلوب الحداد في نثره الطريف ، فهو كالشعر في التخيل ، وصفاء العبـــارة وموسيقاها ، واني لا كتفي بعرض نموذج يدل دلالة واضحة على طريقته الكتابية وغرضه الاجتماعي . قال من مقالة عنوانها (الخادم والمخدوم) :

« متى ترى الرجل مطرقاً مهموماً يفكر في مستقبل ايامه ، وحزينا يحسب لغده قبل عامه ، ويحرص على صحته كما يحرص على رأسمـاله ، اذ لا مال له سواه ، وهو مع ذلك ينفقها عرقاً يسيل من ثنايا الجبين العابس ، ونوراً ينبعث من حدقة تلك العين الكليلة ، وفكراً تقسم بين عمله المندوب اليه بدافع العيشة والاحتياج ، وبين عيلته المدفوع اليهـــا بداعي الحنو والتسخير ، فقل هذا هو الخادم رب البيت والاولاد ، يعمل لطعـــام اليوم من شغل اليوم ، ويسأل الله السلامة في الغد ليعمل في الغد ، ولا امل له في هذه الحياة الدنيا سوى مخدوم أوى اليه ، وعافيـة يستعين بها عليه ، وصبية صغار يرجو ان يقوى على قوتهم وسدّ حاجاتهم ، قبل ان يرجو لهم بلوغ الشباب ويأمل منهم النفع والاسعاف .

ومتى رأيت الرجل يمشي في الارض مرحا ، ويختال في مشيته فرحا ، ويرفـع ابصاره الى العلاء كبرا ، قبل ان يرفعها شكرا ، ويدخل الى حانوته آمراً ناهياً ، يسخط على خادم لايرضيه ، او يتظاهر بالغضب عليه لـكي لا يطمع فيه ، او يدعي القلة والخسران لـكي لا يزيد في راتبه ما يكفيه ، فقل هذا هو المخدوم ، او البعض من امثاله .

يحاسب على الدرهم ويخزن في الكيس ، ويعدّ مؤونـة الدهر ، ويجمع لآخر الابد ، وقد انساه الغنى ان في الارض موتاً دائراً ، وقضاءً محتوما ، وان وراءه خادماً عاملا لا امل له بعد الله الا به ، ولا معوّل الا عليه ، ولا رجاء الا عنده ، ولا طمع بمستقبل العمر والاستعانة على شدائد الدهر الا فيه ، وفي مكارم اخلاقه ، وقد لا يكون من اصحاب تلك الاخـلاق كما يكون خادمه من اصحاب تلك الامال » .

أرأيت أيّ مشكلة يعالج نجيب الحـــداد في ذلك الزمان ، انها مشكلة اليوم

بعينها ، ولهذا نقول : ان الادب الحي لايموت ، بل يصلح للقراءة في كل زمان ومكان . اظنك ادركت معي بعدما سمعت تلك الفقرات ان هذا الجيل من الادباء متأثر بكتاب القرن الرابع ، أي مدرسة ابن العميد . وقد دلك على ذلك دلالة واضحة تفننه في استخدام حروف الجر كما كانوا يتفننون .

وهناك ايضاً نجيب الحداد الشاعر وهو في نظمه الهيّن اللين متأثر جداً بجده المرحوم ناصيف اليازجي ، وهذا ما يؤيد مزعم النقادة الفرنسي (تين) في العرق . انظر الى ديباجتيهما فتحسب انهما نسجتا على نول واحد ، ففي شعر نجيب سهولة وبساطة كلام جده ، تأمل كيف يفتتح رائعة مسرحياته (صلاح الدين الايوبي) :

ان لم اصن بمهندي ويميني ملكي ، فلست ، اذن ، صلاح الدين
تحمي الممالك ربها اما انا فاريد احمي الملك لا يحميني

ونجيب الحداد شاعر مطبوع ، وله ديوان كنا نقتله مدارسة . نطوف به من الجلد الى الجلد مرات ، واشهر قصائده قصيدة في وصف القمر ، كأنها نظم لمقالة خاله الشيخ ابرهيم التي هي اروع نثر القرن التاسع عشر الشعري وسترى منها نموذجاً .

اما أسْيَرُ قصائد نجيب وأروعها ، فهي التي قالها في وصف القمار فدارت على كل لسان .

لقد غذّى نجيب النهضة بما ألف وترجم من مقالات طريفة ومسرحيات رائعة . عاش زهاء ثلث قرن صرفه في خدمة امته ووطنه ، ومرت ذكرى وفاته الخمسينية كما مرت ذكرى الشدياق من قبل ، فلم يأبه لها احد ، فكأنّ الرجل لم يكن ذلك الرائد العامل .

رُوّاد الصحافة

الشديـــاق

●

لم نسمّ احمد فارس الشدياق « صقر لبنان » عبثاً واعتباطاً ، ولكنه استحق هذا الاسم لأنه فر كما فر صقر قريش . هذاك شيّد دولة عربية غربية ، وهذا شاد دولة ادبية وبنى النهضة الحديثة على اسس راسخة . اقرت له بذلك مصر ، فوضعت جائزة سنية لمن يكتب عنه – من الكتاب المصريين – كتاباً موضوعه : « احمد فارس الشدياق وأثره في اللغة والادب ، ووضع المصطلحات الحديثة . »

كيف لي أن احدثك عن احمد فارس في فصل صغير ، بعد ان كتبت عنـــه كتاباً ، ولم احط فيه بجميع نواحي تلك الشخصية الجامعة التي يصح فيها قول الشاعر :

وتزعم انك جرم صغـــير   وفيك انطوى العالم الاكبر

فهو امرؤ قيس عصره ، وجاحظ زمانه ، وفولتير جيله ، وخليل القرن التاسع عشر . ابو الجريدة العربية المثلى الجامعة للأدب والسياسة والعلم ، وابو الكتاب في هذه النهضة التي نتحدث عن روادها .

ذهب احمد رائداً فأصبح مستعمراً وباني دولة ادبية شرقية غربية . واذا ظـل المنهاج اللبناني متنكراً له ، فعبثاً يحاول اللبنانيون البحث عن مجد ادبي صحيح في صبح عصر الانبعاث . انهم لن يجدوه .

أن ادبنا ككل آداب الامم المعاصرة نشأ اولا صحفياً ، كما قلنا ، والشدياق هو اول من كتب المقالة بجوائبه . فهي الجريدة العربية الادبية السياسية الاولى ، وان كان نشأ قبلها صحيفتان ، فمن الظلم ان نحصيه مع الرواد وهو ابو الكتـاب الادبي في الفارياق وكشف المخبا . وهو اول من وضع لنا المصطلحات الحديثة . فاذا شئت ان تعرف شيخ العربية المعاصر ، فاقرأ (صقر لبنان) لتلم بكل نواحيه

إلماماً . اما هنا فساريك نموذجاً من انشائه لترى الاسلوب الذي مشى فيه على اثره كتاب زمانه ، وكتاب العصر الحاضر .

ان الشدياق من كتّاب النضال ، وهو نصير المرأة قبل ان يهبّ شرقيّ لنصرتها وهو المطالب بحريتها قبل قاسم امين [1] . كان الرجل مغرماً بالحرية حتى طالب بها للعبيد في زمن الرق والاستعباد ، واذا كنت لا تصدقني فافتح الصفحة الخامسة والثمانين من الجزء الاول من مختارات الجوائب ، فلا بدع اذاً ان طالب بحرية المرأة ، في ذلك العصر ، أليس هو القائل في مقدمة فارياقه انه بناه على اساسين : المرأة واللغة .

واذا نشرتُ لك نموذجاً فليس قصدي ان ادلك على نزعته الفكرية فقط بل لاريك بعض ما ابتكر في المقالة التي كان اباً لكتابها جميعاً . تأمّل كيف اخرج (جملته الادبية) ــ هكذا سمى المقالة اولاً ــ فعلّم بذلك معاصريه ومن جاؤوا بعدهم. ليس لهذه المقالة عنوان ، ولكني انا عنونتها (حرية المرأة) . قال الشدياق بعد مقدمة لا يتسع كتابنا هذا لذكرها :

« اما سن الزوجين وقت الزواج ، فليس فيه قول فاصل مبني على الاحتجاج، ففي بلاد اوربا لا تتزوج المرأة رجلا الا اذا كان ترباً لها ، وإلا فزيادة بضع سنين، وما زاد على ذلك فهو من الشذوذ الذي يشين . وذلك كأن يتزوج شيخ فانٍ ، وهو شريف النسب ، بفتاة لا اصل لها ولا حسب ، فهي انما تتزوجه لكي ترث منه اللقب ، لا لكي ترأمه رأم من أحبّ . وفي بلاد الشرق قد يتزوج الرجل من لم تبلغ نصف عمره ، ولا يرى في هذا الفرق سبباً يحملها على تركه وهجره ، لانه يعتقد ان الذكر خير من الانثى ، وافضل منها قنساً ، واكرم جنثا .

وعلى هذا فله ان يغيرها بضرائر شتى ، وان يألت حقها ألتا ، ولا يمحضها الوداد محتا ، ولا يُعنى بشأنها اذا امتحنت ، ولا يرثي لها اذا امتهنت ، وما ذلك إلا لان الذكر خير من الانثى ، وانه افضل منها قنسا ، وأكرم جنثا .

وإن له ان يسهر الليالي مع أحبابه ، وهي مقصورة على حجرتها ، ولا ترى إلا

---

(١) راجع زيدان في مشاهير القرن التاسع عشر جزء ١ ص ٣١٢ .

وجه ضرّتها ، وان يغيب عنها دهراً ، ويغادرها مقيدة باسمه كرهاً وجبراً ، ويجعل عليها من ترقبها ، فتقصوها وتحجبها ، فلا تخرج الى الشارع ، ولا تبرز الى المصانع ، ولا تستنشق الهواء إلا من خروق الشباك ، ولا تلمح بشراً إلا على وجل من الهلاك ، وإيجاس من الانتهاك . وما ذلك إلا لان الذكر خير من الانثى ، وأنه أفضل منها قنسا ، وأكرم جنثا .

وان له أن يدّعي الولاية والكرامات ، والمقام الذي يختص بالصالحين ذوي الرياضات ، فيختلي بالنساء ويقرأ عليهن ، ليحمل أزواجهن على ودادهن ، ويصرفهم عن إبعادهن ، فيقبلن عليه زمراً ، ويصرف أوقاته معهن مستهتراً . وزوجته إذ ذاك تتململ من الكمد ، وتتقلب في النكد ، فليس لها من تشكو إليه ، ومن تعوّل عليه ، ولا من ينقذها منه ، أو يصرفها عنه ، وليس لها ان تماري في ولايته ، وتتطلع على حبالته . وما ذلك الا لأن الذكر خير من الانثى ، وانه أفضل منها قنسا ، وأكرم جنثا .

وان له أن يدعي العلم فيجمع لديه غلماناً يتلمذون له ، فيأتي منازلهم ويأتون منزله ، ويتلو عليهم الخزعبلات ، والنوادر المستميلات ، فيلازمون حضرته ، ويكرمون طلعته ، ويؤثرون مودته ، وينوّهون بفضائله ، ويعجبون بشمائله ، حتى تتمكن محبته في قلوب أهلهم ، ومن اتصل بهم ، فيودوا أن يصل نسبه الى نسبهم ، ويعرضوا عليه عوانسهم ، ويستزيرونه ليوانسهم . وزوجته إذ ذاك ، تسمع وتتأسف ، وتدمع وتتلهف ، وما ذلك إلا لأن الذكر خير من الأنثى ، وأنه افضل منها قنسا ، وأكرم جنثا .

وان له أن يصر على ما اكتسبه من المال ، ويخفيه عنها كخفائها عن الرجال ، فلا ينضّ لها منه ، إلا ما لا محيد عنه ، وهو قوت من لا يموت ، ولباس من لم يودع بعد في الأرماس ، وهو على نفسه أكرم الناس . فان قالت له : ان فلانة ذات حلي ، وإني ذات عطَل ، وما لي غير هذا الثوب من بَدَل ، قام على منبر الوعظ والانذار ، وقال لها : ان المرأة الصالحة تكتفي بالادام والأطمار ، وقد طالما عهدتك من الصالحات ، فكيف صرت من المسرفات الطالحات . قال الله

تعالى ... قال النبي صلى الله عليه وسلم ... قال زيد ... قال عمرو ... أنبأنا . . حدّثنا . فيسكتها ويخجلها ، وعلى كيده يحملها ، اذ هي تعلم ان الشرع الشريف لم يحرّم على النساء الزينة ، وانما هو سفاهة من الرجل وسوء كِينَه . واقبح من ذلك اذا كان الرجل يحرمها على عرسه ويَستحلها لنفسه ، وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى ، وافضل منها قنساً ، واكرم جنثاً .

ثم اذا قالت له : ان جارتي تخرج الى المنازه ، وبين حالتي وحالتها مشابه ، فدعني اخرج معها ، وارتع مرتعها ، وأجري مجراها ، وأسري مسراها ، قال لها : ان شأن الحرة أن تكون ملازمةً للزوايا ، مداومة على الخبايا ، لا تتفرّج ، ولا تتبرّج ، ولا تتلوّج ، ولا تتلعّج ، ولا تفكر في منتديات النساء ، ولا تصبو الى الكساء . وكل انثى خرجت من دارها ، فقد باءت باوزارها، وترجمت عن شنارها، ثم اندفع يقول : قال الله ... قال الرسول ...وما ذلك الا لان الذكر خير من الانثى ، وافضل منها قنساً ، واكرم جنثاً .

واذا قالت له تلاطفه ، اذ ترى الهم يواكفه ، والغمّ يرادفه، وهو ينفخ متضجراً ، ويتلهف متوغراً : ما لي اراك اليوم مهتماً ، فكدت تذوب أسى وغما ، فلا تجيد خطابا ولا تحير جوابا ، ولا تهتم بما اهمّنا من عوز الطعام ، وفقد الائتدام ، بَلهَ اللباس الفاخر ، والحلي والجواهر ، فقد انسانيها عدم القوت ، وما بعد ذلك الا الاجل الموقوت . قال لها : كأنك تنبشين اسراري حتى تبعثريها، وتنبشين أطواري حتى تغوّريها ، فهل يوم ربقني الاحتياج في ربقة هذا الزواج ، اشترطتِ عليّ ان أبثك مكتومي ، فضلاً عن أن أطعمك مأدومي؟ فهلا تنتهين عن هذا اللجاج والخصام المؤدّي الى الثجاج واللكام . وما ذلك الا لأن الذكر خير من الانثى ، وافضل منها قنسا ، واكرم جنثا .

وهكذا يعيش الرجل والمرأة كالضدين المتعاندين ، والقرنين المتناكدين، فيبيت كل منهما والاحتيال شاغله ، والاغتيال شاعله ، الى ان يصلح بينهما الطلاق ، ونعم المصلح الفراق . »

ولكي يبدو لك جلياً اثر هذا الاسلوب اقرأ الكثيرين من الكتاب بعده ، بل

اقرأ بعضاً من مقال للدكتور شبلي الشميل نُشر في هذا الكتاب . ان مثل هذه الفصول هي التي وجهت كتاب النهضة فيجب ان يذكر صاحبها مع الجاحظ وغيره. واذا قال واضعو المنهاج اللبناني : ان في كتب ابي النهضة احماضاً ، قلنا لهم : وعند الجاحظ وابي نواس وابن الرومي ما يُستحى من ذكره. أفلأجل هذا صار الشدياق لا يستحق الذكر !!

قيل : محبة الاباء تتصل مع البنين . ولعل الآية معكوسة عند من يستشارون (سراً) حين تعديل المنهاج ، فيطبخونه لنا على نار حسدهم وبغضهم الموروث ، فيجيء مأدوماً بما استسمنوه من ذوي الورم .

بطرس البستاني وولده

يقول المثل : عاشر القوم اربعين (يوم) فأما أن تصير منهم ، او ترحل عنهم. واستاذ الجميع المعلم بطرس البستاني عاشر العلماء الاميركان زمناً فصار منهم . وحسب النهضة من هذا المصير انها غنمت ما غنمت من تآليف علمية ولغوية ، ومدرسة وطنية، ومجلات ثقافية ، ودائرة معارف ، ان لم تكن كالدائرة الانكليزية فحسبها انها اول موسوعة عربية ، ومحيط المحيط الذي ضمّ تعريفات حديثة لم تكن في المعاجم القديمة .

يذكرني اسلوب المعلم بطرس بتراجمة العصر العباسيّ الذين اغنوا النهضة الاولى علماً ومعرفة . ليس للمعلم بطرس بلاغة الكتاب الكبار ولا ابداعهم ولا صحة عباراتهم ... فهو مترجم وناقل ، وقد اصاب فيما فعل ، لان البلاغة ، وان كانت تنقصنا في ذلك العصر ، فقد كنا احوج الى الفنون الحديثة وعلوم العصر الجديدة . فالروّاد الاول لم يترجموا الى العربية إلا ما احتاجوا اليه من الكتب لخدمة الدين. فمن يقرأ آثار المعلم بطرس ، جرائده ومجلاته ، وتآليفه يجد ان هذا الرجل العظيم القدر ، الفذ الهمة ، كان يهمه ان ينقل الى لسان العرب ما ينفع ويفيد ، وان يجدد طريقة التصنيف . وحبه التسهيل في كل ميدان حمله على الكتابة بالاسلوب الذي اعتمده التراجمة النصارى ، في عهد هارون والمأمون وغيرهما . وها انا اجول واياك

في (جنانه) دون كتبه الاخرى التي يعرفها كل قارىء . فشعار الجنان : حب الوطن من الايمان ، ولعل هذا كان من أسباب تمسك المعلم بزيه اللبناني ، فهو وطني صميم ، وفردٌ قام باعمال تعجز عنها الجماعات ، وان لم نبالغ قلنا كما قالت فيه المقتطف : « واذا أعملنا النظر في الاعمال التي اصطنعها لوازنت اعماله او فاقت اعمال ثلاثة رجال من فضلاء الناس بعيدي الهمة ماضي العزيمة غزيري العلم والمعارف [١] . »

يبدأ الجزء الاول من الجنان – كانون الثاني ١٨٧٠ – بمقال مترجم لم يوقع ، ويختم برواية (الهيام في جنان الشام) كتبها ابنه سليم ، ونشرت متسلسلة في اجزاء السنة الاولى فانتهت بانتهائها . اما جميع المقالات الاولى بعد العدد الاول فكتبها كلها سليم . وسليم ذو ملكة انشائية ليس لأبيه بيانها ، فتنقل من موضوع الى موضوع . وفي السنة الثالثة جعل سليم عنوان مقالته الدائم (جملة سياسية) كما سماها الشدياق في جوائبه من قبل .

وظلت البساطة ، بل الركاكة ، مرافقة قلم الجنان حتى دخلت سنتها الثانية ، وعلت صيحة صاحب الجوائب ، فأعلن المعلم بطرس : « انه لما كان الجنان قد تجنب استعمال الالفاظ اللغوية في السنة الاولى من سنوات نشره ، وكان من المفيد ان لا يتجنب ذلك بعد ان يكون جمهور القراء راغباً في توسيع دائرة اللغة باستعمال الالفاظ الكثيرة ... كان لا بد لنا من القيام بحق ذلك الامر المهم . فنسأل الله التوفيق ، ونطلب الى حضرة قرائه ان يعذرونا ، اذا اتعبناهم بتكرار مراجعة القواميس » . [٢]

اما ولده سليم فودّع قراء الجنان في آخر سنتها الاولى بقوله عن روايته المتسلسلة : « وقد اعتنيت بجمعها من صفات الفضلاء والرذلاء والعقلاء والجهلاء ، ولم أترجمها عن عجمي ولا نقلتها عن عربي [٣] ووعد ان يقدم للقراء رواية حبية تاريخية في العام المقبل ، وقد برّ بوعده فألف رواية (زنوبيا ملكة تدمر) ونشرها

(١) اعلام المقتطف ص ١٢٢ .

(٢) الجنان سنة ١٨٧١ ص ١٧٧ .

(٣) الجنان سنة ١٨٧٠ ص ٧٣٥ .

متسلسلة . ثم استمر على ذلك فنشر في السنين التاليـــة رواية (بدور) ، ثم رواية (اسما) التي لم تكف فانشأ لآخر عدد اقصوصة عنوانها (غانم وامينة) فسد بها ذلك الفراغ . ثم نشر عام ١٨٧٤ قصة (الهيام في فتوح الشام) ، وقد اكثر في هـــذه القصة من التوصيع بالشعر القديم ، لأنها عربية تاريخية كما يفهم من عنوانها ، ولعل سليما هو اول من كتب رواية تاريخية . ولست اقول انهـا اوحت الموضوع الى زيدان بعده لأن زيدان عارف مثله بما عند القوم من هذه البضاعة .

وبقي سليم يموّن الجنان بروايته سنة كاملة ، اما في نهاية هذه السنة فأعلن عدوله عن التموين الكلي . وفي سنة ١٨٧٥ كتب للجنان رواية (بنت العصر) فقـــام بكفايته نصف سنة . وكأنه ملّ التأليف فشرع يترجم بدلا من ان يؤلف، فنشر بالتتابع روايات : (كاملة) و(الغرام والاختراع) و (الصواعق) و (الحب الدائم) و (ماذا رأت مس درانكتون) و (السعد في النحس) و (جرجينه) التي ختمت بها السنة ١٨٧٥ .

وترجم لسنة ١٨٧٦ (حلم المصور) و (سم الافاعي) و (سر الحب) و (حيـلة غرامية) و(حكاية الغرام) و (زوجة جون كارفار) .

وفي عام ١٨٧٧ عاد فألّف رواية (فاتنة) وملأ العددين ٢٣ و ٢٤ باقصوصتين مترجمتين (لا تنسني) و (قمرية) .

اما في السنة ٨٨ و ٨٩ فما عرفت ما ألف وما ترجم لأن هذين المجـلدين ليسا عندي . وفي سنة ١٧٨٠ لم يدع روايات له بل لغيره . وكذلك فعل عـام ١٨٨١ الذي جرى في نهايته (اتحاد الجنان والجنة ولسان الحال) . وبعد هذا انصرف سليم الى تعريب (تاريخ عام قديم) احله محل رواياته .

ثم عاد فكتب رواية (سامية) ونشرها في النصف الاخير من مجلد عام ١٨٨٢ ولكنها لم تنته في هذا المجلد ، وفي مجلد ١٨٨٣ لا أثر للروايات قط ، وفي عـــام ١٨٨٤ مات سليم لاحقاً بابيه . فأصدر الجنـــان بستاني آخر اسمه نجيب ، ولكن اليتيمة لم تعش بعد ابويها غير عام .

هذا ما كتبه سليم من قصص ، ولعله رائد القصة الاول ، وان لم يجـــلّ في

مضمارها . والذي يدلك على ان سليما كان صحفياً كما يكون الصحافي ، هو انه كان ينشر رواياته مزينة بالصور ، وهو في هذا ايضاً من السابقين .

ولنعد الآن الى اسلوب سليم محرر الجنان التي لم يخل عدد من مجلداتها من مقالة أولى له . فأنشاء سليم اسمى درجة من ابيه ، واسلوبه بياني اكثر . واليك نماذج من تعابيره المحلاّة بالاستعارات والتشابيه :

« يا ايها الشرقيون . تسابقكم بنات الدهر في ميادين آداب هذه الحقب ، فلا تتركوا مركباتها تسبقكم وتترك مركباتكم مرطومة في حمأة التأخر . فان نور هذا الجهر قد رفع اللثام عن محيا ليل الظلام فبان لكل ذي بصيرة بدر المبادىء الصحيحة فعرفنا بما وقع علينا من الأشعة التي انحدرت الينا في أحدور القرن التاسع عشر ما يقودنا الى ارياف النجاح والتقدم[1] . »

وافتتح مقالاً عنوانه الاصلاح بقوله « هل نقول لقد راهت طوالع سعد الامة فلا تعود الى افقها ، وقد لبط بها فلا تنهض ، لان صدر الدهر قد وغر عليها وأيادي الزمان قد تخللتها بذوابل النوائب ، وقد لشت فلا تقدر ان تأتي بما يبهجها بعد ان خدشت ناعم وجنتيها جيوش الرزايا والآفات [2] . »

وقال مفتتحاً مقالاً سياسياً : « أطال الزمان بلايا فرنسا وحلت عليها أيادي الدهور ، وامست تعتل الى الشر وتقاد بعنان الويل والهوان من ذمائر الى ذمائر ، فكأن الشر قد اناخ ناقته في وسط مركز التمدن والمعارف [3] » .

وقال في صدر مقال (اعجب العجب) : « على م الغنج والدلال ، والهرم قد هدم صفوف تلك الاسنان ، وقد بيّض الشيب سواداً كان ابيض الخصال ؟ فليس اقبح في عيني من عجوز تهتز تيهاً وغنجاً الا عرجاء ترقص وتميد عجباً ودلالاً ، واقبح منهما الذي يعاير الاواقي ولا يعاير الارطال [4] » .

ثم يتكلم بعد هذه المقدمة عن الحسد فالنميمة حتى يقول : « انه من واجبات

---

(١) الجنان سنة ١٨٧١ ص ٢١٣
(٢) ص ٢٤٩ .
(٣) ص ٢٢١ .
(٤) ص ٦٠٩ .

الكتاب ان يصلحوا العادات القبيحة فما اقبحهم اذا سلكوا سبيلها، واحب اليّ ان اخسر ما اقـــدر ان اخسره من ان أرى بنات اقلامي ترقص في مُراسح النميمة والفساد ، فان للقلم عرضاً وناموساً ، وحكمه حكم الفتاة » .

ويلي هذا المقال (تذييل) رد به على من انتقد اسلوبه الذي اريتك نماذج منه ، وما اظنه الا الشدياق لان الحرب القلمية كانت قد اعلنت ، ودارت رحاها على الجبهتين الغربية والشرقية – الاستانة وبيروت – ولكن الملاحظة النقـــدية التي أبداها الكاتب الذي لم يذكر اسمه سليم قد حملته على ترك مواضيعه الادبية واستعاراته ، فعاد الى الاسلوب الطبيعي وصار يصـــدّر الجنان بجملة سياسية ، بدلاً من تلك المقالات الادبية .

تلك كانت موضة الكتابـة في ذلك الوقت ، كما قال سليم في رده على ناقده ، فالمراش واسحق ، ثم الحداد بعدهم ، كانوا جميعاً يحوكون على ذلك النول .

لم ينح سليم نحو والده لان نشأته غير نشأة ابيه . اما اسلوب المعلم بطرس فاتبعه زيدان وغيره ممن كتبوا ليقرروا لا ليتخيلوا ، واذا كان المعـلم بطرس قد مات ولما يصقل اسلوبه ، فقد تم لغيره بعده ما لم يتم له .

لقد كان احرى بواضع منهاج البكالوريا الأدبي ، ان يكلف المدارس تدريس سليم البستاني لا المعلم بطرس . ولكن حكمة (الواضع) شاءت فحشرت المعلم بطرس مع الجاحظ وغيره من اصحاب الدروس الاخلاقيـة والاجتماعية ، وليس للمرجل في (الانشاء) غير خطابي تعليم النساء واداب العرب ، فاذا كانت حكمـة الواضع تعنيهما فقد ضلت ولم تصب لنقول : قد اصابا كما شاء جرير .

ان للمعلم بطرس في نهضتنا دوراً علمياً عظيما ، واننا لظالموه اذا حشرناه مـع الادباء والكتاب . واذا كان لابد من ذكر بستانيّ في كل مجال ، فلنذكر الابن المؤلف ، لا اباه المترجم والناقل .

الشيخ ابراهـــيم اليازجي

هو احد جنود تلك الكتيبة المناضلة تحت عـلم الضاد في عصارى القرن التاسع

عشر . خاض المعمعة مع قائدها المغوار فارس ميدان الفصحى المستولي على الامد ، فأكسبه ذلك الشوط ، وان لم يجلّ فيه، شهرة أحلّتـــه المحل الارفع بعدما مضى اولئك الجهابذة وعاش هو بعدهم ليتوغل في المسلك الوعر الذي شقّوه ومهّدوه .

فالشدياق والاسير والاحدب واليازجي الأب كانوا ابطـال تلك الساحـــة يصولون ويجولون حتى طلع ابراهيم فكان صنو ابيه في الانشاء ، ولكنه فاقـــه علماً وتدقيقاً باسرار اللغة . نزل الى الميدان ، بعد موت والده ، وهو ثنيان رخص فدافع عنـه في تلك الهبوة التي أثارهـــا كبش الكتيبة العاسي والجواد القارح احمد فـــارس .

فاليازجي كاتب عالم صنع نفسه يوم لم تكن طرق التعليم معبدة . جاور أباه وأخذ من علمه ما حضر ، ثم تعمق فاكتسب برغبته وجدّه لغات اجنبية وآدابـــاً وعلوماً حتى احصي بين علماء الهيئة ــ الفلك ــ وتطـــاول الى مناقشة العلامة فلامريون الفرنسي إمام ذلك العلم ، فسمع صوته وأهدى اليه ملك اسوج ونروج نوط العلوم والفنون .

الى هنا اوصل الجد والكد الشيخ ابرهيم اليازجي الذي لم يعل رأسه سقف مدرسة. كان معوّلاً على نفسه معتمداً عليها فخلقت منه تلك الثقة المقرونة بذكاء حادّ رجلا وقف حارساً اميناً على باب لغة العرب زهاء ربع قرن . لقد صدق لما أجاب من سأله عن استاذه حين قال استاذي الشدياق . فهذا البحر المحيط بجبال اللغـــة وسهولها وأوديتها وكهوفها جرّ اليازجي الى خوض غمارها وعبابها خوفـــاً من الطوفان الذي طغا من لدن صاحب (سر الليال) و (الجاسوس على القاموس) .

كان ابرهيم في طلعته الأدبية يقول الشعر كأبيه ، فأكثر من نظم (التواريخ) كما مر بنـــا . ولسنا نعني ان هذا كل شعره ، فلابرهيم شعر حماسي قومي أهاب فيه ببني يعرب يوم كانوا يعملون لاسترداد الملك المفقود . نظم قصيدتين شهيرتين نشرتا غفلاً في بيروت ، فأقضّتا مضجع الوالي فبث جلاوزته ورجال شرطتـــه لينتزعوهما عن الجدران ، وهذا مطلع كل منهما :

تنبّهوا واستفيقـــوا ايها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

دعْ مجلس الغيــد الأوانس وهوى لواحظهــا النواعس

وله قصائد اخرى منها واحدة في وصف الزهرة التي وصفها في مقال من النثر الفني المنمق كان خـيراً من شعره المنظوم . ويقول من ترجموا لابرهيم انـه عاف الشعر إذ « وجد ان استمرار تلك الحال سيفضي به الى الانقطاع للشعر واهمال ما سواه ؛ فترك النظم بتة وعكف على الاشتغال باللغة وسائر فنون الادب والعلوم العقلـــية » .

فماذا فعل إذن ؟ انصرف الى الكتابة فكانت جريدة (النجاح) عام ١٨٧٢ ميداناً لقلمه ، بعد ان جربه في مجلة (الجنان) مساوراً شيخ العصر صاحب الجوائب ولكنه لم يحرر جريدة النجاح غير بضعة اشهر لأنها احتجبت « لان دخلها لم يكف خرجها » . فانتدبه الاباء اليسوعيون ليعرب التوراة ، فانكب على عمله الجليـل تسع سنوات « فجاءت هـذه النسخة من اصح ما عرف الى الآن من نسخ هـــذا الكتاب ، فضلاً عما اشتهرت به من فصاحة العبارة وجزالة الاسلوب . »

ثم طلق الاباء اليسوعيين الثلاث وراح يعــلم البيان في المدرسة البطريركية ببيروت ، وله في ذلك الوقت خطاب نفيس عنوانه (اداب الدارس بعد المدارس) أفاض فيه نصحاً وتأديباً للنشء وغيرهم من ارباب صناعة القلم ورجـــال الفكر ، فجاء من طراز رسالة عبد الحميد الكاتب الى زملائه . ولما كان الشيخ من المطبوعين على المناقشة والجدل والمطارحة ، ومجال هذا في الصحافة اوسع ، اصدر مجلة الطبيب مع الدكتورين زلزل وسعاده ، فكتب فيها أبحاثاً في اللغة وغيرها ، فعادت شهرته الى الظهور وطار صيته ، ولكن هذه المجلة ايضاً كانت قصيرة العمر فماتت كالنجاح في المهد وكما انتقلت أخت لها من قبل الى رحمته تعالى .

ورأى الشيخ مـا صادفه الذين نزحوا من الادباء الى مصر مثل صروف ونمر وزيدان وغيرهم فتغرب مثلهم ، وهناك انشأ مع زميله زلزل مجلة البيان فـلم يطل عمرها اكثر من عام . وأنشأ الشيخ ، وحده ، مجلة (الضياء) الشهيرة فعاشت مـا عاش ، وماتت بموته بعد ان أدت للغة اجل خدمة ، وفجع اللسان العربي المبــين بالاثنين .

وقف الشيخ في الضياء رصداً على الكتاب يتتبع خطواتهم اللغوية في باب (لغة الجرائد) ، كان يرشدهم ويسدد خطواتهم ، فسلم اللفظ من الاخطاء الفاشية،وصحت عبارة الكتاب ، وكان له في ذلك ابيض يد عند حملة الاقلام . كفاهم مؤونةالتنقير في المعاجم ، واقرّ الحروف في مواضعها ، وهذه التعدية بالحروف قوام الكتابة عند البلغاء ، ولهذا كانت قبلة انظار الشيخ . ومما روي عنه — ولعلها مبالغة — انه ابرق مرة من الاسكندرية الى مدير مجلته — الضياء — يطلب منه ان يعيد طبع احد كراريس عدد المجلة ان لم يستطع ابدال الباء بفي في عبارة ما .

اما شخصية الشيخ فقوامها إباء وعزة نفس ، وحرص على الكرامة ، وانفة كأنها الكبرياء . لذاع النقد قارصه ، ولكنه (لا يحتمل الرد برحابة صدر ، وهذا ما ادّى به احياناً الى كتابة مقالات كان في غنى عنها، وليته نزّه قلمه عن تحبيرها).

كان نقد اللغة احب المواضيع اليه ، وقليلاً ما كان يعالج النقد من نواحيه الاخرى ، ولكنه اجاد في الدراسة التي ذيل بها ديوان المتنبي المنسوب شرحه الى والده . فابرهيم لم يصحح من تصانيف ابيه شرح ديوان المتنبي فقط ، بل اعاد النظر فيها جميعها لان اليازجي الكبير لم يكن باللغوي المحقق . اما الفضل في هذا التنقيح والتصحيح فيعود الى الشدياق الذي اضطر الابن الى جبر عثرات ابيه . فكان من وراء ذلك خير جزيل .

ليس انشاء الشيخ ابرهيم بالانشاء المنمق العالي ، اذا استثنينا صدر مقالتي الزهرة والقمر ، حيث اظهر لنا الشيخ انه ناثر فني من الطراز الاول . فخياله فيهما طريف ، وسجعه انيق ظريف كأنه الشعر او فوق الكثير من الشعر ، وسوف نعرض عليك نموذجاً منه .

اما في جل نثره الآخر فيكتب باسلوب العلماء والمؤرخين ، والكتاب الاجتماعيين ، وهو اكثر ميلا الى هذه المواضيع ،التي تتطلبها المجلة ليكون فيها مرعى لكل مرتاد . فتضلع ابرهيم من اللغة وادراكه اسرارها ادى به الى العدول عن المجاز .

فلليازجي فضل على النهضة بتعابيره الصحيحة لا بطلاوة اسلوبه وطرافةشخصيته ، فهو على علمه الواسع لم يترك بعده اثراً يخلده ، وهذا برهان على ان الشيخ كان لغوياً

لا يحيد عن الطريق المعبدة مقدار فتر حتى كأنه يمشي على الصراط . فكأنه كان يحب الوفق بالالفاظ فلا يريد ان يحملها اكثر من محمولها، ولهذا تأنى وتمنى حتى اصدر كتابه (نجعة الرائد في المترادف والمتوارد) وما هذا الكتاب غير صورة ثانية عن كتاب (الالفاظ الكتابية) الذي يعلم الناس كيف يعـــبرون عن افكارهم وخواطرهم كما نلقن نحن طفلاً حديث العهد بالكلام ، وما قتل الادب العربي غير هذه التعابير (الجاهزة) المعدّة .

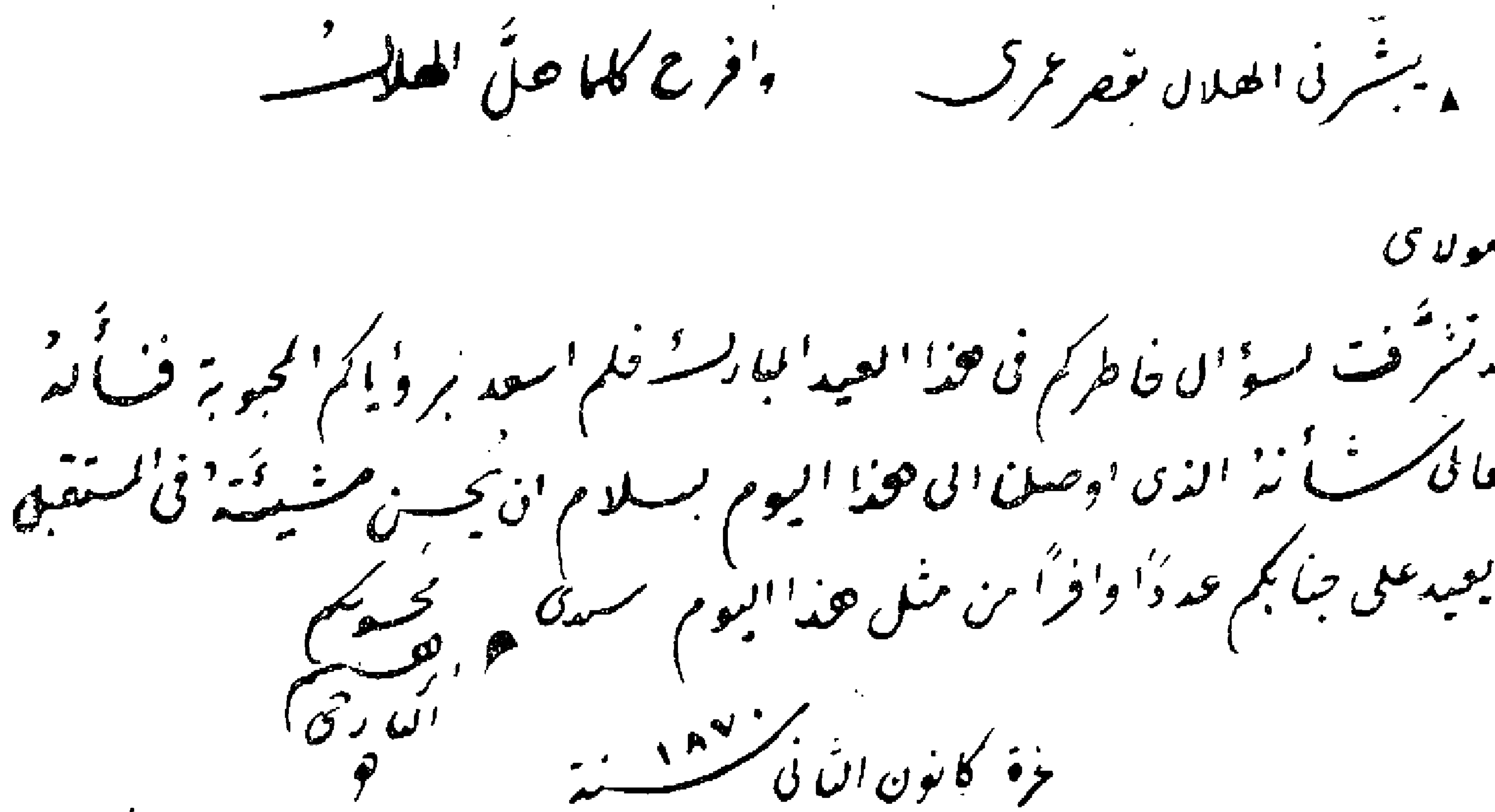
ثم يبدو لنا التقليد اكثر وضوحاً وجلاء حين نقرأ رسائله فنراه ينحو فيها نحو الخوارزمي والبديع ، وما أعزو ذلك الا الى المربى الادبي والنشأة في ظل الوالد، فهي التي وجهته هذا التوجيه . فنحن لا نرى في آثار اليازجيين ما يدلنا على انهما عاشا في زماننا ، مع ان الشيخ كان بخلاف والده يضيف الى ادراكه أسرار اللغة اطلاعاً على الآداب الاجنبية .

ولم يكن الشيخ كاتباً وشاعراً وعالماً فقط ، بل كان يضرب في كل فن بسهم ، يحسن الرسم والتصوير والحفر ، وهذا الاخير هو الذي دفعه الى خلق هذه الحروف الجميلة التي تطبع بها كتبنا اليوم ، فمن نظر الى الحرف المطبعي القديم وقابله بحرف اليوم يسأل للشيخ حسن الجزاء والأجر ، فهو ذو الفضل الاول (في صنع الحروف لعمل الامهات التي تسبك عليها الحروف المطابع ، ناهيك انه عني باختصار قاعدة الحروف المعروفة الى يومنا هذا ، فرد عدد الأمهات الى خُمس ما هي عليه ، بان حصرها في نحو ستين أماً ، حال كون عددها في المألوف لا يقل عن ثلاثمائة)

هذا ما كتبه زعيم الطباعة الاهلية المرحوم خليل سركيس في جريدته لسان الحال البيروتية يوم مات صاحبه ابراهيم اليازجي لان هذا العمل كان بارشاد الخليل ومؤازرته ، وهو الذي ابرز هذا المشروع الى حيز الوجود في مسبكه .

وقد اطلعت على رسالة بخط يد الشيخ ابراهيم بتاريخ سنة ١٨٧٠ وجهها الى صديقه خليل سركيس في مطلع هذا العام مهنئاً،فاذا به يستعمل «رؤياكم »بدلاً من «رؤيتكم»ويستعير« غرة »من الشهر القمري فاستنوق الجمل.. لقد دلني ذلك على ما اصاب من الخير العميم حين انبرى لمناظرة الشدياق ، ونشبت بينهما تلك الحرب

القلمية في عام ١٨٧١ وها نحن ننشر هنا رسم تلك الرسالة لتقرأها :


يبشرني الهلال بنقص عمري وأفرح كلما هلّ الهلالُ

مولاي

قد تشرفت بسؤال خاطركم في هذا العيد المبارك فلم اسعد برؤياكم المحبوبة فالله تعالى شأنه الذي وصلني الى هذا اليوم بسلام ان يحسن مشيئته في المستقبل ويعيد على جنابكم عدداً وافراً من مثل هذا اليوم سيدي

محسوبكم ابراهيم اليازجي

غرة كانون الثاني سنة ١٨٧٠

ان الوفاء لخدام العلم والادب يقضي علينا ان نذكر للرجل فضله الجزيل على كل من حمل قلماً ، فهو وان لم يترك اثراً بديعاً فقد كان له ابعد الاثر في توجيه كتاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم . ولئن كان في انشائه جفاف اساليب العلماء فلا تنس ان فيه صحة وشدة اسر ، وهو قبل كل شيء عربي لا غبار عليه . لم يكن يتعمد المحسنات البديعية ، اما اذا جاءته عبارة جميلة على الهينة فأهلاً ومرحباً ، والا فهو لا يشد بأذيالها لتجيء صوبه غصباً عنها . يؤخذ على الشيخ ترديده بعض عبارات وكلمات بعينها فيزرعها في كل مقال مثل : لا جرم وغيرها ، فتجيء غالباً مثل تلك العبارات التي يكثر الناس من ترديدها في حديثهم ، كقولهم بعد كل جملة : نعم ، او فهمت ، او سمعت يا سيدي ، الخ .

ويؤخذ عليه ايضاً تشدده وتقعره في معاني المفردات وغيرها حتى عدّ غلطاً ما ليس بالغلط ولا بالخطأ ، اذا حكمنا عقلنا في اللغة . فكأنه في احكامه تلك يريد ان يسد على الكتاب باب المجاز ، بل يريد ان يطيّن النوافذ ليمنع تجدد الهواء في حصن اللغة ، مع ان فتح الابواب والشبابيك ضروري خوفاً من الاختناق ، فالألفاظ كائنات حية تقدر ان تتوالد وتتكاثر اذا نفّسنا عنها .. واللغة كالمخلوقات يجب ان

يكون فيها وفيات ومواليد ، والا صارت مومياءات ومتحجرات ...

واخيراً هاك من نثره الفني ذاك النموذج الذي وعدناك به. قال في وصف الزُهَرَة:

« هي ملك جند الدجى بل قائد معسكر الأنوار ، بل إلاهة الجمال قد استوت على عرش من النضار. اذا برزت في ثوب بهائها اكفهرت لها الشمس من الحسد ، بل غشيتها حمرة الخجل بعد ما علتها صفرة الكمد . فاقبل الهلال وقد انحنى بين يديها وسجد ، واطافت بها حور الكواكب كأنهنّ أتراب كواعب ، فوقفن لخدمتها متضائلات امام عظمة جلالها ، وقد ارخين شعورهن من حولها فشبين من جمالها ، فما كادت تتجلى لهن حيناً حتى توارت عنهن بالحجاب ، وسرن في اثرها متتابعات حتى برقعهن الصبح بابيض الجلباب » .

الى ان قال خاتماً النثر الفني :

« تلك الاهة الجمال التي عبدها الاوائل ، واقاموا لها المساجد والهياكل. ورفعوا اليها الابصار والقلوب ، في اخريات الليل وقبيل الغروب . فكانت مناط الآمال ، ومصعد الابتهال .

اماني تخترق الفضاء ، وتسافر بين الأرض والسماء ، فتنزل مكانها طمأنينة الاتكال ، بين حرارة الرغبة وبرد الآمال » .

وقال في وصف القمر :

« هو بعد الشمس أبهى الاجرام السماوية على العموم ، ونكتة الفلك الأرضي بل اقرب ما يرى الناظر في عالم النجوم . اذا استقل في فلكه يسبح فوق الوهاد والآكام ، ورأيته يتراجع مع النجم وهو مُجدّ في وجهه الى الامـــام ، فتخطى الأبراج وكأنه واقف لا يحس له الناظرون انتقالاً ، وظهر باشكاله من الهلال الى البدر حتى يعود هلالا ، فكان قيد الابصار تراه أبداً جديداً على تقادم عهـــده ، وتتوهمه على قيد اميال منها وهو الشاسع في بُعده ، على انه أدنى العـــوالم من الأرض مقيلاً ، واعلقهن بها حبلاً واقربهن تمثيلاً . فهو صورة الأرض في السماء ، ورفيق طيَّتها الى حيث لا تدري في أجواز الفضاء ، وشريك بختها فيما ارصد لهـا من أحكام القضاء . بل هو وليدها وان تقضى قبلها شبابه ، وشابت دونها اترابه .

وقد دفعته عنها منذ فصاله فمر الى حيث لا مطمع في ايابه ، ثم عز عليها إلا أن يكون بحيالها فأخذت عليه طريق انسيابه . فهو أبداً يدور من حولها مقطّع النياط ، ويقطع معها اضعاف ما تقطع من الأشواط » .

« كون جامد ، وقفر هامد ، وسكوت سائد ، وحطام خلق بائد ، لا يخلو هنالك غادٍ ولا رائح ، ولا يسمع صوت باغم ولا صادح ، ولا يسبح طائر في السماء ، ولا يدبّ حيوان على العراء ، ولا يخضرّ وادٍ ولا أكمة ، ولا تسحب اذيالها نسمة، ولا ينتشر سحاب ولا ضباب،ولا يترقرق ماء ولا سراب،ولكن جملة ما هنالك طلل داثر. وعالم من عوالم الدهر الغابر، بل جنازة يطاف بها حول الأرض وان لم تحملها المناكب ، وقد صلّت عليها السيارات فترحمت عليها الكواكب» .

لا بل هو خلَفُ الشمس ومصباح الظلم . ومقياس الأزمان وموقت الامم ، عنه اخذ حساب الأسابيع والشهور ، وبحركته حددت الآجال والتواريخ من أقدم الدهور ، فكان السجل الذي يرجع اليه في المعاملات ، والامام الذي ينزل على حكمه في توقيت العبادات . بل طالما عبده المتقدمون لأنهم رأوا في فعله ما يشبه افعال العاقل ، وانسوا في صورته ما يقرب من هيئة الناطق وشاهدوا من بقائه ما نزّله عندهم منزلة الخالق،فكان له الحكم في السعادة والشقاء، وصلاح الغرس والزرع، وصحة الجنى والقطع . وعلى الجملة فقد كان الحكم في الاحوال والأعمال ، والمستشار في العزائم والآمال ، بما يبدو عليها من نقص أو تمام،اويتفق لهمن اقتران بغيره من اجرام ، مع اعتبار ما يقع ذلك فيه من الأيام. شؤون ساق اليها ضعف الأحلام ، واستيلاء الأوهام ، والله وراء ما يفعلون ، وهو العزيز العلام ... »

ثم يمضي على رسله في بحثه العلمي بنثر مرسل فلا يعنيه إذ ذاك شيء من الخيال .

صروف وزيدان وتقلا وسركيس

أدرك زيدان البستاني وتأثر باسلوبه ،.فكان في هلاله من الروّاد الاركان . اراد أن يكون طبيب اجساد وشاء القدر ان يكون طبيب افكار، فنشر رواياته التاريخية التي صادفت رواجاً عظيماً فطبعت مرات ، وترجمت الى لغات عديدة . لقد سبق الى مثلها سليم البستاني ولكنها لم تكن كروايات زيدان فناً ، وان

لم تكن هذه في المستوى القصصي الرفيع . ولزيدان كتاب تاريخ الادب العربي الحديث،فهو اول من فصله على هنداز الكتب الاوربية ، وقسّم عصوره على غرار تاريخ الادب الانكليزي. وله ايضاً كتب عديدة اخرى في التاريخ وغيره «كتاريخ التمدن الاسلامي» و«العرب قبل الاسلام» و«الفلسفة اللغوية» و«علم الفراسة» وغير ذلك.

إن لزيدان فضلًا جزيلًا على النهضة الحديثة ، فهو من اركانها الكبار . قد علّم الناس تاريخهم وسلاهم في وقت معاً .

أما الدكتور صروف فأنشأ مجلته المقتطف ، بعد صدور الجنان بثلاثة اعوام، فكانت منذ نشأتها علمية ، وهي لا تزال حتى اليوم محافظة على صبغتها تلك وزيها الاول. لا تزال لابسة فسطانها الطويل غير متشبهة بوصيفتها الهلال التي قُصّ شعرها وقُصّر فسطانها لتماشي الزمن. فالمقتطف موسوعة تتضمن تاريخ تطور العلم منذ نشأتها عام ١٨٧٣ حتى الساعة . ومن اجتمعت له جميع مجلداتها فقد وقع على كنز ثمين .

وأهم ما يلفت النظر في المقتطف ان منشئها الدكتور صروف كتب فيها روايات ذات لون محلي — روايتي امير لبنان وعروسة النيل — ولعل رواياته هذه ، وروايات فرح انطون، اقرب ما كتب ، في تلك الحقبة ، الى اصول الرواية الحديثة وفنها .

وفي بدء الربع الاخير من القرن التاسع عشر انشأ سليم تقلا جريدته الاهرام. وسليم من تلاميذ المدرسة الوطنية التي انشأها المعلم بطرس ، ثم صار فيها معلماً . ولما ضاق عنه لبنان قصد مصر حاملاً الى سمو الخديو اسمعيل قصيدة رنانة ، فمهدت له سبيل الحصول على امتياز جريدة الاهرام عام ١٨٧٥ ..

لا حاجة الى وصف الاهرام ، وانما يحسن بنا ان نقدّم نموذجاً من إنشاء تقلا لان اسلوبه أشبه باسلوب المنشئين في زمنه . إنه يقول الشعر كما عرفت ، وليس البستاني وزيدان وصروف بشعراء ليكتبوا بهذا الاسلوب المنمق . قال سليم تقلا من مقال عنوانه (الجامعة العثمانية) :

جوزيتِ يا صُروف الزمن خيراً عن الشرق، ولئن بلغ سيلك فيه الربى وفاض منه الوطاب ، لانك امطت لثام الجهل والغرور عن البصر والبصيرة ، فشاهد الصور وادرك مادتها ... اعدت له ذكرى ماضيه ايام كان يجرّ ذيل العجب والتيه

ويتعثر بالبسط السندسية ، ويرفل بمطارف الاجلال ، ويزدان بحلى الفضل ،ويعتضد بجامعة الكلمة ، ويشنف السمع بنغمات الاتفاق ، ثم نقلت به الى ايام اخذ يجر فيها ذيل الفقر ويتعثر بشوك القتاد ، ويرفل بعباءة التحقير ، ويزدان بحلى الجهـــل ، ويعتضد بتفريق الكلمة ، ويشنّف السمع بنغمات الاختلاف ، فتبين بالمقابلة مـا هنالك ، وبضدها تتبين الاشياء .)

هذا هو الاسلوب الذي عنّف الشدياق سليم البستاني لاجله ، ولكنه ساد بعـد موت الشدياق ...

اما خليل سركيس فانشأ مطبعته ، أولاً ، باسم مطبعـة المعارف عام ١٨٦٨ بشراكة حميه المعلم بطرس البستاني ، وظلا شريكين مدة سبعة اعوام . ثم كان الانفصال عام ١٨٧٥ فانشأ سركيس المطبعة الادبية ، ثم اصدر بعد عامين جريدته (لسان الحال) فعرّض بهـا سليم البستاني بقوله : صدرت في بيروت جريدة آخر زمانها ، فرد سركيس على ابن حميه بلسان الحال قائلًا :

واني وان كنت الاخير زمانه لآتٍ بمـا لم تستطعه الاوائل

وثبت خليل سركيس في الميدان وكانت صحيفته مثال الرصانة والاعتدال ، فلم ترو قط خبراً لم تستوثق منه . واقبل على مناصرتها حملة الاقلام فكانت ميداناً للروّاد ومنبتاً للكتاب والشعراء الذين كان لهم اجلّ شأن في تاريخ النهضة .

لم يكن خليل سركيس ذلك الكاتب الانيق العبارة ولكنه كان رجلا واقعي التعبير يسمّي الاشياء باسمائها . واذا لم يعدّ من رؤوس الكتاب فهو بدون شك ، من رؤوس الصحافيين الذي عرفوا بالصدق وقول الحق ،فلم يسجلوا في صحيفتهم غير الصحيح من اخبار ،ولم يحملوا حملات غواشم بل كان تأنيبه نصحاً وتوبيخه مشورة .

كانت اول معرفتي به في آخر عام ١٩٠٦ ، عرفني بـه المرحوم خليل طنوس باخوس صاحب جريدة الروضة وزرناه معــاً في سوق اياس حيث كانت مطبعته وادارة جريدته ، فرأيت في ذلك الوجه سيماء اللبنانيين العتاق .

وكما كان لجريدته لسان الحال فضل على الادب والسياسة كذلك كانت لمطبعته يد في نشر الكتب واخراجها بحلل قشيبة . انتشر حرف سركيس الانيق في كل

قطر ينطق بالضاد ، وعرف الناس له وللشيخ ابرهيم اليازجي هذا الفضل على العين والرأس . ومني سركيس باحتراق مطبعته فكان طبيعياً ان يكون الشيخ ابرهيم اشد الناس شعوراً بهذا الخطب الجسيم فكتب الى صديقه يؤاسيه ، وهذه صورة تلك الرسالة التي تفضل علينا بها خليل سركيس الثاني .

جناب الاخ الماجد المحترم حفظه الله تعالى

بعد السؤال عن عزيز خاطركم اعرض انه بكل اسف بلغني خبر الجائحة المشؤومة التي المّت بمطبعتكم الزاهرة مما كان له الوقع الاليم في فؤاد كل من عرف ما لكم من الايادي البيضاء في الوطن وما لمطبعتكم من الآثار التي ملأت المكاتب ادباً وعلماً وخلدت لكم فيها ذكراً لا يزول عزاؤنا لما كان ذلك بالقدر الذي لا يُدفع قضاؤه ولا يُتقى نزوله فالحمد لله ثم الحمد لله على ان الرزء كان في المال لا في العيال وان قد سلمت منه النفوس وان ذهب النفيس فان المال مخلوف وان النفائس مردودة باذن الله تعالى وعونه وهو سبحانه المسؤول ان يعوض عليكم اضعاف ما ذهب ويقيكم بعدها من كل كارثة بمنه عز وجل وكرمه

مُحبكم المخلص
ابرهيم اليازجي

باريز في ٢ ت ٩٥

وانه يسرني جداً ان يظهر كتابي هذا في الوقت الذي بلغت فيه جريدة لسان الحال يوبيلها الالماسي بجهد الابن والحفيد .

المبشران فان ديك وشيخو

●

كرنيلوس فان ديك

منذ مئة وعشر سنوات ونيف، جاء بيروت شاب اميركي. ثم قضى هذا الشاب حياته كلها في الربوع الشامية طبيباً للارواح والاجساد، وعوناً للفقراء والمساكين.

وبعد خمسين عاماً شعرت نخبة من الرجال بفضل الدكتور فان ديك الغامر فاحتفلوا بيوبيل مجيئه الذهبي، وسجلوا الاقرار بفضله على رقّ غزال مقدرين ما صنف وألّف من كتب مفيدة، ادبية وعلمية وطبية، وبما شيد من مدارس وصروح علم ونوادي خير، وتعليم فقراء ومعالجة مرضى، وما اعد للبلاد من رجال.

احتال، رحمه الله، للعلم فاقتنصه من بين مخالب الفقر وانياب الفاقة، تعلم رغم فقر ابيه فصار الطبيب النطاسي، والعالم الناطق بعشرة ألسن، ومستشرقاً كالأصيل. بل فلنقل مستعرباً لأنه يعرف اسرار لغتنا كعلمائنا، واخيراً عادى قومه وارفض عنهم لأجلها، يوم اقترح ان يكون التعليم باللغة العربية لا باللغة الانكليزية.

جاءنا مبشراً بالفضيلة والعلم ومعلماً مؤلفاً المفيد النافع، فكان في سيرته النقية سفراً جليلاً حياً. قرأ اسلافنا في سريرته سطور الشرف وجوامع النبل ومكارم الاخلاق، ومتى عرفت من عاشر واحب ادركت سمو اخلاقه. كان عشيره ورفيق صباه المعلم بطرس البستاني فوضع واياه حجارة ضخمة في اساس نهضتنا العلمية. كانا شريكين، كل يعمل لحسابه، او فرسين كريمين يكران مع الجديدين، بلا كلل ولا ملل.

فأينما تطلب الدكتور فان ديك كنت تجده. ان طلبته في البرية فهو كالسيد

مولع بالنبات وزهور الحقل يصنفها وينظمها ، فكانت له منبتة شرقيـــة اعجب بها كبار علماء النبات . وان تطلبه في السماء تجده يسبح بين الكواكب والنجوم في مرصد الكلية الذي أنشأه بماله ، ليرى ويُري الناس محاسن (القبة الزرقاء)، ويعلمهم اصول علم الفلك . وان طلبته في الجبال كنت تراه بين المسطحات والمثلثات. وان فتشت عنه بين الناشئة رأيته بينهم أباً ومعلماً ، يكتب لهم كتابه الشهير (النقش في الحجر) لينوّر اذهانهم ، ويؤسس لهم المدرســـة الكبرى ليعلمهم ، والمستشفيات ليعالجهم ، ويؤدي ثمن الدواء من كيسه . كان جواداً في الاحسان حتى التبـــذير ولذلك اشترط عليه تلاميذه الا ينفق هديتهم المالية في سبيل البر كعادته .

وكان حلو الحديث ظريفاً ، ولكنه لا يتبذل . تمثل بامثالنا ، وعـــلم اسلافنا الحياة العملية . فكثيراً ما كان يردد : الحلاقـــة بالفاس ولا جميلة الناس. وكم من نكتة وملحة نادرة وفكاهة تروى عنه ، فتملأ المجالس والافواه طرباً ونشاطاً .

جاء فان ديك ديارنا لا يملك فلساً ومات لا يملك الا المآثر الطيبة . واروعهـا تأسيسه الكلية الاميركية ، وتأليفه اكثر من عشرين مجلداً كلها نافعة . وفان ديك، بعد البطريركية المارونية ، هو اول من اختار الارزة ، فكانت شعاراً للجامعة منذ نشأتها . وكان ذلك الفال مليحاً فصارت الجامعة ارزة طارت منهـا نسور النبوغ .

لست اذكر من قال : الرجل المثقف هو الذي يعرف شيئاً عن كل شيء ،وكل شيء عن شيء . بيد اني اعرف حقاً ان الدكتور فان ديك كان ذلك الرجل ، وهو من كبار رواد نهضتنا واحد بُناتها على الطراز الحديث .

الأب لويس شيخو

اذكر ان اول كتاب اقامني واقعدني سروراً ، هو الجزء الثالث من مجـاني الادب . استحضره لي والدي من بيروت فعكفت عـلى مطالعته برغبة ولذة . ثم جرت عجلة الايام مسرعة ، فاذا انا في مدرسة مار يوحنا مارون اتلقى (علم الادب) في كتاب ألفه الاب شيخو ، مصنف (المجاني) في ٦ اجزاء وشارحه في ثلاثة أخر .

لم يعلمنا استاذنا من كتاب علم الادب ، غير علم المعاني والبيان والبديع المنقولة عن القدماء ، اما ما بقي من الكتاب فـــلم يعنه امره . وسمعنا بكتاب (شعراء

النصرانية) فاستقدمناه فاذا هو لهذا العلامة الجليل ، واذا كل ما عرفناهم من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى . كان (التعميد) بالماء فاذا به قد صار بالحبر ولكن هذا ليس يعنينا الآن . فكل مـــا يهمني من الاب شيخو هو خطواته الواسعة الجبارة في طريق النهضة .

ثم ظهرت مجلة اسمها (المشرق) واذا هي للأب شيخو ايضاً ، فكان هذاالرجل يكبر في عيني يوماً بعد يوم حتى عرفته في بيروت،ايام علمت في كلية القديس يوسف اقل من ثلاثة اشهر واخرجت منها بامر نيافة القاصد الوسولي ، لانني خطر عـــلى الطائفة المارونية والدين الكاثوليكي ...

ها انا ذا في غرفة الاب لويس نتحدث ونتضاحك ... كانت ضحكته كأنهـــا سوداء ، وكأنه انما كان يضحك غصباً عنه . فهو ذو نفسٍ لا تمل ، ويد لا تكل . ارسلت اليه من مدرسة الحكمة ، يوم كنت تلميذاً ، قصيدة عنوانها (المرائي) فلم ينشرها . وكان عذره غير مقبول عندي في حينه لاني لم اكن ابحث عن المفردات في معجم لاروس ...

للأب شيخو اجلّ فضل على النهضة الحاضرة، فهو الذي عبد لنا الطريق في كتبه التي يضيق المقـام عن عدها . فكتابه (عـلم الادب) تناول كل حديث من الوان الادب، وهو يعلم الطالب الاصول من فن القصةوالرواية والتاريخ الى النقد، وكل ما استحدث من ضروب . وفي مجلته المشرق التي تعد حجة في المشرقيات ، عرّفنا على الروايات الاصولية والابحاث الدقيقة ، ودلنا على ما في بلادنا من آثار . ثم لم يقف عند هذا الحد بل علمنا ايضاً تاريخنا ، وطبقات ارضنا ، وأحيا ذكر نوابغناعلى اختلاف الملل والنحل ، وهكذا احسن الرجل الى الادب العربي كل الاحسان بمـا بعث وحفظ من كتب . وغيرتـــه عـلى الكتب الخطية القديمـــة الـتي كانت مبعثرة في هذا الدير وذاك البيت ، حيث لا يعرف قيمتها اصحابهـا ، أوحت اليه انشاء المكتبة الشرقية،وهي من اشهر مكتبات الشرق بل هي اغناهافي المخطوطات.

ليس الاب شيخو ذلك المنشيء المنمقة عبارته ولكنه الباحث المدقق، والمناضل العنيف عما تجند للدفاع عنه . بحاثة جريء حمل على الماسونية حملات غواشم، يوم كان

اسم (الفرمسون) يخيف ويرعب . ولكن (الماسون الكبار) حملوه على اكتافهم الى القبر تعظيماً لعلمه ، واجلالا لحرية الفكر والقول ، فكان ذلك ابلغ رد على كل ما ألصقه بهم من تشنيع وتزييف . وها انا احد اولئك انحني الآن احتراماً لآثار شيخو ، واقرّ انه كان المجلي في الحقبة الاخيرة من القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين . ولولا تعصبه لدينه ذلك التعصب العنيف لأجمع الناس على تقديره ، ولم يختلف في تقديمه احد ، على كل من تقدموه من الاحياء في نشر كل جديد وتّجيه النشء اصدق توجيه فني .

ومن مقدمة (المشرق) التي كتبها شيخو في غرة عام ١٨٩٨ يتضح لنا انها لم تنشأ الا لخدمة الشرق اولاً (لئلا يقال ان الغريب ادرى بما في البيت من أهله ، لا سيما ولا نزال نرى كثيرين من الاجانب يعكفون على تتبع اخبار بلادنا واستبطان احوالها وكشف مكنون اسرارها فدعوا لذلك بالمستشرقين) .

وبعد ان وعد القراء باخبار الاكتشافات والاختراعات الحديثة ، قال : ولما كانت غايتنا ان نجمع في هذه المجلة بين الامور المفيدة والمبهجة معاً ، احببنا ان نفرد بعض صفحات لروايات خيالية نتخذها وسيلة لتفكيه المخيلة ، وطريقة لتمثيل عوائد الامم المختلفة في احوالها وتواريخها ، ورسم تخومها ووصف آثارها [١] .

وهكذا فعل خادم الآداب الامين ، فجاءت روايات المشرق مؤلفة وفقاً للاصول الفنية لان كتابها عارفون بذلك ، وليسوا حديثي العهد كروادنا . كتب الاب لامنس بالفرنسية رواية خريدة لبنان ، ورواية حبيس بحيرة قدس ، وعربهما نجيب حبيقة ورشيد الشرتوني . وكتب الاب اميل ريغو رواية السفر العجيب الى بلاد الذهب ، وعربها الشرتوني ايضاً ، وكتب الاب س . ت . اليسوعي يمين العلي ، وعرّبها شيخو ، وكتب الاب ليفنكستون زوار الليل ، وعربها الخوري اسطفان البشعلاني .

وهكذا ساهم اليسوعيون في نشأة الرواية عندنا ، بهمة الاب شيخو الذي يستحق شكرنا الجزيل في العام القادم ، بمناسبة ذكرى وفاته الخامسة والعشرين ، فعسى ان لا يفوتنا هذا الواجب ، كما فاتنا غيره من واجبات اخرى .

---

(١) المشرق . السنة الاولى ص ٣ و ٤ .

البستاني والحوراني والأزهري

•

ان اكثر الرواد كانوا معلمين وكتاباً وشعراء في وقت معاً ، وقد اطلقت عليهم جميعاً كلمة المعلم ، قبل ان (تأستذ) جميع الناس حتى الامّيون منا ...

فبطرس البستاني وولده ، سليم ، والمشايخ الاحدب ، والاسير ، وناصيف اليازجي وابنه ابرهيم ، وجبر ضومط وغيرهم كانوا جميعاً ممن علموا ، ونفعنا الله بعلمهم .

والشرتونيّان الشيخ سعيد صاحب اقرب الموارد ، واخوه رشيد صاحب مباديء اللغة العربية ، التي تعرف ، حتى الان بالشرتونية ، ونجيب حبيقه وانطوان الجميل جلسوا على كرسي التعليم زمانا . وهناك كثيرون من المعلمين الرواد كالخوري يوسف الحداد وغيره من اصحاب الآثار الادبية الذين لا محل لذكرهم في هذا الكتاب لحداثة عهدهم ، فما يعنينا هنا الا ثلاثة منهم كانوا ابعدهم واعمقهم أثراً في رجال النهضة .

فالشيخ عبد الله ، كما لقّب اخيراً ، كان معجماً حيًّا يمشي على الارض . وهو ابصر اهل زمانه بنحو اللغة العربية وصرفها ، والفاظها . كان شاعراً تفوح رائحة القطران من أردان (بنات افكاره) ، فكأنه عاش في الصحاري مع تأبّط شراً والشنفرى ، ولهذا يبني قصيدته اعرابية ساعة يشاء .

لقد مر ذكر معجزته (التاريخية)، اما الان فاريد ان اعرفك بمعجزته الأخرى ، وهي (تشطيره) معلقة عنترة وتحويلها مدحاً للمطران يوسف الدبس ، فهاك شيئا

ممـــا قال :

(هل غادر الشعراء من متردّم) فتسدّ ثلمته برأس المرقمِ
ام هل وددت ظباء منعرج اللوى (أم هل عرفت الدار بعد توهّم)
(حيّيتَ من طلل تقادم عهده) حتى التوت عنه نهى المترسّم
يبكي به غدق الرباب لانه (أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم)
(ان تغدفي دوني القناع فانني) أدَعُ القنوعَ ومدح يوسف مغنمي
حبر اذا هزَّ اليراع فانه (طبّ باخذ الفارس المستلئم)
(واذا ظلمت ذأن ظلمي باسل) في الجاحدين عطاءه للمعدم
فكم اجتداه المملقون ودهرهم (مرٌّ مذاقتهُ كطعم العلقم)

اما في وصف الناقة فانظر كيف التقى البطلان كأنّهما جبلان :

(وكأن ربّاً او كحيلا معقدا) سالا غداة ذميلها كالحنتم
فاديرها مثل المجس ودفتها (حشّ الوقود به جوانب قمقم)
(ينباع من ذفرى غضوب جسرة) تحكي اذا وخدت زفيف الزهدم
أكرمْ بها من بازلٍ عيهامةٍ (زيّافة مثل الفتيق المكدم)

واخيراً يقول في التذييل :

واليكها بدوية عبسية تسدي اليك ثناء عنترة الكمي
نسجت لها كف الحضارة مطرفا يزري اذا خطرت بكل مسهّم

واظن انني اشهد وتشهد انت معي ان قصيدة شيخنا هذه لم تسمع بالحضارة قط، بل ولم ترها وجهاً. كان التشطير والتخميس والتضمين من بضاعة عصر الانحطاط، وقد اكثر (روّادنا) من عرض هذه البضاعة في سوق الادب . وكثيراً ما كان معلمونا ، حتى الكهنة الاجلاء منهم ، يقترحون علينا (فروضاً) شعرية ، وجلها من الغزل الدسم مثل :

لو ان لي في من احب عواذلاً لسعيت في تشتيتهم وتوصلي
لكن محبوبي تعشق نفسه وغدا العذول فمايكون تحيلي

ومثل :

وامرّ ما لاقيت من ألم الهوى قرب الحبيب وما اليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ولهذا عدّ الادباء تشطير معلقة عنترة فتحاً مبيناً، وتحدّياً عنيفا للشعر الجاهلي ؛ فطارت شهرة المعلم فيها وان كان قد نظم التمثيليات كما مر ، والحكايات الروائية مثل قصيدته (الفرصاد) التي مطلعها :

وذات صيانة عقدت يميناً على حب امرىءٍ عقداً متيناً

ففتح باب الشعر القصصي لتلامذته وغيرهم ، فقال تلميذاه شبلي الملاط وامين تقي الدين قصيدتيهما : الجمال والكبرياء ،والجمال والتواضع .اما المعلم الشاعر الآخر فهو ابراهيم الحوراني وقد كان لغوياً أيضاً ، كما كان معلمو ذلك العصر ، وهاك شيئاً من قصيدةٍ له عنوانها ، حال العالِم في الشرق :

ذو العلم بين الطرسِ والمرقم كالثبت بين العضب واللهذم
كلاهما يبغي علاء ولا يناله إلا بسفك الدم
والأوّل الأولى بغنمٍ لما في سعيه من شامل المغنم
طوراً تراه في جوار السهى وتارة في جيرة المرزم
وكم جرى في صحصحان الفلا يشكو الوجى في الغاسق الأهيم
يبحث عن آثار عادٍ وما وأرى تراب الأرض من جُرْهم

ثم يتطرق الى وصف شقاء العالم فيقول :

يجلس في أعراس إخوانه كثاكلٍ تجلس في مأتمِ
تستازم الدينار احجاثه وليس في الهميان من درهم
وعرسه الثكلى على جلة القى بها التمّار للمعدم
ذي حالة العالم في موطنٍ يُكوى به ذو الفضل بالميسم
يركبه الجاهل من حلمهِ والممتطي صنو لذي المحزم
لو انصف الدهر امتطى كل ذي علمٍ اخا جهلٍ فلم يظلم

وخير ما تقرأ للحوراني من شعر هو قصيدته التي قالها في رثاء صديقه ابرهيم اليازجي . ولعل الحوراني القوّال اشعر منه الحوراني الشاعر الفصيح .

أما الشيخ احمد عباس الازهري فكانت تجلله ابهة الشيوخ المحترمين ، ومهابة رجال السمت ، فتخال ، متى وقعت عينك عليه ، انك امـــام رجل من السلف الصالح . نذكره هنا وان لم نذكر سواه من مؤسسي المدارس الوطنية ، لانـه كان منشيء مدرسة ومعلماً فيها في وقت معاً .

وقف بقية عمره على تأدية رسالته فأدّاها على حقها . كان رجلًا فعّالا اكثر منه قوّالاً . لم يترك اثاراً أدبية ولا قصائد كغيره من شيوخ العلم ، ولكنه كوّن وانشأ رجالاً كانوا من اركان النهضتين الادبية والقومية .

كان الشيخ متمكناً من لغة الضاد عارفاً اسرار بلاغتها فاخرج الى العالم العربي كتّاباً وشعراء يؤدّون افكارهم باصح تعبير وافصح عبارة ، ناهيك بما بث فيهم من روح وثابة ، وعزة قومية فطارت شهرة كليته العثمانية التي انشأها وتعهدهـــا بنفسه طول الحياة فاخذ عنها النشء العربي أسمى المبادىء وانبلها .

کتاب النضال

اديب اسحق

•

شامي المولد والمربى ، لبناني المنشأ ، مصريّ الهوى ، عربي النزعة ، كاتب نضال . تعلم العربية والفرنسية في مدرسة الآباء اللعازاريين ، واضطر الى الكدح والسعي لاجل المعاش فبكر في مغادرة المدرسة ليشغل وظيفة في ادارة الجمرك براتب مئتي غرش ، فدرس التركية في اوقات فراغه . قال الشعر صبياً فنظم وكتب ، ثم انضم الى والده في خدمة بريد بيروت ، فأطل على دنيا أدبية جديدة استهوته فهام بها وعاف لاجلها الوظيفة ، وبرز في ساحة تلك البيئة عارضاً قلمه وهكذا ادركته حرفة الادب .

تفتقت براعم موهبته الادبية قبل الاوان ، فبشر بها معلمه أباه والغلام لما يبلغ العاشرة ، ثم تحققت تلك النبوءة في بيروت فعهد الى الفتى وهو في السابعة عشرة بتحرير جريدة (التقدم) فلاح في سماء الادب كوكب جديد .

كان مع عمله الصحفي يؤلف ويترجم عن الفرنسية . وانتمى الى جمعية (زهرة الآداب) ثم صار رئيسها فعرف الناس الاديب الخطيب ، بعد ما عرفوا الاديب الشاعر الناثر فشنها غارة شعواء على العبوديتين : (الطائفية والمدنية) . كان بوقاً صارخاً في بيداء الخمول يدعو النائمين الى الهبوب والمطالبة بالحرية والاستقلال . وفي التاسعة عشرة شارك في تأليف (آثار الادهار) وعرّب اندروماك لراسين ، ثم آزر صديقه سليم النقاش في تأليف المسرحيات وتمثيلها وسافر الى الاسكندرية ملتحقاً به ، فكانت جوقتهما اول جوقة تمثيلية عربية تخطت الحدود ، وتجاوزت تخوم بيروت مهد المسرح العربي . فعرّب اديب رواية شارلمان ونقّح اندروماك ، وألف رواية (غرائب الاتفاق) وكان في هذا كله مؤلفاً ومخرجاً وممثلاً .

وراودته الصحافة فسار مشمراً ، الى القاهرة ، حيث عرف الامام الثائر السيد جمال الدين الافغاني ، فالتقت النار بالنـــار والتهمت الاخضر واليابس ، فقاسى الرجلان ما قاسيا من نفي وتشريد . أنشأ اديب جريدته (مصر) فرحب بها محبو الانشاء العالي ، واندفع كاتبها هائجاً كالبركان يرسل نوراً وناراً . فحركت الهمم واعادت عزّ دولة اليراع ، فرأى الناس البلاغة تمشي في اسواقهم كأنها اهـــل الكهف . كانت لهجتها غريبة الوقع في النفوس ، تدفع وتزجر ، وتنهى وتأمر .

ثم اصدر مع صديقه النقاش جريدة (التجارة) يوميـــة ، وظلت (مصر) تظهر اسبوعية .

وغاص اديب في السياسة من قدميه الى قرنيه فاضطرته الاحداث السياسية الى الفرار فهرول الى باريس . وكأنه ابى ان تقف المعركة ويضع اوزار النضـــال فأصدر في عاصمة الفرنسيين كهف الاحرار ومعقلهم جريدة (القاهرة) متوّجـــاً اولى نشراتها بهذه العبارة : « ما تغيرت الحقيقـــة بتغير الاسم ، بل هي (مصر) خادمة مصر » .

وكتب مقالات بالفرنسية عن احوال الشرق وما يعتلج في صدر الزمـان من طبخات دولية ، فأصغى اليه العالم الغربي ، وهناك عرف كثيرين من كبار ساسة فرنسا وعلمائها وشعرائها . روي عن فيكتور هيغو انه قال لمن كانوا في حضرته ، على اثر انصراف اديب منها : « هذا نابغة الشرق » .

وحضر جلسات عديدة في مجلس النواب الفرنسي فثقف السياسـة وتفاقم هواه للخطابة وازداد اقداماً فيها . ولكن برد باريس أثر فيه فتمكنت منه علة الصـدر فقفل الى وطنه يتداوى بهواء بلاده وشمسها . وعاد يحرر جريدة «التقدم» في بيروت ، فكانت بينه وبين الآباء اليسوعيين معركة (التعليم الالزامي ومجانية التعليم) فبثّ افكاراً وآراء تشبعت بها نفسه بباريس .

ولما تغيرت الاحوال في مصر دعي اليها وعين مديراً لقلم الانشاء والترجمةبوزارة المعارف ، ورخص لجريدته « مصر » بالظهور . وقام باعباء وظيفة اخرى مع وظيفته وهي كتابة سر مجلس النواب ، ومنح الرتبة الثالثة وسلمه عزيز مصر براءتها يداً بيد .

وكانت الثورة العرابية فعاد الى بيروت، ثم رجع الى الاسكندرية بعداحتلالها، فاعيدت البضاعة الى مصدرها، بعد ان زار اديب السجن زيارة قصيرة وقال فيه شعراً . وفي بيروت طبع رواية (الباريسية الحسناء) التي عرّبها .

واطبق داء السل كماشته على ذلك الصدر الجياش الواسع فأشار الطب بمناخ مصر، فاذن له بالرجوع اليها ، ولكن حلقة العمر كانت قد ضاقت ، فانقلب على اعقابه الى لبنان ومات في مصيفه بحدث بيروت ولما يكمل تسعة وعشرين عاماً.

وانتدب اهله كاهناً ليصلي عليه فامتنع عن مرافقة جثته وادخاله الكنيسة ، ما لم يكتب والده ، بخطه وتوقيعه : ان ولده عاش كاثوليكياً ومات كاثوليكياً . وتدبر العقلاء القضية بالتي هي احسن ومشى الدليل امام اديب الى بيته الأخير ، ورخص له بدخول عالم الأبدية ...

هكذا جمع الموت ، اخيراً ، بين اديب والشدياق في خراج قرية واحدة . عاشا مهاجرين اعرابيين ، ثم ناما تحت السماء التي اوحت لهما ما اوحت من ادب وحرية فكر ، وطلاقة لسان وطلاوة بيان. فرّ نسر لبنان الشدياق ينشد حريته في الآفاق، فكان يستقر اعواماً حيث يحل ، اما اديب فقضى عمره القصير شريداً طريداً . ان قصر عمر اديب لم يمكنه من الاستقرار فهو لم يتجاوز عمر القمر . فما اكتمل حتى امحق ، ولكن البقية الضئيلة من تغاريد هذا الطائر الفذ تدلنا عليه دلالة لا لبس فيها ولا اشكال ، كما قال في رثائه صديقه الأديب اسكندر العازار :

« كان رايتنا في علم اللسان ، وآيتنا في صناعة البيان، وغايتنا في حب الانسان، وكان ، والله ، فتى ولا كالفتيان ، كان زهرة الأدب في الشام ، وريحانة العرب في مصر ، عاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً ، ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً ، فليبكه ضمير الاحرار ولتندبه الحرية . نشأ وطنياً خالصاً صحيحا ، وعاش جندياً لأشرف الأصول وأسمى الغايات ، وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح ، وجاهد جهاداً حسناً فمات شهيداً حميدا . »

عصره — كان اديب في عصر التناحر على المسألة الشرقية ، ونشأ في ارض كانت الناس ترزح فيها تحت نير الاقطاعين : الديني والمدني ، فكيف تنفّست تملأ

خياشيمك روائح استبداد تضيق لها الصدور وتنكمش النفوس . رسالات دينية اجنبية تتناحر على شطنا اللازوردي ، يخدمون قيصر معتقدين انهم يخدمون الله . يقفون امام مخازنهم كالتجار في اسواق الكساد ، كلٌ ينادي على سلعته يجذب هذا ويتمسك باذيال ذاك ، داعياً اياه الى دكانه زاعماً ان عنده البضاعة الصحيحة ، وان بضائع سواه مزجاة ، ودرهمه زيف... وقامت بين هؤلاء وهؤلاء عشيرة الماسونية تشجب الشيعتين وتدعو الناس الى الاخاء والحرية .

اما المواطنون فأفادوا من تناحر الفريقين – الكاثوليك والبروتستانت – علماً وثقافة ، فاستنارت الافكار واستضاءت الاذهان وهكذا جنينا من عوسج التعصب تيناً ، ومن قطربه عنباً ... جنينا ثمار علم يانعة وجهتنا توجيهاً لم يكن في حسبان من دعونا الى مآدبهم الجدلية وكثيراً ما يؤدي بك الجدل الى حيث لا تريد .

نشأ أديب في زمن بلغ فيه سيل الركاكة الزنار . كان يحاربها (صقر لبنان) في جوانبه ، داعياً الى البلاغة والنسج على نول السلف ، فما كاد يسمع ، بعد صراعه الطويل في تعليم الجيل ، صوت اديب حتى اعجب به وراق له نهجه فاثنى عليه وترجى خيراً بعد عناء وجهاد طويلين . وكانت تلك الحقبة حقبة انشاء المعاهد العلمية من كلية اميركية الى كلية يسوعية ، الى مدارس بلدية ، كالحكمة والبطركية والمدرسة الوطنية للبستاني ، ثم قام الى جانب هذه جمعيات ادبية تعالج المواضيع العامة ، وتهمس ما استطاعت لتحرك الهمم محاربةً الاستبداد ، ساعية وراء تحرير العقول . كانت هذه الحقبة غنية بالعلماء كالشدياق مالىء الشرق والغرب ، والبستانيين واليازجيين والاسير والاحدب والدبس والشميل وصروف وزيدان . كل هذه العناصر كانت تتفاعل في بيروت حين برز اديب للميدان فكان من امره ما كان . تعرض الشدياق للكثلكة لنكبة انزلوهــا باخيه ، أما اديب فتعرض لكل سلطة مستبدة سيان عنده الدينية منها والمدنية ، وانتمى الى الماسونية فازدادت نار ثورته اتقاداً ووقوداً .

وقد اجتمع الشدياق واسحق على حب مصر والشرق ، فعاشا ينافحان ويناضلان وظلا كذلك حتى مدّ الدهر يده وانتزع من بين اصابعهم العَلَم ، فمات الشدياق

بعد ما شبع من السنين، وقصف غصن حياة اديب ،ولكن نضاله القصير العمر كان سميناً خطبه وجليلاً شأنه ، كما قال ابو تمام في قلم ابن الزيات .

واليك احدى كلمات اديب في مقال – دولة العرب – التي تحسب انها كتبت امس ، فبعد ان عدد امجاد العرب العلمية والسياسية والادبية قال :

« يندهش من يلقاهم مقتصرين من العلم على ما لا يجلب خيراً ، ولا يدفع ضيراً يعقدون مذاهبهم فيه بالاوهام ، او باضغاث احلام ، او ينيطون اسبابها بالسماء فيخطئون من حيث يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيث لا يعلمون . ويندهل إذ يجدهم راضين عن الكسلة المتراهبين ، والجهلة المتجاذبين ، يقبلون منهم اكفاً لا تعرف الطهارة ، ويستحلبون منهم ابداناً انفت منها الستارة ، حتى صار الكسل عندهم من المعايش ، والخمول من المفاخر ، والجهل من الملاجيء ، والذهول من الكرامات، كأن لم يبق فيهم من عالم عامل يبدد الاوهام،ويبدي الحقيقة للافهام. »

الى ان قال : « كلا والله ثم كلا : انهم لا يعدمون عالماً ناصحاً ، ولا نزيهاً صادقاً ، ولا نبيهاً هماماً ، وانما اولئك نفر يمنعهم الخوف من الاقدام ، ويردعهم اليأس من الاهتمام . »

ثم يصف الدواء فيقول : « ما ضر زعماء هذه الامة لو سارت بينهم الرسائل ، بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون باصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد : قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة،وهبت الحاصبة تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، وألمت بنا القارعة ووقعت الواقعة ، فصرنا كان لم نغن بالامس ولم نكن شيئاً مذكوراً . فهلم ننشد الضالة ونطلب المنهوب ، لا تقوم بامر ذلك فئة دون فئة، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن اخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وان تعدد الافراد إنسان » .

« ايحسبون ان ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى . أم لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية ،

يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وارهابا ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون » .

أعلمت إلى ماذا كان يدعو امته أديب إسحق ؟ إلى جامعة عربية ! هكذا يكون الرجل السابق لزمانه ، والثمر الطيب قبل اوانه . وليقم الشدياق واسحق والريحاني فيروا ما تحقق من أمانيهم .

خلقه وخلقه — كان أديب طويل القامة والعنق مع انحناء قليل، عظيم الأنف، عريض الجبهة بارزها ، جهوريّ الصوت ، لطيف الحديث، ذكياً ، نبيهاً ، حاد الذهن ، اشتهر بالخطابة والانشاء فكان إذا خطب أفصح وأعرب ، وإذا كتب سحر الألباب بحسن البيان مع السلاسة والبلاغة ، وهو قدوة المنشئين وعمدة الكتاب .

اما الذي يتراءى لي من مخلفاته الكتابية ومن اسلوبه فهو انه ناري الشعور متقد الخاطر ، ثوري من الطراز الاول ، كأنه كان في رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة وقد انتشر النهار .. يرسل عباراته الخرقاء فتئز ازيز السهم وقد فارق الوتر ، جمل كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً ، فتؤلف مقالته كتيبة جامحة . اذا اخذتها منفردة لا تحس لها أثراً عظيماً ، ولكنها تؤلف (كلاً) تخرج منه النفس وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً . واما اظن إبعاده مرات عن مصر في خلال مدة قصيرة إلا ناتجاً عن هذا الكلام الحاد الذي يفعل في النفوس فعله العجيب ، لصدوره عن نفس منفعلة ، متأثرة بكل ما تقول ، مخلصة لما تدعو اليه ، تنادي بمصر للمصريين ، وكلها ايمان ويقين بما تدعو الناس اليه :

« ومصر — ولا حياء في الحب — بلد تركت فيه زهرة ايام الشباب ، وخلفت باكورة غرس الاداب ، وهززت غصن الأماني رطيباً ، ولبست ثوب الامال قشيباً ، فما عدلت بي عن حبها النكبة ، ولا انستني عهدها الغربة ، ولست اول محب زاده البعد وجدا ، ولم ينكث على الصد عهداً ، فحذار اهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وانكم لمحفوفون بالعيون والأرصاد . »

يسير أديب الهويناء قاذفاً نظرات كالتفاتات النسر ، ولكنه أبداً في انتظار . يتطلع هنا وهناك على فريسة لقلمه،حتى اذا لاحت له كان قيد الاوابد حقا وانشب فيها مخالب قلمه . هجاء يذيب الشحم ويقرض اللحم . اسمعه بـــأي لهجة ينافح عن بلاده كاتباً اجنبياً اسمه شارم غبريل :

« اتقول ، وانت اكذب القائلين ، ان السوريين ارباب كذب ونفاق ، ودناءة اخلاق،لا مروءة لهم ولا حياء ، ولا همة فيهم ولا خلاق ؟ ! كذبت وربّ المروءة، وما هي اول فرية منك ، فقد رميت من قبل نزالة اليونان في مصر بهـذا القول ، فجاءك النذر من الصديق جوسيو :«ردّ ما كذبت او تكون من الخاسرين »فابيت فدعاك للنزال ، يحسب ان في عروقك دم الرجال ، فتسترت باذيال فواجر الغدر ، فعلم ان مثلك لا يعامل معاملة الشرفاء ، فصفعك كما يصفع الانذال .

وتذكر بعض مخدراتنا بالسوء ابتهاراً، وتورد في ذلك حكاية حال من سفر بحر وصحبة فتى ، وتزلف والد ... فهلاذكرتَ يا ابن الطاهرة ، مكارم الكرائم حيث دببت ، وحيث شببت ، وحيث تأدبت . فـــلا تحرجنا فتخرجنا من الذود الى الاقدام ، ومن الجواب الى الخطاب . انا نعرف منكم ما لا تنكرون ، ونعلم ما لا تجهلون .

ثم طبعت هذا القول الهراء يا سقيم الطبـع ، فاين تركت ماء الحياء ، ومن اين جلبت لوجهك جلد خنزير ؟

عفواً سادتي ، عما ترون بي من سورة الغضب ، ولكن هو الوطن ، والعرض والقوم ، ومن ذا الذي لا يغضب لقومه ان ينالهم لسان مبتذل ساقط لئيم ....قد عرفت هذا الرجل الذي جاءكم ضيفاً نزيلا واكرمتموه فجعل اعراضكم مناديل .

ويا مسيو غبريال شرم هذه اولى رسائلي اليك تنوب عن يد يقصرها بعد المسافة عنك ، فطب نفساً . انك التمست الشهرة بين قومك بما افتريت عـــلى السوريين والمصريين من قبلهم ، واني لاجعل لك بين قومي ذكراً ، يجدده المستقبحون عصراً فعصرا . »

انشاؤه : تعرض اديب لوصف اسلوبه الانشائي فقال عندما اصدر جريدته في

الاسكندرية :

« رأيت ان اصرف العناية والاجتهاد الى تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة ، لتقرير المعنى في الافهام ، من اقرب واعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق ، للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً ، او مبتذلاً سوقيّاً » .

ثم قال في تمهيد لمطلب مطوّل عنوانه (الشرق) : « قد التزمت لهذا المطلب اسلوب التقرير ، وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية لاعتقادي بان الاسلوب الخطابي وان كان اسرع تأثيراً في القلوب ، واحسن وقعاً في الاذهان ، الا انه قد يميل بالكاتب الى جانب التخيل الوهمي في مكان التقرير العلمي ، فيرتفع بيانه عن المدارك التي سبقت اليها الملكات الصناعية الحسية فلم يبق بها من محل لملكة الخيال المسماة شعراً ، فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة وهو تقرير المعاني في الافهام ، من اقرب وجوه الكلام . ولهذا سارسل فيه الكلام ارسال مقرر مبين ، ولا اتكلفه تكلف منمق مزين . فان احكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يسمونه بديعاً . »

هذا ما حكاه اديب عما كان يتعمده في انشائه ، واذا عدنا الى مطالعة سيرة حياته رأينا ان كل من ترجموا له ذكروا عبارة قالها استاذه لابيه : ان ولدك سيكون (قوّالا) أي شاعراً ، لان السجع كان يرد في كلامه عفواً . اجل ان السجع قوام فن اديب ، فهو يعتمد على تنميق التعبير وترجيعه وتدبيجه ، يحييه بكلمات ترقص بما فيها من جناس وتضادّ ، وينصب لغرضه شباك الاستعارات والكنايات والتشابيه . نثر كأنه الشعر ، يرصعه بابيات اما من الشعر القديم او من نظمه هو ، فيأتي مقاله عجاجاً زاخراً حين يحتدّ ويشتد كقوله : « هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الارض عناء ، فلا تجد على سطحها الا جسوماً ضاوية ، في ديار خاوية ، وقلوبا تحترق ، في بلاد تحت رق ») .

وهو يراعي الموسيقى في نثره اكثر من شعره ، فيتعمد ما كانت تتعمده مدرسة ابن العميد من افعال مختلفة تتحرك لها الجملة فتحرك قارئها تواً ، وان ذهب أثرها من عقله بعد حين .

والذي ألاحظه ان الحريري تلا تلو البديع، ونحا ناصيف اليازجي نحو الحريري، اما اديب فأحيا بيان كتاب القرن الرابع . ففي مقالاته حدّة البديع ، وتنسيق الصاحب ، وبلاغة الخوارزمي ، وهجوم الحجاج للاستيلاء على المبادرة. عاش اديب مبادراً ابداً ولذلك لم يذق طعم الراحة الا حين اقعده الداء ...

كل مقالات الاديب خطب تستثير الهمم ومنبرها صحيفته التي تقيم وتقعد على حد ما قال . وقد كانت تقع في نفوس اولياء الامر المصريين في ذلك الزمن العصيب احسن وقع فأجلّوا قدر الاديب ، وحفظوا له تلك اليد حتى سلمه الخديو بيده براءة الرتبة الثالثة ، كما مرّ .

كان الاديب خفيراً للمسألة المصرية ، واقفاً على سلاحه ابداً ، حتى يهيب بالشرق اجمع : « اذا هبت عواصف الفتنة فذرت رماد المداجاة عن جمر ضغائن الدول ، وصار الشرق ، من اطراف الروم الى البحر الاحمر ، محشراً للعساكر يتنازلون فيه ، ويتجاولون على ارض يملكونها ، وغنيمة يصيدونها ، وسطوة يريدونها ، وقوم يستعبدون ...

واذا انقضّت صقالبة الشمال على بقايا الاناضول ، واندفعت ألمان الوسط على فضالات البلقان ، ووقعت حيتان بريطانيا على سواحل مصر ، وجزائر بحر الروم ، وترامت نسور الفرنسيس على فينيقية وبلاد السوريين ، وتداعى ابناء الرومان على تونس الغرب وما يليها ، ورجعت عساكر الاسبانيين الى الغرب الاقصى ، فماذا يحل بالشرقيين وكيف يتقون البلاء وهم على ما نرى من شغف القلوب ، وقوة الخلاف ، وتفرق الكلمة ... فهم في غفلة الساذج ، وخدر السكران ، وكسل المهموم ، لا ينتفعون بما يعلمون ، ولا يسألون عما يجهلون .

واذا جادت الحكمة بماء السلم فأهمدت ذلك الجمر ، وعاد الشرق من جهاته الاربع مجتمعاً للتجار والصناع من جالية الغرب يتجرون فيه ... واذا انتشرت جالية الالمان في شبه جزيرة البلقان ، تحيي الموات ، وتنتحل الصناعات ، وانبثّ تجار الانكليز والفرنسيين والايطاليين وسائر الامم الغربية يجمعون الثروة بما يتجرون وما يستخرجون من كنوز الارض ... فأي مكان يكون للشرقيين في عالم الوجود

وهم على ما نشهد ؟ »

لقد نحا الاديب نحو الشدياق في تنبيه الشرق والانتصار له، والشدياق هو اول من دبج مثل هذه الفصول ببلاغة. ولكن لكل منهما روح. فالشدياق بَعُدَ عن تقليد القديم، اما اسحق فأعاد لنثر القرن الرابع عصره اللامع، كما ترى، من تماسك عبارة، وموسيقى راكضة كأنها النهر في مجراه، يمده خياله الرائع وتعبيره البارع. ويحيي كلامه بما يتقد في احشائه من حمية. ليس للشدياق حمية اسحق، كما ان ليس لاسحق تهكم الشدياق؛ فكلاهما عالج قضية مصر والشرق كما أوحت اليه طباعه.

ومن مرّ بعباراته اظنك قد أدركت اسلوبه كل الادراك، واذا اطلعت على اثره — الدرر — تبين لك ان حذق الرجل لغة الغرب لم يحول انشاءه عن اسلوب العرب. ولأديب رسائل مجموعة في الدرر وهي مطبوعة على غرار رسائل ابي بكر ومعاصريه، فهؤلاء كانوا اساتذته في الفن وحسبه انه ضارعهم. ليس في رسائله شأن يعنينا كثيراً الا رسالة كتبها عام ١٨٨٢ الى جبرايل مخلّع على اثر استظهار الانكليز على مصر، ومما جاء فيها :

« نحن في زمان لا يشبه الازمنة، وحال لا تماثل الاحوال، فيومنا مشتبه الخبر، وغدنا مجهول الأثر، ورئيسنا ليس بأعلم من المرؤوس بما تؤدي اليه الحوادث. ولذلك تلجلجت الألسنة وترجرجت الأقلام، وتهدجت الأصوات، فصار الاعتزال كرامة، والخمول سلامة ... فالخمول هو الراحة لأمثالي في مثل هـذه الايام، ولا سيما اذ لم أر معارضة ولم اجد نفوراً، ولكني ما رأيت مساعدة ولا اغراء بالظهور، فانا على حالة الرضى بالرزق الحاصل، والذكر الخامل، حتى تستقر الحال، وينجلي ليل الاشكال . »

واديب كان اعدى عدو للاجنبي، وما انفك يندد ويصيح حتى قضى.

اديب الشاعر = قلنا ان اديب اسحق كاتب سياسي مناضل ومن دعاة حرية الفكر واحد رسلها المبكرين في الشرق العربي، وهو ممن يؤمنون بالعقل، وقد ظهرت مواهبه الخطابية في جمعيات بيروت مثل (زهرة الآداب) و (شمس البر) و (زهرة الاحسان) وانه كان في عصره من اشهر الخطباء حتى ذكره الزعيم الخالد

سعد زغلول في مقدمة الذين تأثر بهم خطابياً . اما اديب الشاعر فهو في نثره اشعر منه في شعره ، وان كان فياض القريحة ، يرسل القريض عفو الطبع . الرجل خطيب أولاً ولهذا ابدع في نثره ، اما شعره فسوف نريك منه نماذج ونتولى الحكم عليه معاً.

قال اديب الشعر في اغراضه المعهودة : غزل وتشبيب ، ومدح ورثاء، ووصف وقائع حال في ميدان السياسة والهوى ، وقد كان للتواسل بين الادباء شأن ، كما عرفت ، فخاض اديب هذه الغمرات ايضاً .

وجارى اديب عصره في نظم الالغاز وحلها ، ولم يحرم التاريخ الشعري من جهود قريحته ، فقال يؤرخ موت شاب من بني الخوري مات بداء الهواء الاصفر (الكوليرا) :

فتلونا فيه بالتاريخ ان قصف الغصن هواء اصفر

١٨٧٥

وكان يبدأ بعض مقالاته بأبيات من الشعر ، وعلى اثره مشى ولي الدين يكن وغيره ، وكان يخمس ويشطر على نسق اهل عصره . حقاً ان في الادب ازياء تبطل ثم تعود ، وهي كالانواع فقلما تنقرض انقراضاً كلياً .

وقد نظم في السجن كأبي نواس ولكن شتان بين السجينين . هذا سجين هوى أمة عظيمة كمصر ، وذاك سجين جام وغلام . ومما قاله في سجنه من قصيدة بعث بها الى محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصري :

أمولاي هذا نظم حرّ وتلوه كلام سجين أوثقته المآثر
اتوه بنكر وهو للعرف مرتج وجازوه بالخذلان وهو مناصر
ايبعد ذو فضل ،ويُدنى منافق ، ويسجن وافٍ ، حين يطلق غادر
ويكرم جاسوس عن الصدق حائد ويظلم همام على الحق سائر
بذا قضت الايام ما بين اهلها معايب قوم عند قوم مفاخر

ثم نظم قصيدة تاريخية وصف بها حوادث مصر سنة ١٨٨٢ ، وقد نشرت في الجزء الخامس من تاريخ مصر للمصريين ، وهي من الطراز الذي سبق .

وللاديب أبيات شعر عاثرة منها ما لا يعرف انه له كقوله :

قتل امرىءٍ في غابةٍ جريمـــة لا تغتفر
وقتـــل شعبٍ آمنٍ مسألة فيهـــا نظر
والحـــق للقوة لا يُعطاه إلا من ظفر

ومنها ما يعرف انه له وهي ابيات يدور اكثرها على السن الادباء :

انمــا المرأة مرآةٌ بهــا كل ما تنظره منك ولكْ
فهي شيطان اذا افسدتها واذا اصلحتها فهي ملَكْ

لقد وعدتك ان سنشترك في الحكم بعد عرض النماذج ، اما انا فقد قلت كلمتي فلك انت ان تقول ما تشاء .

أثره في الذرية ــ ان لأديب إسحق أثراً بيناً في اسلوب انشائنا الادبي ، فهو وان لم يبدع اسلوباً سهلاً جديداً كالشدياق فقد اعاد للنثر رواءه وفخامته . اقتفى أثر الشدياق واضع اسس ادب المقالة في جمله الادبية والسياسية، وتوغل في الترصيع والتدبيج حتى سمى هو ما يكتبه بالاسلوب الشعري لعمق التخيل فيـه والتعمل . وقد أثر هذا الاسلوب في الاجيال المتعاقبة فاقتفي أثر اسحق زمناً ، فبدت ملامح اسلوبه في جميع من كتبوا (المقالة) بعده ، واذا اطلت النظر في اسلوب جبران في اول عهده ، ترى فيه هذا العنصر ، انما بشكل آخر .

واذا أخذت مثلاً نجيب الحداد رأيته نسخة طبق الأصل عن اسحق ، وان كان دونه سجعاً وتخيلاً ، وشدة اسر . وكذلك ابراهيم اليازجي في صدر مقـالتيه : الزهرة والقمر . ان هذا الاسلوب الانشائي لا تزال آثاره بينـــة ظاهرة في انشاء الكثيرين من الكتاب .

محمد عبده

ولست أبالي ان يقالَ محمـد أبلّ ام اكتظتْ عليه المآتمُ
ولكنّ ديناً قد أردت صلاحه احاذر ان تقضي عليه العمائم

هذا ما روي عن الامام انه قاله عند الاحتضار. ولد محمد عبده في الريف من ابوين فقيرين ولما كلف طلب العلم ادخل الكتاب ، ولكنه خرج منه خروج الشعرة من

العجين . ثم عاد بعد حين فقرأ القرآن في احد الجوامع ، وتحوّل الى الازهر على كره منه فحصّل العلوم الشرعية والعربية . واتصل بالافغاني واخذ عنه علم الفلسفة والكلام فكان انبغ من تلمذوا له. وقد قال الافغاني ساعة ودّع مصر: « قد تركت لكم محمد عبده » .

عين مدرساً للتاريخ والادب بدار العلوم ، ثم شكروا له خدماته فلزم بيته في بلده ... وعين بعد عام كاتباً في جريدة الوقائع المصرية ، فنقد فيها الحكومة ووزارة المعارف ... وكانت ثورة عرابي فاتهم انه أفتى بعزل الخديوي توفيق باشا ونفي الى بر الشام ، فاقام سنة ببيروت كان فيها مدرساً. ثم ذهب الى باريس ليلتقي باستاذه الافغاني فاصدرا معاً (العروة الوثقى) . فكان السيد الافغاني مديراً لها ، والامام محرراً .

ولم تكن العروة وثقى فانفصمت بعد عدة اشهر، وعاد عبده الى بيروت فدرّس بالمدرسة السلطانية ، وأصلح منهاجها . وفي بيروت ألف رسالة التوحيد وشرح مقامات البديع ، ونهج البلاغة ، وعرب رسالة الافغاني في الرد على الدهريين، وعفا عنه الخديوي فعاد الى مصر وتقلب في مناصب عديدة اهمها عضوية مجلس ادارة الازهر ، فجاهد لاصلاحه . وظل يكتب مناضلاً حتى مات تاركاً تفسيراً لستة اجزاء من القرآن اطلق لنفسه حريتها فيه ، ولم يتقيد بأحد. ورد على هانوتو ورنان، والف كتاب الاسلام والنصرانية .

وصفه لنا معلمنا الشيخ سعيد الشرتوني الذي اتصل به وصادقه في بيروت. كان ذلك يوم جاء خبره فبكى استاذنا في الصف ، وبعد ان كفكف عبراته قال :

« كان الامام اسمر مربوعاً، له عينان يشع منها نور ، وهيبته كالأسد. حليم كريم، محب لبلاده وللناس . كاتب متين ، وشاعر رصين ، وخطيب . غايته انقاذ الشرق من الجهل ، بتعليمه الدين الصحيح » .

وها نحن ننقل لك شيئاً من مقال له عن (الانتقاد) لنعرفك على اسلوبه المرسَل لا المسجّع . [1]

---

(١) نشر في المقتطف عام ١٨٨٨

« الانتقاد ، لغة ، النظر في الدراهم وغيرها لمعرفة صحيحها من فاسدها وصحيحها من زائفها . ومنه انتقاد الكلام لتمييز فاسده من صحيحه وغثه من سمينه . على ان الانتقاد طريق من اوسع طرق الارتقاء ، وان اربابه قادة الناس الى المراتب العليا من مراتب الكمال والجمال ، فلا عجب ان يعرف العقـــلاء قدرهم ويحيوا ذكرهم ويصدعوا بامرهم. وحيث كان الانتقاد ميتاً كان الفن ساكناً لا حراك له نحـــو التقدم ، ولا حياة لاهله . »

وبعدما جعل الامام الانتقاد اصح دليل على رقي الناس قال: « ان النقد ازدهى عند العرب في عصر نهضتهم ثم توارى حين تأخروا . وكذلك الفرنجة فانه لم يكن عندهم انتقاد يوم كانوا في تأخر ، ولما تقدّموا أنشأوا للنقد الجرائد والمجلات . . . حتى انك لا تكاد تجد مؤلفاً يؤلف عند الافرنج الا استهدف لسهام الانتقـــاد والمنتقدين من كل صوب وناحية . بل قد صارت عادتهم ان لا يعرض مؤلف للبيع حتى يعرض على الجرائد لانتقاده فيسمع الناس به ويعرفوا قيمته . والمؤلفون منهم ارغب الناس في توطيد دعائم الانتقاد وتقوية ساعد المنتقدين ، لعلمهـــم ان جلب الفائدة منه عائد عليهم ، فلذلك تراهم يرضخون لحكم المنتقد أخطأ في اعتقـادهم او اصاب ، ويعتبرون نقدهم فضلاً عليهم وجميلاً معهم . واذا اقتضت الضرورة ان يردوا عليه صدّروا الرد بالاعتذار عن ذلك . . . كل ذلك حرصاً عـلى الانتقاد ان تخبو ناره .

وابلغ الكتاب قلماً ، وأقومهم رأياً ، وأجزلهم لفظاً ، وأرقهم نثراً ونظماً ، هم اشد الناس عرضة للانتقاد . وقد يميل المنتقدون عليهم كل الميل ، ويتحاملون عليهم شديد التحامل ، فينتقي الكتّاب من انتقاد النقاد ما اصابوا فيه ، ويغضّون عما أخطأوا ، وكثيراً ما ينقلون انتقادهم عليهم الى كتبهم ، امـا إقراراً بصحته ، او اظهاراً لخطإه ، او لغير ذلك من الاغراض .

والانتقاد بين علماء الافرنج دليل على رعاية مقام المنتقد عليه والاحتفاء بشأنه . والتدقيق في الانتقاد دليل الاهتمام بما ينتقد . والواسعون في الفهم يعتبرون تشديد المنتقد عليهم مزية لهم ، ويفضلون اظهاره لمعايبهم على مجرد مدحه لهم واطرائـه .

واذا رأوا من المنتقد تساهلاً وتسامحاً ساءهم ذلك ، وحملوه محمل الاستصغار لقيمة تآليفهم ، وقوة عقلهم ... »

ثم قال في الناقد :

« يلزم ان يكون الناقد بصيراً خبيراً يتحرى الصدق في القول، والاخلاص في النية، منصفاً ، عادلاً ، باحثاً ، منقباً ، قاصراً النظر على ما قيل ، مغضياً عمن قال. ولا حقّ للمنتقد عليه ان يحقد على الناقد اذا أبان معايب تأليفه ، ولم يسترضه بمدح ذاته وصفاته ، او اذا لم يغض عن نقيصة أتاها سهواً او عمداً .

هذا وصف وجيز لحال النقد والناقدين عند الاوربيين . واما نحن المشارقة فقد خبت عندنا نار النقد ، منذ غابت عنا شمس معارف العرب وعلومهم . »

وختم الامام مقاله هذا متمنياً ألا يكون الانتقاد مخاصمة ومشاتمة ، ومهاترة ومشاجرة ، وتمنى على اصحاب الجرائد اشهار الانتقاد في البلاد .

هذا ما راينا نقله لك لتعرف ان هذا الرائد المصلح يجول في كل بحث ومطلب ، ويناضل على كل جبهة . ثم لنعرفك على هذا الاسلوب الرصين الذي لا غبار صنعة عليه .

شبلي الشميل

هو احدى حلقات تلك السلسلة الذهبية ، ادرك الشدياق ، وناصيف اليازجي ، واسحق ، ومشى مع صروف وزيدان رفيقي المدرسة ، فتوغل زيدان في دياميس التاريخ على ضوء هلاله ، وانصرف صروف الى بساتين العلوم الحديثة يقتطف منها زهوراً فواحة وثماراً يانعة ، اما الشميّل فجعل وكده العلم والفلسفة . جرته دراسته الطبية الى بحث (الانواع) فسد ثغرة وملأ فراغاً . تحدث عن العلم والفلسفة باسلوب ادبي رفيع فكان نسيج وحده .

قال صروف : « جاء الشميل المدرسة الكلية الانجيلية — الجامعة الامريكية اليوم — سنة ١٨٦٧ وله من العمر حوالى سبعةعشر عاماً فتجاورنا على مقعد المدرسة سنتين . شاب قصير القامة ، اسمر اللون ، مرتد الثياب الفرنجية يوم كانت نادرة

الاستعمال . هو من كفرشيما ضيعة استاذنا ناصيف اليازجي، وانا من ضيعة الشدياق، وكلانا يود ان يحتذي بابن بلده ، فكنا نتنافس في اقتفاء اثرهما .

والشميل ابن بيت علم ، اخواه ملحم وامين معلمان ، ولهما تآليف في الفلسفة ، وابوهم من ادباء عصره . وفي سنة ١٨٧١ ترك شبلي المدرسة اذ صار طبيباً جسمانياً، ثم عالماً صريحاً ، وفيلسوفاً جريئاً لا يحابي احداً . كان حاد الذهن ، سريع التصور، نابغة في التعليل ، ألمعياً في اكتشاف الحقائق . وكان اشهر الاطبـــاء في التشخيص الطبي فكأنما يوحى اليه . وبلغت منه الفراسة انـه علل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبل شيوع هذا العلم في اوربا .

وهو ، فوق ذلك ، ذو ذاكرة ماضية ، وقوة استحضار فائقة . انيس المحضر ، حسن المحاضرة ، فكه الحديث ، طلق المحيا، بشوش ، مخلص ، منصف ، ذو شجاعة ادبية تفوق الحد ، متغطرس على الظالمين ، متواضع للضعفاء البائسين، كريم لم يستفد من علمه، ولو حرص على ماله حرصه على مقالاته، لكان من الاغنياء ولعاش ميسوراً موفوراً . كان واسع الرواية ، قوي الحجة ، متحمساً لمعتقده .

وهذا النابغة العظيم هو زعيم فكرة التطور والنشوء والارتقاء في عـالم الضاد . حاز شهادة الطب يوم كانت معركة النشوء والارتقـاء حامية الوطيس في الغرب ، فنقل رحاها الى الشرق. قرأ عنها في المدرسة سنة ١٨٧١ فهزيء بها، ولكنها شغلت باله ، فظلت تعمل في عقله الباطن ، حتى خطب عند نيـــله الشهادة في موضوع : (اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والغذاء والتربية) . وكل ذلك عن غير قصد منه . ورحل بعد نيل الشهادة الى اوربا والاستانة فاطلع على المذهب في كتب اصحابه ، وكأنه يعلل تحوله الى هذا الموضوع فيقول : « ان تربيتي المدرسية لم تسمني بطابعها ، فان اعتلال صحتي في حداثتي لم يسمح لي بان اكون من متخرجي المدارس ، ما خلا الطب ».

أثار الشميل قضية فلسفة النشوء والارتقاء فقامت حولهـــا القيامة ، وان كنا نقرأها اليوم كما نقرأ فرضاً حسابياً . ولست ابعد بك كثيراً ، ايها القاريء العزيز ، فقد جئت والدي ، بعد عودتي من المدرسة ، بخبر أحدث بيني وبينـه ما احدثت

فلسفة النشوء والارتقاء بين الشميل ومناظريه . جرني غرور الصبا والعلم فقلت لمن جاؤوا للسلام علي وامتحان عبقريتي : الارض تدور . فزأرني والدي ، ولكني لم اعبأ بعارض جفنيه ومضيت في حديثي. فاذا به يعض على شفته السفلى عضة ترعب ، فلم اسكت. اما الناس فكانوا يسمعون براهيني على دوران الارض ، وهم يضحكون علي ، وانا احسبهم يضحكون لي . ولكن المرحوم والدي نزل اخيراً الى الميدان، فخطأني وخطأ جميع الكتب وسب ديك العلماء ، وحجته الدامغة هو ان بابنا الشمالي يظل على الشمال ، والشمس تغيب وراء جبل معاد ، وتظل تغيب هناك ... وكان مسك الختام : سد بوزك . فسددناه موقتاً ...

لسنا ندرس الشميل الدارويني فعلى من يهمه الامر ان يرجـــع الى كتبه التي التي طبعت سنة ١٩٨٤ ثم اعيد طبعها في سنة ١٩٠٩على حساب الاجاويد والانصار واولهم الأب بولس الكفوري والدكتور ايوب ثابت وغيرهما من احرار رجال الفكر والقلم ، ثم اصحاب الاكياس الوارمة . اما الذي يعنيني هنا فالشميل الاديب النابغة الحر الفكر الذي لا يؤمن بغير العلم ، والعلم العملي وحده ، وقد قـــال في ذلـــك :

« ان اليوم الذي ينصرف فيه الانسان عن تنميق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي تتقوم فيه طباعه ، فتقل سخافته، ويكثر جده ، ويقل رياؤه ، وينشط من الذل ، ويرتقي ارتقاء حقيقياً ، ويحق له حينئذ ان يعد نفسه انساناً ».

واذا بحثنا الشميل الاديب فكأنا تناولنا الشميل كله بقضّه وقضيضه، فهو لم يفارق عمود فكرته في كل ما كتب ، فكانه استعان ببيانه لايضاح ما في وجدانه . اسلوب انشائي تارة ينحو فيه نحو الشدياق معلم الجيل في بساطة العبارة ، وخفة الروح ، وحيناً ينهج نهج اديب اسحق الخطابي فينقض على الموضوع انقضاضاً .

فالشميل كاتب جدلي ، مطبوع على الاسلوب الخطابي ، ينم اسلوبه على لبنانيته. تقرأ مجموعته من اولها الى آخرها ، فلا تحس ادنى اثر للهجة المصرية ، بل بالعكس فانك ترى لوناً صارخاً من الاسلوب اللبناني واليك مثلاً هـذا التعبير : « كم انت متمسك بما نشأت عليه؟فانا كنت مثلك واكثر». ومثل هذه العبارة كثير في مقالاته.

والشميل عاش وله في كل عرس قرص . يكتب باللغة الفرنسية كما يكتب بالعربية ، لم يدع مسألة سياسية او اجتماعية إلا ومد اليها مبضعه . عالج جميع قضايا عصره الاجتماعية ، ورمى جميع الاهداف باسلوب علمي منطقي . ندّد بتنميق الكلام ثم تانق وسجع ، فبحث الحقائق العلمية متذرعاً بالخيال وسحر البيان .

اما فلسفة الشميل فمعرّية ، نحا نحو ابي العلاء في تفكيره ، وحسبك منه (رسالة المعاطس) برهاناً ، والشميل وجودي بكل ما في هذه الكلمة من معنى وقوة . قال الشعر ولكن شعره دون نثره. قاله لاثبات نظريته محاولاً تقديمها لك على طبق انيق من الخيال ، محاولة في اكسير أترك لك نعته :

هو الحب إكسير الوجود بلا مرا ولولاهُ ما كان الوجود كما ترى
فكلُّ الذي تلقاه في الكون سرهُ وهاديهِ في افعاله كيفما نحا
هو الحيُّ مولوداً ، هو الميتُ فانياً هو النجم قد اسرى ، هو الصبح والدجى
هو الكلُّ في كلٍ ، معيداً ومبدئاً وما نحنُ إلا فيه من صور الفنا
وليس فناء ما نراه ، وانما هو العود للاولى ، هو البعث للالى
قضوا فحيينا ، وانقضينا بعودنا اليهم ، وغير (الكل) ليس له بقا

اظنك توافقني ، بعد ما قرأت ، على تسميتي هذا الضرب من الادب بالصوفية العلمية ، وعلى عدّي الشميل وجودياً ، وان كان الأدب يغلب على ألوانه جميعاً .

عبد الرحمن الكواكبي

الرجل سبط اسرة حلبية عريقة ذات شهرة وصيت ، ويعود نسبه الى السيد ابراهيم الصفويّ احد امراء اردبيل العظام ، وهو سليل بيت علم . درس العلوم الشرعية في المدرسة التي انشأها جدوده واليهم نسبت . ثم وقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة ، واتقن العربية والفارسية والتركية . انشأ جريدة الشهباء ، ونزع فيها الى الاصلاح ، وحرية القول والفكر فحبس ، ففر الى مصر ، وطاف أقطار العالم فزار اقاليم عديدة ثم عاد الى المحروسة .

قال زيدان : « كان الكواكبي واسع الصدر ، معتدلاً في كل شيء ، عطوفاً على

الضعفاء حتى سماه الحلبيون (ابا الضعفاء) .

وجاء في الرائد العصري : « انه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من اصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين . ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها ، كان بعيداً عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء ، لانه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة . »

اشتهر هذا الكاتب الخطير بكتابين : ام القرى ، وطبائع الاستبداد . فأمّ القرى كتاب تخيل الكواكبي فيه انّ مؤتمراً عقد بمكة المكرمة في موسم الحج عام ١٣١٦ فاختار لهذا المؤتمر اثني عشر عضواً ، منتدبين عن جمعية اعضاؤها من كل قارة وقطر .

اما شعار الاخوان في هذه الجمعية فهو : لا نعبد الا الله . واما مبايعتهم فعلى عهد الله بالجهاد والامانة .

كان اساس البحث في مؤتمر (أمّ القرى) ، وهو موضوع الكتاب ، على هذا السؤال : ما هو سبب تعمم الفتور وملازمته لجامعة هذا الدين — الاسلامي — كملازمة العلة للمعلول ، بحيث اينما وجدت الاسلامية وجد هذا الداء حتى توّهم كثير من الحكماء ان الاسلام والنظام لا يجتمعان .

ونوقش هذا الموضوع نقاشاً صريحاً واضحاً . ولما جاء دور السيد الفراتي —أي الكواكبي — بحث اسباب الفتور دينية ومدنية ، فتكلم عن ٨٦ سبباً منها الديني والمدني والسياسي والاخلاقي الخ ، اما عصارة الرأي فكانت كما قال المتنبي :

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

ثم اشار الى نظرة الاتراك للعرب ، وايد زعمه بعبارات من لسانهم ، وبعد ان عدد كثيراً من اقوالهم فينا ، قال : ان العرب لايقابلونهم الا بهذا المثل : ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترك والجراد .

اما كتابه الثاني ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد فنسب الى الرحالة « ك » أي الكواكبي ، وخير ما يوصف به هذا الكتاب هو تلك العبارة التي

جاءت بعد العنوان : « كلمات حق وصيحة في واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالاوتاد ». ثم يقول في المقدمة :

« وبعد فاقول وانا المضطر للاكتتام حسب الزمان ، الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال : انني في سنة ١٣١٨ وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزّها حضرة سميّ عم النبي العباس الثاني ، الناشر لواء الحرية على اكناف ملكه ، فنشرت في بعض الصحف الغراء ابحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . »

ثم ينتقل الى مقدمة هذه الفصول التي جمعها في كتاب فيتحدث عن كتّاب السياسة في الشرق والغرب حتى اذا تناول العرب بالكلام قال : « واما العرب منهم فقليلون ومقلّون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم : رفاعة بك وخير الدين باشا التونسي ، واحمد فارس والمبعوث المدني . ولكن يظهر لنا الان ان المحررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة » .

لم يتبع الكواكبي خطة معاصريه في السجع ، ولم يتنطع في اللغة ولم يتحذلق. فهو مناضل ضد كل استبداد حتى استبداد المقلدين ، وقد حدد الاستبداد بقوله : « الاستبداد لغةً هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه . ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي اقوى العوامل التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة . واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات ، وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد ، مجازاً ، او مع الاضافة .

« اما في اصطلاح السياسيين فهو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة . وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات استعباد ، واعتساف ، وتسلط ، وتحكم . في مقابلتها كلمات : شرع مصون ، وحقوق محترمة ، وحسّ مشترك ، وحياة طيبة . ويستعملون في مقام صفه (مستبد) كلمات : حاكم بامره ، وحاكم مطلق ، وظالم ، وجبار . وفي مقابلة حكومة مستبدة كلمات : عادلة ، ومسئولة ، ومقيدة ، ودستورية ...

هذا تعريف الاستبداد باسلوب ذكر المترادفات والمقابلات ، واما تعريفه بالوصف ، فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرّف في شؤون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب محققين . »

الى ان يقول وهو يريد السلطان عبد الحميد ، وان قال في التمهيد انه « غير قاصد بها – اي مقالاته – ظالماً بعينه ، ولا حكومة مخصصة » :

« المستبد يتحكم في شؤون الناس بارادته لا بارادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي ، فيضع كعب رجله على افواه الملايين من الناس ليسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته » ثم يقول : .

« المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب . فالمستبد يودُّ ان تكون رعيته كالغنم دَراً وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقا . وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خُدمت خدمت ، وان ضربت شرست ، بل عليها ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة المستبد ، ام هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه . فان شمخ هزت به الزمام ، وان صال ربطته . وفي هذا المقدار كفاية لمعرفة ما هو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية كافلة بالتفصيل . »

ثم يتكلم عن مرتع الاستبداد فيقول اجمل قول : « العوام هم قوت المستبد وقوّته بهم . عليهم يصول ، وبهم على غيرهم يطول ، يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة . ويهينهم فيثنون على رفعته ، ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته . واذا اسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم ، واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً . ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بايديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل . فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع ، أي انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ، ورئيس يخشى عادل الحساب ، واب حليم يتلذذ بالتحابّ . »

ثم قال :

« وضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم، والاستبداد قلبَ الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة كانها خلقت لاجلهم فقبلوا وقنعوا ، كما ان الاستبداد استخدم قوتهم المجتمعة وهي هي قوة الحكومة على مصالحهم لا لمصالحهم فارتضوا ورضخوا.

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتاليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمّل مضرّة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعة اي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة (لا يضارّ كاتب ولا شهيد) .

وفي فصل عنوانه (الاستبداد والترقي) تخطى الى القول : « وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامة ان يحوّل ميلها الطبيعي من طلب الترقي الى طلب التسفل بحيث لو دُفعت الى الرفعة لأبت وتألمت ، كما يتالم الأجهر من النور ، واذا ألزمت بالحرية تشقى ، وربما تفنى كالبهائم الأهلية اذا أطلق سراحها ... وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة لا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها . »

هذه الفكرة قالها اديب اسحق قبل السيد الكواكبي ولكن هذا لا يضيره .

ثم توغل السيد في هذا البحث فتصور نفسه يخاطب قومه ليحرك قلوبهم، فنحا في الكلام نحواً جميلاً يكاد يكون ابتكاراً في اسلوب المقالة فابتدأ هكذا :

« يا قوم ، ينازعني ، والله ، الشعور هل موقفي هذا في جمع حيٍّ أحييه ، ام انا اخاطب اهل القبور فاحييهم بالرحمة .

يا قوم ، لستم احياء عاملين ولا امواتاً مستريحين ، بل انتم بينَ بينَ في برزخ يسمى التنبّت ويصح تشبيهه بالنوم.

يا قوم ، هداكم الله ، ما هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم ، وعز كريم ، افلا تنظرون الخ .

يا قوم ، وقاكم الله من الشر ، انتم بعيدون عن مفاخر الابداع ، وشرف

القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق ، الخ .

نعم يا قوم ، عافاكم الله ، ويا قوم ، اعيذكم بالله ، ويا قوم ، شفاكم الله ، ويا قوم ، رحمكم الله » ويا قوم ، حماكم الله ، ويا قوم ، هون الله مصابكم ، ويا قوم ، سامحكم الله ، وظل يقول يا قوم يا قوم حتى فرغ جرابه ، وهيهات ان يفرغ .

ثم انتقل من يا قوم الى الشرق فخاطبه خطاباً يبتديء كل مقطع منه بـ : « رعاك الله يا شرق . »

ويختم كتابه بالقول : « إن الله ، جلت حكمته ، قد جعل الامم مسؤولة عن اعمال من حكّمته عليها وهذا حق . فاذا لم تحسن امة سياسة نفسها اذّلها الله لأمة اخرى تحكمها ، كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر او السفيه. وهذه حكمة . ومتى بلغت امة رشدها استرجعت عزّها ، وهذا مثال . وهكذا لا يظلم الله الناس بل الناس هم انفسهم يظلمون . [١] »

هذا هو الكواكبي احد الروّاد المناضلين في العهد الحميدي ، ولعله امرّهم لساناً ، وأعنفهم هجوماً ، وربما كان موقد نار اليقظة القومية العربية . فبينما كان حزب تركيا الفتاة يدعو الى تجديد دم الحكم التركي كان الكواكبي يهتف : فلنلقِ عنا نيرهم ... ثم كان الذي كان .

مصطفى كامل

تعلم أولاً في المدارس المصرية فحاز جائزة التفوق في الامتحان امام الخديوي توفيق باشا ، ولحق بمدرسة الحقوق المصرية ثم فصل منها وسافر الى فرنسا حيث أتم دروسه ونال الليسانس من كلية طولوز وهو لم يبلغ العشرين بعد.

وخرج الى العالم مسلحاً بعلومه ليغوص في بحر السياسة ولا يكون له همّ الا المطالبة بالجلاء . فألّف لتأييد مطلبه كتاب المسألة الشرقية ، وحياة الامم ، والرق عند الرومان ، ورواية فتح الاندلس التمثيلية ، والشمس المشرقة . فحبب الشعب

(١) ام القرى ص ١٥١

بالحرية والاستقلال ، فالتف حوله الشباب وصار ذلك الزعيم بلا منازع .

كان شعاره السياسي «مصر للمصريين» فخاطب الدول كتابياً ، وكتب فصولا كثيرة في الموضوع ، وأصدر أخيراً جريدته اللواء بالعربية اولاً ، ثم بالفرنسية والانكليزية ليبلغ صوته دول الارض .

ورأى الحاجة ماسة الى تأليف حزب منظم فألّف الحزب الوطني الذي انتخب رئيساً له طول الحياة .

واذا لم يتسع المجال للتحدث عن تطوافه في الشرق والغرب فلنتحدث ولو قليلاً عن صفاته ، فقد كان هذا الزعيم المناضل عصبي المزاج ، شديد التطرف في آرائه ، مخلصاً لها ، ثابتاً عليها . يرجع اليه فضل ايقاظ الشعب المصري ، وتمهيد السبيل للزعيم زغلول ومن جاؤوا بعده من الاحياء الذين هم خارج نطاق بحثنا .

كان هذا العظيم من خطباء العالم المعدودين مسلحاً بصوت جهوري تستحليه ولا تنفر منه . قوي البديهة متدفق البيان رائعه . يعرف كيف يأسر سامعيه ببراعة استهلاله ، وكيف يترك في نفوسهم أثراً بليغاً بحسن ختامه، تؤيده في جميع مواقفه محبته العنيفة لوطنه ، وإباؤه المملوء كرامة قومية .

كان داعيةً عنيف الكلام ولكنه لم يدع الى استعمال القوة والعنف ، بل كان يتذرع دائماً بالسلم ليبلغ الغاية والقصد . يشبه في مواقفه الخطابية اديب اسحق الذي اقتدى كل من جاؤوا بعده باسلوبه ووقفته، كما قال الزعيم الآخر الخالد سعد زغلول .

قاسم امين

جده امير كردي ، تلقى علومه اولاً في مدارس وطنه ثم بُعث الى اوربا فدرس علم الحقوق ، وعاد ليشغل مناصب عديدة في القضاء .

واشهر كتبه «تحرير المرأة »ثم كتاب «المرأة الجديدة »،وهو دفاع عما كتبه في « تحرير المرأة » الذي اقام الشرق واقعده، وكأن هذا الكتاب تعديل لما في كتاب تحرير المرأة من تطرف . لقد رد على قاسم كثيرون اما ابلغ رد كان فهو هذه الحكاية ، ان صدق الرواة :

قيل انه جاءه واحد يوماً يطلب مقابلة (مدامته) . فقال قاسم امين : انت غلطان يا اخي !! زوجتي انا ؟ !! .

فاجابه الرجل : نعم مدام قاسم بك امين . ألست انت المطالب برفع الحجاب واطلاق حرية المرأة ، فابدأ بنفسك . اسمح للست ان تقابلنا لنتبعك !

وبعد، فليس قاسم امين اول من طالب بحرية المرأة المسلمة، فالكتاب الاتراك واحمد فارس الشدياق الذي اصدر جوائبه في عاصمتهم ، كانوا اول الداعين الى ذلك لكثرة اختلاطهم بالاجانب .

وقد استدرك قاسم امين فقال :« سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة، فاقول نعم ، ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد ، وطرق المعاملة التي يحمد الكمال فيها » .

وقد نشر لقاسم امين كتاب ثالث سمي (كلمات لقاسم بك امين) ومن هذه الكلمات قوله :« ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك .

« تعصب اهل الدين، وغرور اهل العلم،هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم .

« لا تكمل اخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه .»

ومن كلماته ايضاً ، وهو رأي له في اللغة : « لا ادري ما هي غاية الكتاب اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد ، انهم يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة الاوتوموبيل . فان كان القصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة .

وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى ، فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً إذ لم توجد ، ولن توجد لغة ، مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها . »

هذا هو احد زوادنا الذين سعوا للتحرر ، وانا لم نضعه هذا الموضع لبلاغته وفصاحته بل لمنزلته الاجتماعية التي كان لها اثر بعيد في النهضة الحديثة . فالغاية من الكتابة الاصلاح ، وهذا كان قصد قاسم امين حين يكتب .

فرح انطون

كانوا يقولون في تحديد الكاتب : فلان يطبق المفصل ، وصرنا نقول اليوم : يطبق المنهاج ... كانت المعرفة عياراً للعـلم ، فصارت الشهادة قبلة يصلى عليها ، وكيف يجعلها دبر ظهره من يراها مفتاح قفل الغد ...

اما فرح انطون فهو كغيره من الرواد ، تلاميذ ذلك الزمان، لا تعادل درجته العلمية الشهادة التكميلية من مناهج اليوم ، ولكنه اخرج الى عالم الادب ما تقصر عنه دكاترة الادب والفلسفة .

بزغ نجم فرح انطون الادبي مع هلال القرن العشرين — ١٩٠٠ — فحمل الى العالم العربي وحي رسالته الجامعة الشاملة . فطعم الالباب ونور العقول . حل هذا البلبل الشادي دوح وادي النيل فحنا عليه حنو المرضعات على الفطيم ، وما انفك يعمل حتى صار ثالث اثنين : « المقتطف » للعلم ، و «الهلال » للتاريـخ ،و«الجامعة» للادب والثقافة العامة ، فكان رائد النهضة الفكرية الحرة في الشرق العربي .

حمل فرح على منكبيه رسالة الفكر الانساني فأدتها « جامعته » في سبع سنوات فقط . ثم انفتل من جهاده يسعى وراء الرغيف لان الثقافة لا تطعم من جوع ولا تؤمن من خوف .

كان الشدياق يهدر كالجمل الاورق ، واديب اسحق يزأر في عرين المنابر ويطاعن خيلا من فوارسها التعصب، ويحمل على اعداء الحرية حملات حجاجية، فما تواريا حتى امدت البلاد بغتتها الاولى بغطريف جديد نازل القديم المسيطر بصمصامة الحق ، فانجلى الغبار عن نصر من الله وفتح قريب . ففرح انطون ابن تاجر طرابلسي زوى عينيه عن صندوق ابيه فادركته حرفة الادب ... سفح على المهارق ريّق شبابه فما اكتهل حتى شب في صدره الامل ، فحمل (جامعته) الى اميركا يوسع لها في مجالس تلك الدنيا العريضة ، ولكنه رجع من بلاد الدولار على الريق . فاحترف الادب الرائج يلتمس به قوت من لا يموت . وظل يتحرق على حياة الفن للفن حتى قضى سنة ١٩٢٢ في الثالث من تموز وليس له الا كفاف يومه .

ماذا عمل الرجل في الخمسين الانعامين ، وأية رسالة أدى ؟

الجواب : واية رسالة لم يؤدّ ؟ فهو الذي عرف سواد الشرق الادنى ببوذا وكنفوشيوس ، واطلعهم على شرائع حمورابي ، وهو اول من اذاع فلسفة تولستوي ، وكان له مع الامام محمد عبده جولات موفقة حول ابن رشد وفلسفته شغلت العالم العربي حصةً من الزمن . وهو من ارانا وجه جون روسكين النبيل ، ونشر تعاليم روسو وبرنردين دي سان بيار وترجم قسماً كبيراً من رائعة نيتشه ، زاراتوسترا ، واخيراً اهتدى الى مكسيم غوركي فترجم اشهر رواياته « ملفا » . وهو الذي اكتشف تعاليم كارل ماركس قبل ان تحمرّ روسيا البيضاء .

وفرح هو الذي عرّفنا بـ « رينان » ، واذا كان عرفه جدي شخصياً حين وقف على اطلال الهيكل الروماني القائمة كنيسة عين كفاع على اسسه الضخمة الحجارة ، اجل عرفه ولكنه ما عرف منه الا رجلا فرنجياً حلّ عمشيت وغزير ، وكان يعرف السريانية ، ويأخذ بعض الحجارة الاثرية من الكنائس العتيقة .

قام فرح بكل هذا يوم لم يكن يحلم الشرق الا بقديه ويرى كل الخير فيه . فهو القصصي الاجتماعي الاول في قصصه : الدين والعلم والمال . والوحش الوحش الوحش . واورشليم الجديدة ، ومريم قبل التوبة وغيرها . وصاحب المسرحيات كابن الشعب وصلاح الدين وغيرهما . كتبها للمعاش فعاش بها المسرح العربي حيناً ، وتركت في وقتها دوياً اجتماعياً .

عشقت نفسُ فرح الحريةَ في كل ميدان ، ونظر الى اهمية التربية ، فترجم آراء جول سيمون ، وظاهر قاسم بك امين في معركة (تحرير المرأة) ، وهو لم ينس اعاظم رجال الغرب العصاميين فترجم لهم ليحث الشرق على النهوض ، وما احلى ما ابتدأ به كلامه متحدثاً عن باكون وشكسبير : مشاهير الناس آلهة للناس في هذه الحياة ، ولكنهم آلهة لا تعبد الا بعد الممات . وقد ابتدأ حين تكلم عن هيغو وذكرى ميلاده المئوية بكلمة لكاتب دنمركي شهير : ان ظهور اعاظم الرجال منحة من السماء .

ولا يهمل فرح الفلاسفة فيعرفنا باوغست كونت وفلسفته الحسية ، كما اذاع

سيرة فيليكس فور تحت هذا العنوان: « من معمل الدباغة الى رئاسة الجمهورية ». ثم لم ينس العلم فترجم لبرتلو هاتفاً: « المجد للعلماء ».

وعلى قلة بضاعته من الشعر نراه يجدد حافظ ابراهيم، واحمد شوقي، تجديد بصير ويدل على مقامها العتيد في صرح نهضتنا الحديثة.

هذا هو تلميذ الصف الثالث. ما كان ثانوياً ولا جامعياً، فليتعلم شبابنا ليعرفوا لا ليحوزوا مجموعة شهادات كأنها من طوابع البريد... فالشهادات لا تشرّف الا من يشرفها بعلم واسع عميق.

شخصيته: أتخيل فرح انطون كالموسوسين، وكأني اراه حائراً، هادئاً، يفكر ابداً، ويحلل القضايا التي تثقل ظهر أمته، لا يدري بما ينفس عنها، ولا كيف يعالج أدواءها، فلجأ الى كهوف الدهور ينشر على قومه تعاليم اهلها فترك لنا هذا الميراث الخالد. لم يكن فرح انطون من اصحاب العبارات الملساء الجوفاء، ولا الكلمات التي تملأ الماضغين. لم يكن يعنيه من الفصاحة الا الابانة والظهور. اسلوبه ساذج، يهمه ان يؤدي ما يعتلج في خاطره ولهذا فاض اسلوبه رقة وحناناً، وعبر عن نفسه التي تجرحها النظرة الثابتة. ومن نظر الى الازاهر التي قبلتها هذه النحلة الدائبة يدرك ما في جرّتها من عسل.

لم تهمه البلاغة كما اهمت اديب اسحق، ولا القوالب كما نجدها عند نجيب الحداد. كان للرجل هدف يرمي اليه، فهو كاتب ادبي عملي لم يبرز الى السياسة كالشدياق واسحق. كان فرح يحرث كرم الفكر وينقّيه عن العليق والقندول لينمو ويثمر. وما ارى الثائرين والمتمردين بعده الا تلاميذ له، فهو الذي شق لهم الطريق، واضرم في النفوس نار الثورة الوجدانية.

في فرح انطون شخصيتان: المؤلف والمترجم، ولكن الاثنتين واحدة. يترجم رواية الثورة الافرنسية لديماس، كما يؤلف ثورة العرب في (اورشليم الجديدة) روايته الخالدة. لم يكتب الرواية الا لغرض، ولم يخط كلمة الا دفاعاً عن مبدأ سام، او سعياً وراء مثل اعلى. ومن يقرأ تحيته لتمثال الحرية يعلم كيف مزج صوفية الشرق بعملية الغرب، حتى اذا آب بالفشل ودّع العالم الجديد بخطبته الخالدة

امام شلال نياغرا . ففرح هو الفكر المحرر حديثاً من عبوديته ، فلا يكاد يرى أخاً معتوقاً مثله حتى يصافحه مهنئاً ويتمنى الفرج للمسجونين الآخرين .

اما آثاره في طور الفن للفن فاربعة وعشرون مجلداً ، وتآليفه في طور المعاش خمسة عشر . وهو في كل ما ألّف وترجم لم يتحول عن خطته الا بمقدار .

كان اسم رنان يفزع المتدينين في الغرب ، وكان هـذا الاسم في الشرق مرادفاً للكفر والالحاد ، ألم يقل حافظ ابراهيم راثياً الامام محمـــد عبده ، ذاكراً ما له من فضل :

وقفت لهانوتو ورينـان وقفة أمدّك فيهـا الروح بالنفثات

ولكن فرح ترجم اخطر كتبه – يسوع – فحملق الشرق به ونظر اليـــه الكثيرون ، ولكنه لم ينثن . وعندما احتفلت فرنسا بازاحة الستار عن تمثال رينان عمد فرح الى آثاره وترجم (صلاة رينان عند الاكروبول) ثم علق عليهـــا . وها كم نموذجاً من ذلك التعليق :

«يا اثينا العظيمة ، اسمحي لنا بعد صديقك العظيم – رينان – ان نوجه اليـــك رجاءنا ، وسؤالنا نحن الشرقيين ، ليس لك ان تتكبري علينا كثيراً فبيننا وبينك قرابة قديمة :

اتذكرين ايتها الالهة ، اولئك الاسرى الذين كان يخطفهم بحارة جزائرك في لارخبيل ، من شواطيء صور وصيدا ويسوقونهم الى بلادك ؟

انهؤلاء الأسرى كانوا من مساعديك على تمدين قومك ، وتعليمهم الفنون الجميلة وهم قواعد نهضتك . ففي عروقك ، اذن ، ايتها الغذراء الجميلة ، شيء من دمـــاء شرقية ، فبحرمة هذا النسب نناشدك :

ابعثي الى الشرق ، جدك القديم ، شيئاً من سنا نورك العظيم . علمينا ان ننسى اهواءنا ومصالحنا الخصوصية . علمينا ان نجهر بمعتقدنا ولا نخاف فيه قوات الارض والسماء . أفهمينا معنى الحق والواجب والعدل والعقل ، لنتخذها نجوماً نهتدي بها في ظلمات الحياة . افتحي عيوننافنكون مخلصين في طلب الاصلاح ، مهتمين بالجميع على السواء ، وان نبدأ بانفسنا .

بثي فينا روح التساهل المطلق، وبهذا كمال النهضة الشرقية .

واذا كنا لا نشاهدها في زماننا ، فحسبنا ان يشاهدها احفاد احفادنا ولو بعد عشرين عقبا . »

ولما حمل فرح (جامعته) الى اميركا طامعاً بالرزق قال الشاعر احمد محرم يخاطبه:

ان كنت لا تبغي لنفسك راحة   فأرحْ مطيّك والدنى وبنيها

وتعب فرح الشرقي في ميدان الدولار لان صوفيته الشرقية حالت دون ذلك. وهاك مقطعاً من خطابه امام شلال نياغرا ، فهو يدلك بعض الدلالة على روحية ادبينا وسبب اخفاقه :

قد غيّروا ارضك ومن عليها أيها الشيخ ، وهم يظنون انهم جملوها ، وما جمالهم الا كجمال المرأة الدميمة . زخرف خارجي ، وطلاء سطحي . حك هذا الطلاء قليلاً تجد تحته جيفة منتنة. كنت اجمل منك اليوم حين كان شاطئاك ملجأ للمتوحشين ومعتركا للنمور والاسود ، وملعباً للذئاب والتماسيح ، ومرقصاً للدببة والقردة .

كان يومئذ جمالك وحشيا طبيعيا يقشعر له جلد التصور ، ويرتد عنه طرف الخيال مذعـــوراً .

كان يومئذ جمالك جمالاً حقيقيا ، اما اليوم فقد اسروك كما تؤسر الاسود في الاقفاص ، وتجعل فرجة للناس . قد اصبح شاطئاك مرتعا لذئاب ونمورة ودببة وقردة من جنس جديد ، لها طباع تلك ولكنها تمشي على قائمتين:

ان روحاً مادية هائلة هبت على العالمين فضعضعت المباديء وزعزعت الشرائع وسحقت الاديان والآداب وساقت الناس بعصا الحاجة الحديدية الى مبادىء هائلة . جعلتهم ذئاباً هائلة تتعادى وتتسلح تـأهباً لاقتتال افظع من اقتتال الذئـــاب ، والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرهـا وقويهـا ضعيفها ، كما تفعل اسماكك ، والكمال للدولار وحده »

فهرست الاعلام

فهرست

٩٥٢ / ١ / ١٤٦